نازلي

ملكة.. في المنفى

راوية راشد

دار الشروق

نازلي

ملكة.. في المنفى

نازلي
ملكة في المنفى

راوية راشد

الطبعة الأولى ٢٠٠٨
طبعة دار الشروق الأولى ٢٠١٨
الطبعة الثانية ٢٠١٩

تصنيف الكتاب: تاريخ / سيرة

© دار الشروق

٧ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
www.shorouk.com
dar@shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠١٨/٧٦٣٧
ISBN 978-977-09-3470-8

تصميم الغلاف: محمود عبده - رجائي عبد الله

راشد ، راوية
القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٨
تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٤٧٠٨
١ - المذكرات
أ. تاريخ
ب. العنوان

نازلي ملكة في المنفى/ راوية راشد
١٥٤ ص، ١٧ سم
رقم الإيداع ٢٠١٨/٧٦٣٧

٩٢٠/ ٩٥٣

راويـة راشـد

نازلي
ملكة.. في المنفى

دار الشروق

إهداء

إلى نبيل داود

بدونك ما استطعت أن أكمل الرحلة

راوية راشد

المحتويات

مقدمة الطبعة الثانية ٩
قبل أن نقـرأ ١٥
نظرة على التاريخ ٢٣
من هي نازلي؟ ٣٠
الملكة نازلي الأم ٤٥
الزفاف الملكي ٥٩
زفاف الأميرة فوزية ٦٢
أحمد باشا حسنين ٨٣
الرحيل ٩٤
الحياة في لوس أنجلوس ١١٤
بداية الانهيار ١٢٣
سنوات الهوان ١٣٢
النهاية ١٤٢
وثائق جديدة للطبعة الثالثة ١٥٥
الرسائل المتبادلة بين رياض غالي وفؤاد صادق ١٥٥
كيف مات الملك فاروق ١٦٤

مقدمة الطبعة الثانية

بعد صدور الطبعة الأولى فوجئت بردود الفعل الكثيرة التي عبرت بصدق عن الامتنان الشديد للجهد الذي بُذل للكشف عن شخصية «الملكة نازلي» التي ظلمت نفسها أكثر مما ظلمها الناس والأقدار. وكم تساءلت: لو لم تكن تلك المرأة ملكة فهل كانت دراما حياتها ستحظى بنفس القدر من الاهتمام كما حظيت هي؟ وهل هناك مزيد من التفاصيل لا تزال خافية لم يكشف عنها بعد؟

لقد عاشت الملكة نازلي أربعة وثمانين عامًا، قضت منهم أكثر من أربعين عامًا سلطانة وملكة وأم ملك، وقضت الأربعين عامًا الأخرى امرأة وحيدة في المنفى الذي اختارته بكامل إرادتها عندما قررت أن تعيش بين دول أوروبا وأمريكا مع ابنتها الأميرة فتحية، فنجدها تدفع ثمن سنوات السلطة والجاه سنوات من الهوان والآلام، كأن كل ما حصلت عليه من الدنيا كملكة على مدى نصف عمرها سددته بالكامل في النصف الآخر كامرأة عادية تواجه العواصف والأعاصير والطامعين فيها وفي ثروتها لتفقد في النهاية كل شيء.. أبنائها وثروتها واسمها.

ولا أُخفي عليكم أنه وحتى الطبعة الأولى كانت هناك تساؤلات عديدة تدور في ذهني لم أكن قد وصلت إلى إجابات لها، تساؤلات حول علاقة رياض غالي بـ«الملكة نازلي»، وكيف يمكن لامرأة بمكانتها وخبرتها في الحياة أن تثق ثقة عمياء في رجل مثله بلا أي خلفية علمية أو ثقافية، فتضع بين يديه كل ثروتها ومجوهراتها التي خرجت بها من مصر وتزوجه ابنتها الصغرى الأميرة فتحية، أكثر البنات قربًا إلى قلبها، لكن السؤال الذي كان يشغل بالي دائمًا هو: لماذا خان رياض غالي الثقة وأطاح بالأمانة فبدد الثروة وقتل الابنة؟ وما هي التفاصيل التي شكلت الحياة على مدى ثلاثين عامًا منذ ظهور غالي في حياة الملكة نازلي وبناتها عام ١٩٤٦ وحتى مقتل الأميرة فتحية عام ١٩٧٦؟ وكيف سيطر غالي على الحياة وامتلك جميع العناصر طوال تلك السنوات حتى انتهى الأمر بضياع الماضي والحاضر وكل شيء؟

وبعد صدور الطبعة الأولى اتصل بي الكثيرون ممن عاصروا مأساة الملكة نازلي

من المصريين المقيمين في الولايات المتحدة الأمريكية وبالتحديد ممن كان لديهم بعض الوثائق أو الذكريات معها، ومنهم الأستاذان: أحمد حبيش، ومحفوظ دوس، اللذان لم يبخلا بأي معلومات أو وثائق لديهم؛ الأمر الذي كشف بعض الأسرار التي اعترضتني أثناء كتابتي للطبعة الأولى. فالأستاذ أحمد حبيش يحتفظ بكم هائل من الأوراق والمستندات التي تخص رياض غالي، حصل عليها أثناء عمله في مكتب المحامي الأمريكي «جوزيف برينفيلد» الذي لجأت إليه الأميرة فتحية أثناء النظر في قضية طلاقها من رياض غالي، وقضية إعلان إفلاس الملكة نازلي منذ ثلاثين عامًا. وكان الأستاذ حبيش وقتها يعمل محاسبًا قانونيًّا، وقد استعان به «برينفيلد» كي ينضم إلى فريق المحامين الذين ينظرون القضية؛ لإلمامه باللغة العربية وأيضًا لتحليل الأوضاع المالية لكل الأطراف المتنازعة في قضية التفليسة.

وقد كشف لي الأستاذ حبيش عن كثير من الأسرار من خلال أربعة صناديق لا تزال بحوزته، بها جميع الأوراق التي احتوتها القضية، وأكد أن الأميرة فتحية قد جاءت بهذه الأوراق التي كانت موجودة في منزلها في بيفرلي هيلز والتي تخص زوجها رياض غالي إلى المحامي «برينفيلد» ربما يجد فيها شيئًا يحسن من موقفها في القضية هي وأمها الملكة نازلي، بعد أن فوجئت بأن زوجها رياض غالي كان قد كتب جميع ممتلكات الأسرة باسمه بينما ترك الديون باسم الملكة نازلي، وأن أصل الدين الذي تبلغ قيمته مليوني دولار وستمائة ألف إنما هو رهن بنكي للمجوهرات الملكية التي وضعتها الملكة في خزانة البنك وأخذ غالي بضمانها الدين المذكور. وعند فتح الخزينة اكتشف البنك أن مديونيات الملكة تفوق حجم وقيمة المجوهرات، وبالتالي فقد كان من المتوقع أن يتم سجن الملكة نازلي استيفاءً لسداد الدين؛ الأمر الذي دفع الأميرة فتحية إلى رفع قضية على رياض غالي كي تثبت أن جميع الممتلكات التي بحوزته إنما هي جزء من ثروة أمها الملكة نازلي، كي تدخل هذه الممتلكات في حسبة سداد الدين وتنقذ أمها من السجن، كما حاولت إثبات أن رياض غالي كان قد اقترض المبلغ دون علم الملكة بموجب التوكيل الذي كان بحوزته، خاصة أن هذا التوكيل لا تدري الملكة عنه شيئًا حيث إن رياض غالي قام باستخراجه دون علمها من خلال الأوراق الملكية الممهرة بإمضائها على بياض والتي كانت بحوزتها؛ حيث استخدم إحدى تلك الأوراق وكتب عليها صيغة التوكيل.

والحقيقة أن الجهد الكبير الذي بذلته الأميرة فتحية كي تنقذ الملكة نازلي من

تداعي عملية الإفلاس كان جهدًا يليق فعلًا بأميرة، فقد صارعت بضراوة كل التحديات لتبرئ ذمة أمها الملكة، وقد شاءت الأقدار أن كل الأوراق التي احتفظ بها رياض غالي كانت وثيقة إدانة له تثبت تورطه طوال تلك السنوات للاستيلاء على ثروة الملكة؛ حيث احتوت الصناديق الأربعة التي جمعت فيها الأميرة فتحية تلك الأوراق على أسرار عديدة وكشفت أساليب غالي في الاحتيال على أموالهم، كما كشفت أيضًا عن علاقات كثيرة وشخصيات لم تكن واضحة من قبل، مثل علاقة رياض غالي وفؤاد صادق الذي تزوج فيما بعد من الأميرة فايقة، والذي كان يعمل موظفًا في سفارتنا بالصين عام ١٩٤٤؛ حيث ظهرت تلك العلاقة من خلال الرسائل المتبادلة بينهما؛ حيث تبين أن كلًّا منهما كان يستغل عمله في السفارات المصرية في مجال السمسرة وشراء وبيع بعض السلع والاتجار بها، كما كشفت الأوراق كيف سعى رياض غالي على أن يقرب صديقه فؤاد صادق إلى الأميرة فايقة، وأن يتوسط لدى الملكة كي تنقله من سفارتنا في الصين إلى القنصلية المصرية في سان فرانسيسكو؛ الأمر الذي انتهى بأن تقع في شباكه الأميرة فايقة وتتزوجه.

وداخل هذا الكم الهائل من الأوراق والوثائق التي يحتفظ بها الأستاذ حبيش رسائل ومكاتبات شخصية بين رياض غالي وأسرته التي كانت تقيم بقرية البداري في أسيوط؛ حيث ترك أبوه عمله كمدرس ابتدائي واتجه إلى العمل في مجال إقراض المال حيث انتهى الأمر بمقتله على يد أحد الدائنين. كذلك كشفت الأوراق عن علاقة غالي بشركات السمسرة العالمية وعصابات تهريب الأموال من بلد لآخر، وكيف عمل سكرتيرًا شخصيًّا للملكة نازلي بعد أن تركت مصر في رحلة العلاج واستقرت في فرنسا؛ حيث ترك غالي عمله كموظف في قنصلية مصر في مارسيليا ورافقها إلى الولايات المتحدة الأمريكية واستطاع من خلال اتصالاته العديدة أن يحول لها أرصدتها من مصر ومن بنوك أوروبا إلى حسابها في البنوك الأمريكية؛ حيث كانت تسحب أموالها من حسابها الخاص في البنك الأهلي المصري عن طريق إلهامي باشا حسين سكرتيرها الشخصي الذي كان يحول المبالغ النقدية من حسابها إلى حساب رياض غالي الذي يقوم الأخير بتحويلها إلى الخارج. ولكن أين ذهبت كل هذه الأموال التي استولى عليها غالي وكيف أنفقها؟ وقد أجابت الأوراق التي لا تزال بحوزة الأستاذ أحمد حبيش على ذلك، فقد تبين أن مجمل الشيكات التي سدد بها غالي ديونه على موائد القمار في مدينة لاس فيجاس أكثر من ستين ألف

دولار في الشهر إلى جانب الخسائر التي كان يدفعها بمبالغ نقدية يحملها معه، والتي قدرت بمبلغ عشرين ألف دولار، فهل ضاعت ثروة الملكة على موائد القمار؟

أربعة صناديق ممتلئة بالأوراق التاريخية يحتفظ بها الأستاذ حبيش ظلت قابعة لديه أكثر من ثلاثين عامًا كشفت الكثير من العلاقات المتشابكة بين رجل بسيط من عامة الشعب استطاع وبمهارة أن يغزو عقل الملكة ويستولي على أملاكها وأن يغزو قلب ابنتها فيتزوجها ويسيطر على حياتها لينتهي الأمر بأن يسلبهم كل شيء في ظروف غير عادية انتهز فيها كل الفرص ليصبح شاهدًا على انهيار حياة آخر أبناء الأسرة العلوية.

والغريب أن تلك الأوراق التي يحتفظ بها الأستاذ حبيش تحتوي على تفاصيل كثيرة تكشف حجم الثروة التي خرجت بها الملكة نازلي من مصر، وحجم التحويلات التي كانت الحكومة المصرية تحولها إلى الملكة والأميرات أثناء وجودهن خارج البلاد منذ عام ١٩٤٦، والتي بلغت أكثر من مليوني دولار حتى عام ١٩٥١؛ حيث أوقفها الملك بعد أن غضب عليهم وانتزع ألقابهن ومنع تحويل أي مبالغ لهم، بعد زواج الأميرة فتحية من رياض غالي. وأثناء تلك الفترة ١٩٤٦: ١٩٥١ كان رياض غالي يحصل على أي مبالغ تحول للملكة والأميرات من مصر ويحولها إلى حسابه الشخصي من خلال شيكات موقعة منهن على بياض؛ حيث كان يكتب المبالغ التي يريد الاستيلاء عليها على تلك الشيكات ويودعها باسمه في حسابه الشخصي. ولدى الأستاذ حبيش كم هائل من الشيكات الموقعة على بياض من قبل الأميرات والملكة والتي احتفظ بها رياض غالي على مدى السنوات، والتي كان يستخدمها كما يشاء. ويؤكد الأستاذ حبيش أن الأميرة فتحية قالت له: إن هذه الشيكات أخذها غالي كي يسدد عنا المصاريف وفواتير المشتريات أثناء تواجدهن في أوروبا وأمريكا مع والدتهن، ولم تكن لديها هي وأختها الأميرة فايقة أي فكرة عن الأمور المالية في ذلك الوقت، فقد اعتدن أن يقوم آخرون بمثل هذه التفاصيل، وأن رياض غالي كان في ذلك الوقت سكرتيرًا لأمهما الملكة نازلي ولم تشك لحظة واحدة في أنه سيسيء استخدام تلك الشيكات ويستولي على حساباتهن.

كما احتوت تلك الأوراق التي وجدتها لدى الأستاذ حبيش على رسائل شخصية ومكاتبات بين الملك فاروق ووالدته الملكة نازلي، ومنها رسائل يطمئن بها على صحتها ويرجوها العودة إلى مصر.

وأيضًا أوراق بخط يد رياض غالي نفسه بها وصف تفصيلي لمجموعة

المجوهرات التي كانت بحوزة الملكة، والتي كانت تحتوي على أربعة أطقم كاملة (عقد وحلق وأسورة وبروش وخاتم)، وخمس أساور من الألماظ، إلى جانب عدد كبير من الحلي على أشكال مختلفة، بالإضافة إلى وصف تفصيلي لتاج مصر الذي ارتدته الملكة نازلي في جميع المناسبات، والذي لم يظهر ضمن المجموعة التي بيعت بعد الإفلاس في المزاد العلني بالولايات المتحدة؛ الأمر الذي يجعلنا نطرح تساؤلًا مهمًّا: أين ذهب تاج مصر، ومن الذي اشتراه؟

وقد أظهرت الأوراق والوثائق التي يحتفظ بها الأستاذ حبيش أن رياض غالي عرض على جلالة الملك فيصل شراء مجموعة المجوهرات الملكية ومن بينها تاج مصر، وقد احتفظ الأستاذ حبيش بمسودة خطاب بخط اليد من رياض غالي إلى جلالة الملك فيصل مؤرخ بتاريخ ٧ ديسمبر عام ١٩٧١، والأرجح أن غالي كان قد كتب الخطاب وأعطاه لأحد كي ينسخه على الآلة الكاتبة واحتفظ بالمسودة التي احتوت على طلب منه بالنيابة عن زوجته الأميرة فتحية وحماته الملكة نازلي لبيع مجموعة مجوهراتها نظرًا لضيق الحالة الاقتصادية التي يعانون منها، ويرجوه بحكم أواصر الصداقة والمعرفة بين جلالته والعائلة الملكية المصرية أن يشتري بشكل خاص التاج الملكي. فهل اشترى الملك فيصل تاج مصر أو أي شيء من مجموعة المجوهرات؟ لا أحد يدري، لكن مسودة الخطاب الذي أرسله غالي موجودة في حوزة الأستاذ حبيش، وقد أخذت صورة منه لعرضها ضمن وثائق الكتاب.

وبعد اطلاعي على الأوراق الموجودة بحوزة الأستاذ حبيش اكتشفت السر الذي حيرني كثيرًا وأنا أبحث عن حياة الملكة نازلي، وهو سر انقيادها لرياض غالي، فقد كان من غير المنطقي أن تستسلم امرأة بحجم وخبرة الملكة نازلي إلى رجل مثله، وتتركه يفسد حياتها وحياة ابنتها الصغرى، دون أن تملك الشجاعة أو القدرة على إيقافه عند حده. وقد تبين من الأوراق أن رياض غالي وعبر تلك السنوات كان قد جردها من أموالها بسحب جميع أرصدتها وإيداعها باسمه في حسابات شخصية، كما أنه سجل كل الممتلكات باسمه من البيت الذي يعيشون فيه في بيفرلي هيلز وحتى بيت هاواي والسيارات والخيول العربية، ولم يكتفِ بذلك بل جردها من مجوهراتها وقام باقتراض أكثر من مليوني دولار باسمها وبضمان المجوهرات؛ حتى يضمن السيطرة عليهن وإرغامهن على الانصياع له، وهذا ما يفسر قلة حيلة الملكة نازلي وعدم قدرتها على مواجهته أمام عنفه وسوء معاملته، كما يفسر أيضًا

نبرة الرجاء والتوسل التي ظهرت في إحدى الرسائل الموجودة ضمن الأوراق التي يحتفظ بها الأستاذ حبيش والتي كتبتها الملكة نازلي بخط يدها إلى رياض غالي ترجوه وتستعطفه أن يعيد مجوهراتها التي استولى عليها، كما ترجوه أن يبيع المجوهرات ليعيشوا بها بدلًا من رهنها بقرض مالي كبير من الممكن أن يعود عليهم بكارثة، وقد حدث، وهذا ما أكده لي الأستاذ محفوظ دوس الذي كان قريبًا من العائلة وكان شاهدًا على الخلافات الحادة التي تفاقمت بين غالي وزوجته الأميرة فتحية وأمها الملكة نازلي في السنوات الأخيرة. فقد أكد لي أن غالي كان يقوم بطردهن من المنزل وتشريدهن بين أبناء الجالية المصرية عند كل خلاف، ولم لا والمنزل والسيارات وكل شيء ملكه؟

ويقول الأستاذ أحمد حبيش: إن شخصية رياض غالي شخصية عجيبة، فقد كان يحتفظ بكل ورقة لديه، وبالتالي تجده محتفظًا بفواتير ومكاتبات شخصية وإيصالات بنكية ورسائل ومكاتبات بينه وبين العديد من الشخصيات، وبيان بأرصدة حساباته في البنوك، ومجمل التحويلات التي كان يقوم بتحويلها من حسابات الملكة والأميرات إلى حسابه الشخصي، وقد كانت كل ورقة من تلك الأوراق دليل إدانة على خيانة الأمانة والاحتيال على الملكة نازلي. ويؤكد الأستاذ حبيش أن تلك الأوراق قد أفادته في كتابة تقريره المالي الذي قدمه إلى المحكمة، والذي أثبت فيه أن كل ممتلكات رياض غالي إنما هي ممتلكات للملكة وابنتها الأميرة فتحية، وبالتالي فإنه شريك متضامن في الديون المستحقة على الملكة؛ حيث ضمت المحكمة ممتلكات غالي (بيت بيفرلي هيلز وبيت هاواي والسيارات والخيول العربية) إلى قضية التفليسة، وتم بيع تلك الممتلكات إلى جانب المجوهرات في مزاد علني استيفاءً للدين المستحق، واستطاعت الأميرة فتحية بذلك إنقاذ أمها الملكة نازلي من السجن.

إن الكنز الذي يحتفظ به الأستاذ أحمد حبيش من أوراق شخصية تخص الملكة نازلي ورياض غالي إنما يكشف عن صراع خفي لم تشعر به الملكة ولا الأميرة فتحية، صراع حاول من خلاله رياض غالي أن يسيطر تمامًا عليهن، وربما الانتقام منها، ولا أحد يعرف سر هذا الحقد الدفين وهذه المرارة الكامنة في نفسه تجاه امرأة أعطته كل شيء فسلبها الماضي والحاضر وأدمى قلبها على أعز إنسان لديها؛ ابنتها «أتي» أو الأميرة فتحية.

قبل أن نقرأ

خارج أسوار السلطة الكل يتساوى لا فرق بين أمير وغفير، وخارج أسوار الوطن تتساوى الأشياء، لا فرق بين طعم الملح وطعم الشهد، ولا بين ملمس الحرير وملمس الشوك. وسواء اخترت غربتك أو فرضت عليك، فالطريق واحد، فأنت تسير عكس الريح بلا وجه أو عنوان، وفي النهاية أنت وحيد في بلاد غريبة بلا ماضٍ ولا تاريخ.

فما بالك إذا كان وراءك تاريخ وملك وسلطان، وعائلة امتد حكمها منذ القرن السابع عشر واختلطت فيها الدماء التركية مع الدماء الفرنسية، لا بد أن الأمر سيكون في غاية التعقيد، وستكون الغربة منفى وسيكون القرار مثل نصل السكين، لا ينفذ فقط إلى قلبك، بل سيطعن كل المحيطين بك، وستلوث الدماء الماضي والحاضر، وتصبح رحلة الفرار إلى المجهول وصمة عار على الجبين.

وهذا ما حدث للملكة نازلي التي اختارت حياة المنفى بكامل إرادتها، وحكمت على نفسها بالسير على الأشواك إلى المجهول في بلاد بعيدة، عندما تركت مصر واستقرت في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٤٧ ومعها ابنتاها الصغيرتان الأميرة فايقة (عشرون عامًا) وفتحية (ستة عشر عامًا).

اختارت الملكة نازلي المنفى بعيدًا عن جحيم الحياة في القصور الملكية بعد أن استحالت الحياة بينها وبين ابنها الملك فاروق، وبعد أن اشتد الخلاف بينهما إلى حد القطيعة، لكنها لم تكن تعلم أنها هربت من النار إلى الرمضاء؛ حيث جحيم الغربة وقسوتها وسط الطامعين فيها وفي بناتها من المغامرين، الذين حطموا المرآة التي كانت ترى فيها صورتها كملكة لمصر، فتناثرت الشظايا وتحطمت الوجوه، وانتهى الأمر إلى أن عاشت في الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من ثلاثين عامًا في المنفى الذي اختارته بمحض إرادتها؛ حيث قطعت طريق الشوك بكل آلامه بعد أن تبددت ثروتها وتم إعلان إفلاسها وبيعت مجوهراتها الملكية في مزاد علني، وانتهى بها الأمر إلى الحياة في حي الفقراء بضاحية «ويست وود» بلوس أنجلوس؛ حيث كان بعض المصريين يعطفون عليها ببعض القروش القليلة. فتبدل ملمس الحرير الذي كانت

تنام عليه وهي ملكة لمصر إلى خيش، وتبدلت الثياب التي كانت تأتيها خصيصًا من أشهر بيوت الأزياء العالمية إلى جلباب بسيط من الدبلان لا تملك غيره، وانطفأت الشموع التي كانت تضاء حولها في أي مكان تسير فيه، فلم يبقَ غير الظلام الذي كانت تجلس فيه وحيدة تنتظر الموت.

لقد بدأت الرحلة ببساطة كما رصدتها الأوراق الحكومية ونشرتها الصحف، أن الملكة نازلي قد غادرت البلاد إلى أوروبا بصحبة ابنتيها الصغيرتين فايقة (١٩ سنة)، وفتحية (١٥ سنة) في رحلة علاجية عام ١٩٤٧. وعبر ثلاثة أعوام لم تنشر الصحف أي أخبار عن الملكة سوى عناوين متفرقة عن صحتها؛ حيث سافرت من أوروبا إلى الولايات المتحدة لإجراء جراحة في الكلى.

صحيح أن صحة الملكة كانت في انهيار شديد، وعجز الأطباء المصريون عن تسكين الآلام التي كانت تلازمها، لكن كان الأخطر من تدهور صحتها هو تدهور حالتها النفسية بسبب اتساع الخلافات بينها وبين ابنها الملك فاروق، الذي وافق على سفرها إلى فرنسا للعلاج بعد أن أقنعه طبيبه الخاص د. الكفراوي بأن حالة الملكة نازلي في تدهور مستمر وأن حياتها ستصبح في خطر إذا لم تعالج من الفشل الكلوي. وعلى هذا الأساس سافرت الملكة نازلي إلى سويسرا ثم إلى فرنسا في نهاية عام ١٩٤٦، كما وافق الملك أيضًا على أن تصحبها شقيقتاه الصغيرتان فايقة وفتحية، وخمس من المربيات، وطبيب الملكة وسكرتيرها الخاص، وكان يعتقد أن رحلة العلاج لن تستغرق سوى بضعة أشهر، دون أن يدري أنها المرة الأخيرة التي سيرى فيها أمه وشقيقتيْه.

وفي سرية تامة جمعت الملكة كل مجوهراتها وأكبر كمية ممكنة من النقود الورقية والذهبية، بالإضافة إلى ثمن الأراضي التي ورثتها عن أمها توفيقة هانم ابنة شريف باشا رئيس وزراء مصر أيام محمد علي، والتي باعتها وحولت ثمنها إلى حسابها الخاص في سويسرا؛ حيث كانت كل الشواهد تشير إلى أن الملكة قد قررت ألا تعود مرة أخرى إلى مصر.

ومنذ سفر الملكة نازلي عام ١٩٤٦ وحتى وفاة الملك فاروق عام ١٩٦٥ لم يحدث أي حوار بينهما، وعندما أجرت الملكة جراحة دقيقة عام ١٩٤٧ في مستشفى «مايو كلينك» بالولايات المتحدة، حدث اتصال واحد من الملك للاطمئنان على

صحتها وردت عليه شقيقته الأميرة فايقة واعتذرت له عن عدم قدرة أمها الملكة نازلي على الحديث. وعندما تصاعدت ردود الأفعال بين الطرفين بسبب زواج الأميرة فتحية الشقيقة الصغرى للملك من رياض غالي، تبادل الاثنان ـ الملك فاروق والملكة نازلي ـ الحوار باقتضاب شديد، وأنهت الملكة نازلي المكالمة بعد أن قالت رأيها، فقد وافقت الملكة نازلي على زواج ابنتها من رجل من عامة الشعب على غير ملة ابنتها لا لشيء إلا لتغيظ ابنها الملك فاروق.

وعندما قامت ثورة يوليو ورحل الملك فاروق عن مصر، حاولت الملكة نازلي أن تتصل به لكنه أغلق السماعة ولم يرد عليها، وعلى الفور نشرت صحيفة «نيويورك تايمز» تعليقًا للملكة نازلي عَمَّا حدث، بأنها كانت تتوقع حدوث شيء سيئ في مصر، فقد كانت أحوال السياسة في انهيار مستمر، واعتبر الملك فاروق ذلك نوعًا من التشفي فيه.

إذن فقد كانت العلاقة بين الملكة نازلي وابنها الملك فاروق قد وصلت إلى طريق مسدود؛ بحيث أصبح من المستحيل أن يتبادل الطرفان حوارًا، فكل منهما كان يحاول إيلام الآخر بشتى الطرق.

ولم تكن لدى الملكة نازلي بعد أن سافرت إلى الخارج واستقرت في الولايات المتحدة الأمريكية إلا التصريحات الصحفية التي كانت كل كلمة فيها موجهة ضد ابنها الملك فاروق.

لكن قلب الأم كان قد ضعف عندما سمعت خبر موته، ورغم مرضها الشديد حضرت الملكة نازلي عام ١٩٦٥ جنازته في روما، وكانت تبلغ من العمر واحدًا وسبعين عامًا، ولم يمنعها المرض ولا كبر السن من السفر أكثر من عشرين ساعة من لوس أنجلوس لتودعه وتراه للمرة الأخيرة.

لقد أسرتني العلاقات الدرامية لهؤلاء الأشخاص حتى أصبح من الصعب الفكاك منهم، ولا أنكر أن قصة الملك فاروق وما حدث له هو وشقيقاته بعد ثورة يوليو من الممكن أن تكون قصة مألوفة عندما يسقط أي عرش في يد الثورة، بل على العكس فقد كان الملك فاروق محظوظًا؛ لأن ثورة يوليو أبقت على حياته هو وأسرته ولم تقضِ عليهم، كما حدث في فرنسا مع الثورة الفرنسية أو في روسيا مع الثورة البلشفية. ولكن الدراما الحقيقية كانت في حياة الملكة نازلي التي حملت لأول مرة في تاريخ مصر ثلاثة ألقاب، فقد كانت سلطانة على البلاد بعد زواجها من السلطان

فؤاد عام ١٩١٩، وعندما أصبح السلطان ملكًا أصبحت هي ملكة مصر، وعندما تولى ابنها عرش مصر عام ١٩٣٧ أصبحت صاحبة الجلالة الملكة الأم.

وطوال ستين عامًا حملت فيهم الملكة نازلي كل تلك الألقاب لم تهنأ ليلة واحدة، فقد كانت حياتها سلسلة لا تنقطع من الآلام والعذاب، بعضه فرض عليها والبعض الآخر اشتركت هي في صنعه؛ حيث عاشت أربعة وثمانين عامًا رأت فيهم الكثير وتحملت فيهم الكثير؛ حيث كان الجاه والسلطان نقمة، وكان القصر سجنًا، وكان الأبناء لعنة. ولا أتصور أن هناك امرأة يمكن أن تتحمل ما تحملته الملكة نازلي، فقد عاشت لترى عرشًا ينهار، وأبناء يتفرقون، وأحفادًا لا تعرفهم، وأبناء يقتلون، وفوق كل ذلك آلام المرض وذل السؤال وغدر الدنيا.

ولكن ما الذي دفعني كل أتتبع خيوط هذه المأساة؟ وكيف استغرقتني حياة هذه المرأة التي عاشت رحلة الصعود إلى المجد، ثم ذاقت مرارة السقوط؟

لا أعرف الإجابة. غير أن حياة هذه المرأة (الملكة نازلي) بكل ما فيها من عذابات جذبتني بشدة، فلم أستطع الفكاك لحظة من البحث عنها، فقد كنت أجمع وجوهًا تناثرت ملامحها عبر مرآة محطمة، وفي كل مرة كنت أتصور أن شظايا المرآة قد اكتملت، أجد وجوهًا كثيرة لم تكتمل. فقد كانت حياة الملكة نازلي أشبه بعقد تناثرت حباته في كل أرجاء الدنيا، من القاهرة إلى إستنبول، ومن فرنسا إلى الولايات المتحدة، ومن إيران إلى سويسرا، وجوه عديدة وشخصيات درامية يعجز أي كاتب عن صنعها، وأقدار عصف بها الزمن وغدرت بها الدنيا.

والبداية جاءت بمحض الصدفة عندما ضاقت بي الدنيا عام ١٩٩٥ وتزوجت ورحلت أنا وبناتي من مصر لنعيش في الولايات المتحدة الأمريكية. كنت أتصور وقتها أنني لن أعود أبدًا إلى مصر، لكن الغربة حتى وإن اخترتها بنفسك فستشعر أنها باردة ومؤلمة كنصل السكين، كأنك استبدلت أمك بامرأة غريبة، ربما تكون أجمل وأغنى من الأم الحقيقية، لكنها ستظل دائمًا غريبة عنك لا تشعر بحنانها ولا تستطيع أن ترتمي في حضنها أو أن تستمتع برائحة عطرها. كانت الرحلة في البداية قاسية، فالحياة وسط مجتمع لا تعرفه وبشر لا تنتمي إليهم يحتاج إلى كثير من الصبر وقوة التحمل، وبالتالي لم يستمر قرار الهجرة سوى سنوات قليلة وعدنا إلى القاهرة نرتمي في أحضانها ونعاني من الصدام مع أهلها، لكننا نفرد أجنحتنا ونحلم في حضنها الدافئ بكل الأحلام السعيدة.

فأثناء إقامتي في مدينة لوس أنجلوس ساقتني الأقدار في أحد الأيام إلى الذهاب مع بعض الأصدقاء لزيارة بعض المصريين من المقيمين في المدينة. وأثناء العودة أشار صديق إلى أحد القصور الصغيرة في ضاحية «بيفرلي هيلز»، وقال: هذه كانت فيلا الملكة نازلي، فأخذ الاسم يرن في أذني.

وأخذ يسرد تفاصيل الجريمة التي هزت مدينة لوس أنجلوس منذ ثلاثين عامًا، عندما أطلق رياض غالي ست رصاصات على زوجته الأميرة فتحية أصغر شقيقات الملك فاروق فأودى بحياتها. كان صوت الصديق يرن في أذني وهو يواصل سرد بعض التفاصيل كما قرأها في الصحف. ودفعني الفضول إلى مشاهدة المكان الذي عاشت فيه ملكة مصر ثلاثين عامًا، فطلبت منه أن يتوقف بالسيارة إلى جوار الفيلا، واقتربت من المكان. كانت الفيلا أشبه بقصر صغير تحيطه الأشجار من كل جانب، يرتفع على ربوة صغيرة لها ممر لصعود السيارات. كانت البوابة مفتوحة وعلى جانب البوابة لوحة توضح أن المنزل معروض للبيع بثلاثة ملايين دولار؛ مما شجعني على الدخول لمشاهدة المنزل من الداخل، فدخلت لأشاهد أطلال زمن مَرَّ وذكريات ملكة ماتت منذ ثلاثين عامًا. انتبهت على صوت الصديق وهو يقول: يبدو أن المنزل به لعنة، فكل شخص اشتراه بعد الملكة نازلي وقعت له مصيبة، وآخر شخص سكن فيه كان رجل الأعمال الأمريكي الشهير «رود بيفن» وزوجته، لكنهم يعرضونه الآن للبيع بعد وفاة ابنتهم الوحيدة «إيدي» في حادث سيارة مروع.

دخلت الحديقة التي امتدت أطرافها حتى حمام السباحة الكبير وملعب التنس، نظرت إلى المبنى الذي بدا لي مثل القصور الصغيرة التي يراها الأطفال في الكارتون، بأسطح الأرميد الحمراء والمدخنة العالية والنوافذ الصغيرة التي تطل من الدور الثاني على الحديقة وحمام السباحة. إذن عاشت هنا الملكة نازلي هي وابنتاها الأميرة فتحية وزوجها رياض غالي من عام ١٩٥١ وحتى تم بيع البيت في مزاد علني بكل محتوياته عام ١٩٧٥. وهنا أنجبت الأميرة فتحية أبناءها: رائد ورفيق ورانيا (لاحظ أن الأسماء كلها تبدأ بحرف الراء الذي يبدأ به اسم رياض غالي). سرت في الحديقة بضع خطوات وأنا أتخيل الملكة وهي تنادي على ابنتها الأميرة فتحية أصغر بناتها، «آتي» كما تحب أن تناديها، ورياض غالي وهو ينحني ليقبل يدها وهو يردد بخنوع كلمة «يور ماجيستي» أو مولاتي، وصوت أبناء فتحية وهم يمرحون في حوض السباحة أو وهم يلهون على المراجيح الصغيرة الموضوعة على أطراف الحديقة، والملكة

تجلس في شرفتها تتابعهم وعلى وجهها سعادة بالغة. تخيلت كل هذه الصور وسرحت في أعوام الغربة التي عاشتها ملكة مصر ثلاثين عامًا، وطرأت على ذهني تساؤلات عديدة: لماذا رحلت الملكة نازلي عن مصر؟ ولماذا تحدت ابنها الملك فاروق وزوجت ابنتها الجميلة فتحية إلى رجل أقل منها مكانة وعلى غير ملتها؟ وما الذي حدث لها طوال الثلاثين عامًا، وكيف انهارت الحياة إلى حد إعلان إفلاسها؟ وما الذي دفع رياض غالي إلى أن يقتل ابنتها فتحية، ثم يطلق الرصاص على نفسه في ديسمبر عام ١٩٧٦، فيعيش بعد ذلك أربع سنوات مشلولًا على كرسي متحرك فاقدًا البصر والذاكرة بعد أن استقرت الرصاصة التي أطلقها على نفسه في أحد جوانب المخ؟ وتساءلت: كيف عاشت الملكة نازلي عامين بعد تلك المأساة؟ وكيف هزت الجريمة المجتمع الأمريكي الذي أخذ يتابع القضية ليعرف سر مقتل أصغر بنات الملك فؤاد، وأصغر شقيقات الملك فاروق آخر ملوك مصر؟

خرجت من المكان ورأسي مشغول بتساؤلات كثيرة، وكنت أحاول أن أتقصى تفاصيل أكثر عما حدث من الصديق الذي كان يرافقنا، غير أنه كان يردد فقط ما نشرته الصحف الأمريكية وقت الحادث دون أن يسعفني بالتفاصيل، وكان عليَّ أن أبحث عن كل تلك الملابسات التي أدت إلى مقتل أصغر أميرات الأسرة العلوية، لكنني لم أتصور لحظة واحدة أنني أفتح صندوق باندورا الذي ظل مغلقًا سنوات طويلة على شرور كثيرة، بدأت بإعلان إفلاس الملكة نازلي وبيع مجوهراتها وخروجها من قصرها الجميل في بيفرلي هيلز عام ١٩٧٤، لتعيش هي وابنتها في إستديو صغير عبارة عن حجرة واحدة وحمام في حي الفقراء في ضاحية «ويست وود»؛ حيث كانت الحياة بعد إعلان إفلاس الملكة أشبه بالجحيم، فقد كانت الصدور تمتلئ بالحقد والغضب، وكانت الملكة تضع كل اللوم على رياض غالي الذي بدد ثروتها وأدارها بشكل خاطئ. وبعد بيع كل شيء بالمزاد العلني تشتتت الأسرة؛ حيث طردت الملكة نازلي رياض غالي من حياتها ومنعت ابنتها فتحية من رؤيته، فتفرقت العائلة ورحل أبناء فتحية: رفيق ورائد للسكن في ضاحية سانتا مونيكا، وكان عمر رائد وقتها أربعة وعشرين عامًا (من مواليد ١٩٥٢)، وعمر رفيق عشرين عامًا، وعاشت رانيا مع أمها وجدتها وكان عمرها تسعة عشر عامًا؛ حيث اضطرت للعمل مضيفة في أحد الكافتيريات، وعاش رياض غالي في مساكن الصدقة على أطراف «ويست وود» أيضًا؛ حيث كان يأتيه الطعام عن طريق كوبونات كانت تصرف له كل أسبوع

من «الويل فير» أو مؤسسة رعاية الفقراء العاطلين عن العمل، حتى ماتت عام ١٩٧٨ عن أربعة وثمانين عامًا، ودفنت في مقابر الفقراء بضاحية كالفور سيتي بمدينة لوس أنجلوس؛ حيث كتب أحفادها من الأميرة فتحية عبارة (We Love you Nana, Pray for us)، أي نحن نحبك يا جدتي.. صلي من أجلنا.

ماتت الملكة نازلي بعد عامين من مقتل ابنتها الأميرة فتحية على يد زوجها رياض غالي، وبعد أن اشتد عليها المرض، ولم يكن لديها المال الكافي للعلاج.

لم يكن سهلًا أن نصل إلى الأشخاص الذين عاصروا حياة الملكة نازلي في الولايات المتحدة، فقد مات معظمهم، أما الموجودون على قيد الحياة فقد آثروا الصمت احترامًا لسكون القبر؛ حيث إنني لم أجد سوى قلة قليلة من المصريين الذين عاصروا الحكاية أو شاهدوا ابنتها الأميرة فايزة، التي كانت تعيش أيضًا في أمريكا وماتت عام ١٩٩٤ بعد معاناة مع مرض السرطان، ولم يتبقَّ في أمريكا كلها سوى أبناء الأميرة فتحية من زوجها رياض غالي الذي انتحر بعد أن قتلها بعامين، وهم: رائد ورفيق ورانيا، وكان من الصعب الوصول إليهم فقد اختفوا اختفاءً تامًّا بعد مقتل أمهم وانتحار أبيهم، ليعيشوا في منطقة «سانتا مونيكا» في لوس أنجلوس لا يعرفهم أحد، وربما غيروا أسماءهم ليبدأوا حياة جديدة بعيدًا عن جحيم الذكريات المؤلمة.

لم يكن أمامي إلا الصحف والمجلات التي كانت تنشر أخبار الملكة نازلي؛ حيث كان الأمر يتطلب مني ثلاث ساعات يوميًّا، ولم تكن معظم تلك المجلات قد نسقت أرشيفها على الإنترنت، فقد كنت أجلس ساعات طويلة في حجرة الميكروفيش لأقرأ كل ما كتب عن الملكة نازلي وبناتها منذ وصولها إلى الولايات المتحدة الأمريكية وحتى ماتت. حتى توصلت بعد ثلاثة أشهر إلى حوار أجرته الأميرة فتحية مع جريدة «لوس أنجلوس تايمز» قبل مقتلها بثلاثة أشهر فقط؛ أي في سبتمبر عام ١٩٧٦، ومن خلال ذلك الحديث الصحفي تتبعت الخيوط الأولى للمأساة وأسباب إعلان إفلاس الملكة نازلي، ثم اضطرار الأميرة فتحية إلى العمل كعاملة نظافة لتعين أولادها وأمها المريضة بعد أن ضاعت الثروة وانتهى الحلم.

وبدأت البحث عن إجابات لتساؤلات عديدة: ما حجم الثروة التي خرجت بها الملكة نازلي من مصر؟ وكيف عاشت الملكة أيامها الأولى؟ وأين ذهبت تلك الثروة؟ وكيف لعب رياض غالي دورًا في تبديد تلك الأموال؟ وما هي الدوافع

التي أدت إلى قتله لزوجته الأميرة فتحية بعد أن عاش معها أكثر من خمسة وعشرين عامًا وأنجب منها ثلاثة أولاد؟ ولماذا ذهب فتحية لزيارته في منزله رقم (١٢٢٨) في شارع «بيري» بمدينة لوس أنجلوس ليلة ٨ ديسمبر ١٩٧٦، وقد كانت تعيش في بيت منفصل مع أولادها وأمها منذ عام ١٩٧٣، قبل سفرها إلى مصر بأسبوع واحد، وكانت قد استلمت بالفعل تذكرة الطائرة وأعدت معظم حقائبها؟

كل هذه التساؤلات دفعتني إلى رحلة البحث عن هؤلاء البشر الذين مثلوا يومًا ما شيئًا في تاريخ بلدي. ولا أنكر أن دراما الأحداث التي عاشوها قد جذبتني منذ اللحظة الأولى ودفعتني إلى البحث عن سنوات غربتهم وأيام منفاهم، وأعطتني القوة كلما انتابني اليأس وواجهتني المصاعب في الوصول إلى مفاتيح الأوراق والمستندات الرسمية، التي دمر بعضها أو أخفي لأسباب لا يعرفها أحد، والتي أعانتني كثيرًا في الوصول إلى كل المعلومات والحقائق الخافية. وكنت قد عاهدت نفسي على ألا أذكر شيئًا غير الحقيقة وأن أترفع عن أي إضافات أو ميول شخصية أثناء الكتابة، فما حدث لهؤلاء البشر يفوق كل تصور وما عانوه في حياتهم من آلام وأحداث أبعد من خيال أي كاتب مهما كانت عبقريته في غزل الحيل والحبكات الدرامية، فيكفيهم تلك الحياة التي عاشوها وعانوا منها، فهي أبلغ من أي دراما، بل لعلها الدراما الحقيقية.

نظرة على التاريخ

في عام ١٨٦٣ تولى الخديوي إسماعيل حكم مصر، وكان مفتونًا بفرنسا التي عاش فيها شبابه أثناء التحاقه بالأكاديمية الحربية بليون، وعندما تولى حكم مصر حاول أن يجعل منها قطعة ثانية من فرنسا التي عشقها وفتن بحضارتها الحديثة. والحق أن الخديوي إسماعيل كان بشهادة التاريخ مجددًا ومعمرًا لمصر الحديثة، فقد أقام العديد من القصور والحدائق أشهرها حدائق الأزبكية، وبنى على ضفافها المسارح ودور الترفيه، وشق الترع وأقام الجسور والكباري ليربط شرق الوادي بغربه، ونفذ مشروع قناة السويس التي افتتحت في عهده، وأعاد تخطيط شوارع القاهرة، وأقام فيها الأبنية الضخمة المشابهة تمامًا للأبنية المقامة في شوارع الإليزيه والشانزليزيه. وكان يهوى جمع التحف والقطع الفنية النادرة، لكنه لم يكن محنكًا إداريًّا أو ماليًّا؛ حيث ارتبكت في عصره أحوال الدولة المالية وانتهى الأمر به إلى إعلان إفلاسه شخصيًّا، ومن ثم إعلان إفلاس مصر رسميًّا؛ حيث تم وضع مصر تحت مجلس الوصاية الدولي وتم بيع حصتها من أسهم شركة قناة السويس الدولية. وعلى مدى ستة عشر عامًا، هي مدة حكم الخديوي إسماعيل، حاول جاهدًا أن يجنب مصر هذه النهاية، غير أن القوى الدولية كانت أقوى وأكبر من خبرته المالية، ومن ثم فقد خططت القوى الاستعمارية للاستيلاء على أهم ممر مائي في ذلك العصر (قناة السويس)، ومن ثم الاستيلاء على مصر كلها؛ الأمر الذي أدى به في النهاية إلى عزله عام ١٨٧٩، وتولى ابنه الخديوي توفيق الحكم.

كان الحكم في مصر يئول إلى الابن الأكبر من أبناء محمد علي، لكن الخديوي إسماعيل نجح أثناء حكمه في تغيير قانون حكم مصر، بحيث يئول الحكم إلى أبنائه هو وليس إلى أشقائه، وكان إعلانه لهذا القانون بداية الشقاق بينه وبين العائلة العلوية، التي رأت أنه يخالف قواعد الحكم التي وضعها مؤسس الدولة محمد علي، لكن الخديوي إسماعيل لم يعبأ أثناء حكمه إلا بمصالحه ومصالح أبنائه من بعده، وبالتالي

تحولت دفة الحكم في مصر إلى أبناء إسماعيل بدلًا من أشقائه. وكان للخديوي إسماعيل ستة من الأولاد ومثلهم من البنات من زوجاته الأربع، وبعد إعلان إفلاسه ونفيه خارج البلاد إلى إيطاليا تولى أكبر أبناء الخديوي توفيق الحكم، ومن ثمّ حرم بقية الأشقاء من أبناء إسماعيل الحكم، بعد أن آل الحكم إلى ابنه توفيق ومن ثم إلى أبنائه من بعده.

تولى الخديوي توفيق الحكم وورث تركة مثقلة بالديون، ودولة بها مئات من المنازل والقصور الفاخرة بلا طعام يكفي شعبها، أو جيش يحميها من تعسف فيالق إنجلترا وفرنسا، وأمام تدهور الحالة الاقتصادية والسياسية في البلاد قامت الثورة العرابية، ولجأ الخديوي توفيق إلى القوات الأجنبية لتحميه من الغضب الشعبي الذي كان على وشك الإطاحة به وبعرش أجداده، وتم قمع الثورة ونفي قائدها أحمد عرابي، وفي المقابل أعلنت بريطانيا الحماية على مصر عام ١٨٨٩.

بعد وفاة الخديوي توفيق عام ١٨٩٢، تولى ابنه الخديوي عباس حلمي الثاني الحكم، وكان فتى وطنيًّا يفيض ولاءً لبلاده، حاول أن يتجنب أخطاء أبيه، فأظهر تعاطفه مع القوى الوطنية التي بزغت مع نهايات القرن، وشجع الحركة الوطنية التي اشتعلت على يد نخبة ثائرة من أبناء الوطن أمثال مصطفى كامل الذي بذل جهدًا كبيرًا في عرض القضية المصرية على الرأي العام العالمي رافضًا الوصاية البريطانية على مصر، منددًا بكل التجاوزات التي تقوم بها قوات الاحتلال، وعلى رأسها قتل المدنيين في مذبحة دنشواي، فكان أول من عرض القضية المصرية عالميًّا عبر الصحف الفرنسية.

لكن اتجاهات الخديوي عباس حلمي ومناصرته للقوى الوطنية أزعجت سلطات الاحتلال؛ الأمر الذي دفع المندوب السامي الإنجليزي اللورد كرومر إلى عزله، بل وحرمان ذريته أيضًا من الحكم عقابًا له.

ولم يكن أمام اللورد كرومر إلا أن يتجهوا مرة أخرى إلى أبناء إسماعيل لاختيار سلطانٍ لمصر، فتم تعيين حسين كامل سلطانًا على مصر، وكان ترتيب حسين كامل الثالث من بين أبناء الخديوي إسماعيل.

وبعد وفاة السلطان حسين كامل، كان من الطبيعي أن يتولى ابنه الأمير كمال الدين حسين الحكم من بعده، لكنه كان عازفًا عن السياسة محبًّا للفنون الراقية كالتصوير وأعمال النحت، ميالًا إلى الحياة الهادئة، يكره السياسة ولا يريد أعباء الحكم،

وبالتالي فقد اعتذر عن قبول السلطة في مصر، وقال عبارته الشهيرة: «لن أحكم دولة ترتع تحت أحذية الاحتلال الإنجليزي».

ظلت مصر بلا حاكم أكثر من ثلاثين يومًا، ولم يكن أمام المندوب السامي البريطاني إلا أن يبحث عن حاكم آخر لمصر يتناسب واتجاهات السياسة البريطانية.

واتجهت الآراء مرة أخرى إلى أبناء الخديوي إسماعيل، ولم يكن متبقيًا منهم سوى الأمير أحمد فؤاد أصغر أبناء الخديوي إسماعيل، فوقع الاختيار عليه؛ حيث وجد فيه المندوب السامي البريطاني كل المواصفات التي تتناسب والسياسة البريطانية في ذلك الوقت.

كان ترتيب الأمير أحمد فؤاد الثاني عشر بين أبناء الخديوي إسماعيل، وعندما عزل الإنجليز الخديوي إسماعيل ورحل إلى منفاه في إيطاليا عام ١٨٧٩ كان عمر الأمير أحمد فؤاد اثني عشر عامًا؛ حيث رحل إلى المنفى مع أبيه وأمه فريال هانم أفندي لصغر سنه. وفي إيطاليا عاش طفولته وشبابه كلاجئ سياسي يعيش هو وأسرته على المعونة التركية التي كان يرسلها السلطان عبد الحميد من الآستانة إلى فريال هانم، التي كانت تعتبر في مقام ابنة شقيقته، وعندما أكمل الأمير أحمد فؤاد سن الخامسة والعشرين التحق بالكلية الحربية في تورينو ودرس العلوم العسكرية، ثم انضم بعد تخرجه إلى الجيش الإيطالي ليعمل في الفيلق الثالث عشر في روما لمدة ثلاث سنوات؛ حيث كان يعاني من سوء المعاملة وعدم وجود عائد مادي يكفي معيشته؛ لذا توسط له أحد أقرباء والدته ورتب له زيارة إلى تركيا لمقابلة السلطان عبد الحميد، وكانت مصر ما تزال ولاية عثمانية، رغم وجود الاحتلال البريطاني فيها، وبالفعل سافر الأمير أحمد فؤاد إلى تركيا واستطاع بصعوبة مقابلة السلطان، وعندما عرض عليه الأمر ووضح له سوء الحالة التي يعانيها في المنفى أمر السلطان عبد الحميد بعودته إلى مصر، بدلًا من عمله كضابط تحت السلاح في دولة لا ينتمي إليها مثل إيطاليا، ليعمل في الجيش المصري، وأنعم عليه برتبة لواء، كما خصص له قصرًا وبضعة أفدنة من الخاصة السلطانية في مصر، ومن ثم فقد عاد الأمير أحمد فؤاد بعد عشر سنوات إلى مصر التي خرج منها طفلًا، عاد إلى مصر التي لا يعرفها، أميرًا مفلسًا لا يعرف شيئًا عنها ولا يتكلم لغة أهلها. كانت مصر غريبة عنه، لا يعرف شيئًا عن تاريخها غير أنها محتلة من قوة لا يمكن أن يتحداها أحد، قوة سحقت والده وسحقته هو شخصيًا سنوات طويلة في المنفى.

جاء أحمد فؤاد إلى مصر ليعيش غريبًا حتى عن عائلته التي لا يعرف الكثيرين منهم، والتي استقبلته ببرود كغريب عنها، رغم أن شقيقه الأكبر توفيق كان في ذلك الوقت يحكم مصر، لكن سنوات المنفى كانت قد حطمت علاقات كثيرة بينه وبين أقربائه.

عاد الأمير أحمد فؤاد إلى مصر التي لا يعرفها ليقيم في قصر العباسية «قصر الزعفران» أحد قصور والده الخديوي إسماعيل، وكانت أحلامه تتلخص في الحياة كأمير في مصر بدلًا من الحياة في المنفى كأي شخص عادي بلا أي هوية تذكر، لكنه ظل غريبًا على أبناء أعمامه وبقية أفراد العائلة العلوية الذين لم يرحبوا بوجوده في مصر؛ ربما لأنه لا يملك غير راتبه في الجيش وريع خمسمائة الفدان التي حصل عليها كمنحة من الباب العالي قبل مجيئه إلى مصر؛ أو ربما لأنه شب بعيدًا عنهم وتطبع بأخلاقيات أوربية مثل إقباله على مصادقة الأجنبيات وتناوله الخمر علنًا في كلوب محمد علي «نادي الصفوة» وحبه الشديد للمقامرة، وبالتالي كان بالنسبة لهم العازب المفسود الذي لا يرحب به أحد ولا يطمع أحد في أن يزوجه ابنته، فلا يوجد أب عاقل يريد أن يزوج ابنته من هذا الأمير المقامر المفلس، الذي لا يعرف شيئًا عن الدين الإسلامي ولا يعرف حتى اللغة العربية.

كانت الحياة الصاخبة التي يحياها الأمير أحمد فؤاد توصد في وجهه كل الأبواب كلما فكر في الزواج، لكنه في النهاية أمير ولا بد أن يتزوج من امرأة ثرية ربما تعدل دفة حياته، وفي النهاية نجح الأمير أحمد فؤاد في إقناع مطلقة شابة من أسرته بالزواج منه، وهي الأميرة شويكار ابنة الأمير إبراهيم باشا أحمد وحفيدة إبراهيم باشا الفاتح ابن محمد علي، وكانت متزوجة من قبل من النبيل أحمد سيف الدين ولها منه طفلة هي النبيلة لطفية. فقد وجدت الأميرة المطلقة في أحمد فؤاد فرصة لتعويض فشلها السابق، وبالفعل تم زواج البرنسيسة شويكار من الأمير أحمد فؤاد عام ١٨٩٣، وأثمر الزواج طفلين هما الأمير إسماعيل، الذي توفي وهو رضيع، والأميرة فوقية. ورغم ذلك فقد كان الزواج غير متكافئ من اللحظة الأولى، وكانت هناك صعوبة بين الزوجين للتحدث مع بعضهم البعض، فالزوج لا يتحدث العربية، ويعرف كلمات محدودة من التركية، والزوجة لا تتحدث الإيطالية وتتحدث التركية بطلاقة مع العربية، يضاف إلى ذلك أن الأمير اعتاد حياة العسكرية العنيفة ولا يعرف قواعد الإتيكيت وكيفية التعامل في القصور، فقد قضى كل حياته في المدارس العسكرية، وكان يعيش مع أمه وأبيه في المنفى حياة فقيرة لا تعرف أصول وعادات القصور.

ونظرًا لاختلاف الطباع فقد اعتاد الأمير أحمد فؤاد أن يتعامل مع زوجته بشيء من العنف ويتعمد أن يهينها أمام الجميع، بل ويضربها بأي شيء في يده إذا احتدمت المناقشة بينهما؛ حيث لا يفهم أي واحد منهما ما يقوله الآخر سوى الشتائم التي تتطاير أثناء الانفعال، خاصة إذا ما امتنعت الزوجة عن إعطائه نقودًا كي يسدد بها ديونه المتراكمة بسبب خسارته في لعب القمار، هذا إلى جانب تفاصيل كثيرة جعلت من زواج شويكار وأحمد فؤاد زواجًا غير مرغوب فيه. وعندما اتسعت الخلافات حول سلوك الأمير وطمعه في ثروة زوجته الأميرة شويكار، ومعاملته لها معاملة سيئة لا تتناسب ومكانتها الرفيعة كحفيدة إبراهيم باشا، قرر شقيقها الأمير سيف الدين قتل هذا الزوج كي يستريح الجميع من شروره، وبالفعل انتهز الأمير سيف الدين الفرصة وانتظر زوج شقيقته في «كلوب محمد علي» وأطلق عليه وابلًا من الرصاص، غير أن الأمير أحمد فؤاد فرَّ منه، فلم تصبه سوى رصاصة واحدة استقرت في حنجرته، تلك الرصاصة التي سببت له عاهة مستديمة مدى الحياة، وشلت قدرته على الضحك أو الانفعال.

وانتهى الزواج بين أحمد فؤاد والبرنسيسة شويكار عام ١٨٩٨، واستطاعت الأميرة أن تهرِّب أخاها إلى أوربا حتى تحميه من انتقام الأمير أحمد فؤاد، الذي ظل يلعن هذه الزيجة مدى حياته، بل وامتنع تمامًا عن التفكير في الزواج، فظل عشرين عامًا أعزب لا يفكر في الزواج ويعيش حياة صاخبة مع المغنيات والراقصات الأجنبيات.

هكذا عاش الأمير أحمد فؤاد أكثر من عشرين عامًا بعيدًا عن أحلام السلطة والحكم في مصر، حتى مات شقيقه السلطان حسين كامل، واختاره اللورد كرومر المندوب البريطاني ليتولى حكم مصر. هكذا صعد نجم أحمد فؤاد أصغر أبناء الخديوي إسماعيل وأكثرهم جهلًا بمصر وسياستها وسط دهشة الجميع، حتى إن بيرم التونسي كان يردد بعض الأزجال التي كانت تسخر من هذا الأمير المقامر المفلس الذي سيحكم مصر ويطفئ في قلبها آخر شموع الحرية التي أشعلتها الحركة الوطنية المصرية؛ حيث سقطت رايات مصطفى كامل وكل الشهداء الذين قاوموا الاحتلال البريطاني.

وبين حسرة الشعب المصري ودهشة أفراد الأسرة العلوية، تم تنصيب الأمير أحمد فؤاد ليكون سلطانًا على مصر عام ١٩١٧.

تولى أحمد فؤاد الحكم وأصبح سلطانًا على مصر وهو في الخمسين من عمره، رجل مطلق ليس له سوى ابنة واحدة من زوجته الأولى شويكار، وبالتالي كان عليه أن يفكر في ولي للعهد يرث ملكه حتى لا يتولى الحكم من بعده ابن أخيه الأمير محمد عبد المنعم.

وبدأ جميع من في القصر يبحث عن عروس للسلطان، وعلى رأسهم مدام قطاي، زوجة أحد أثرياء اليهود في مصر، والتي كانت تتولى أعمال الحاشية من قصر عابدين إلى قصر القبة. لم يكن الأمر سهلًا على مدام قطاي إذن أن تبحث للسلطان عن عروس «كانت هناك أقاويل تؤكد وجود علاقة بين مدام قطاي والسلطان أحمد فؤاد». وبالتالي فقد أخذت تماطل في البحث عن عروس للسلطان، مرة بحجة أنها لم تجد عروسًا مناسبة لمكانته وسلطته، أو أن تقدم له أسماء بعض الأميرات التي تعرف جيدًا أن ولا واحدة منهن تناسبه، فقد كان يريد فتاة صغيرة حتى يستطيع أن ينجب منها وليًّا للعهد.

ظل السلطان يلح في طلب عروس، ولا أحد يساعده على تلبية طلبه، حتى جاء يوم افتتاح الأوبرا الملكية، وكان تقليدًا أوربيًّا ابتدعه الخديوي إسماعيل؛ حيث يحضر جميع الأمراء وأعضاء السلك السياسي وكبار الباشوات ورجال الدولة بزوجاتهم إلى الأوبرا ليحتفلوا مع السلطان بموسمها السنوي، وأثناء الحفل ومن بين مئات الفتيات والسيدات اللاتي ارتدين أغلى المجوهرات والثياب وقعت عينا السلطان على فتاة خطفت أنفاسه من اللحظة الأولى، كانت تقف بين سيدات الصفوة بجسدها الرشيق وطولها الفارع، ترتدي ثيابًا أوربية حديثة؛ حيث الفستان قصير تحت ركبتها وعقود اللؤلؤ تتدلى من رقبتها إلى طول الفستان. كان شكلها مختلفًا وسط بقية النساء اللاتي يرتدين الملابس الطويلة المنفوخة التي تنتمي إلى القرن الماضي.

نظر السلطان إلى الفتاة ولم يرفع عينه عنها، وعندما شعرت بنظراته التفتت إليه، فراعه اتساع عينيها العميقتين وابتسامتها الآسرة. كان وجهها الأبيض المشرب بالحمرة يحمل ملامح أرستقراطية دقيقة تعكس صلابة الرأي والاعتزاز بالنفس، وكانت عيناها العميقتان تختلط فيهما الجرأة بالغموض؛ حيث النظرة حادة كأنها تخترق كل من تنظر إليه، تتعامل مع من حولها بثقة ملكة أو سلطانة. ظل السلطان متجهًا بنظره إليها حتى انتهى الاستقبال الذي يسبق الحفل، لكنها لم تعبأ بنظرات السلطان، ولم تلتفت إليه مرة ثانية، فشعر بالارتباك وأشار إلى كبير ياورانه وسأله:

من هذه الفتاة؟ همس كبير الياوران في أذن السلطان بضع كلمات دون أن يبتسم: إنها يا مولاي ابنة عبد الرحيم باشا صبري وزير الزراعة. وهنا طلب منه السلطان أن يأتيه غدًا بكل المعلومات عنها.

طوال الحفل كان السلطان يتابع الفتاة التي تجلس في المقصورة المقابلة بمنظاره المكبر، بينما أغنيات أوبرا مدام بترفلاي تنساب مثل نهر من الأحزان لا انتهاء له. كانت الفتاة تشعر أن السلطان يلاحقها بمنظاره، فكانت تختلس النظر تجاهه بين الحين والآخر وتبتسم، حتى نهاية المسرحية عند مشهد فراق الحبيب والحبيبة، هذا المشهد الذي يمزق المشاعر والقلوب. وهنا انسابت دمعة من عيني الفتاة لاحظها السلطان وهو يتابعها بمنظاره المكبر، وفي تلك اللحظة قرر أن هذه الفتاة لا بد أن تكون زوجته، وأنه سيجعلها سلطانة، بل ملكة على مصر.

ولكن من هي هذه الفتاة؟ ولماذا وافقت أن تتزوج سلطانًا يكبرها بستة وعشرين عامًا، لا يعرف إلا كلمات قليلة من العربية ولا يتحدث سوى الإيطالية، وفوق كل ذلك لديه عاهة مستديمة تجعله مثيرًا للضحك عندما يتكلم. لماذا قبلت نازلي بنت عبد الرحيم باشا صبري أن تدخل قفص السلطة؟ هل كان بريق الملك أكثر جاذبية من فضاء الحرية الذي تتمتع به فتاة مثلها تنتمي إلى المجتمع الأوربي أكثر مما تنتمي إلى مجتمعها الشرقي؟ وإذا كانت قد عشقت السلطة ورغبت في أن تكون سلطانة وملكة في البداية، فلماذا نقمت على هذه الرغبة في النهاية؟ دعونا نتعرف إذن على نازلي الفتاة التي أحبها السلطان أحمد فؤاد.

من هي نازلي؟

يعتبر شارع سليمان وشارع شريف من أهم شوارع وسط العاصمة المصرية «القاهرة»، لكن كثيرًا منا لا يعرف من هو سليمان باشا، ولا من هو شريف باشا. والحقيقة أن الاسمين لهما ارتباط مباشر بالملكة نازلي؛ حيث إن سليمان باشا جد والدتها توفيقة هانم ابنة شريف باشا، ونظرًا لمكانة كل من الرجلين تم إطلاق اسميهما على أهم شارعين وسط القاهرة. ولكن من هو سليمان باشا، وما هي حكايته مع الباشا محمد علي؟

سليمان باشا هو نفسه جوزيف سافيه أحد قادة نابليون أثناء حملته على مصر، فهو ابن أنثيم سافيه وأنطوانيت بنت لويس جوليت حاكم منطقة فونتين الفرنسية، وكان جوزيف معروفًا بين قادة نابليون بحبه للفلسفة رغم تربيته العسكرية، وعندما جاء مع حملة نابليون فتن بمصر، وكان يرصد في يومياته كل ما يراه من أحوال الحياة، وكان أكثر شيء فتن به هو صوت الأذان، فقد كان ينصت له ويذهب إلى أقرب جامع ليراقب الناس وهم يصلون، بل ويقال إنه كان يردد وراءهم كلمة آمين؛ ربما لسهولة نطقها. ويقال إن جوزيف سافيه كان قد اشترك أيضًا في كتابة كتاب وصف مصر. وعندما انتهت الحملة الفرنسية وبدأ جميع القادة في الاستعداد للرحيل رفض جوزيف سافيه العودة إلى بلاده وفضل البقاء في مصر التي عشقها وعشق شعبها، فقد عاش ومات في مصر وقطع كل جذوره الفرنسية؛ حيث أعلن إسلامه وسمى نفسه باسم سليمان على اسم سليمان خليل، الرجل الذي عرفه بالدين الإسلامي واعتنى بتعليمه اللغة العربية وتعاليم الدين الحنيف، حتى إنه كان يرتل القرآن مثل أي شيخ مصري، وأصبح مسيو جوزيف «الشيخ سليمان الفرنساوي».

وعندما تولى محمد علي السلطة سمع به وكان في حاجة إلى قائد له خبرة في الشئون العسكرية كي يسند إليه أمر تحديث الجيش المصري، فاستدعاه إلى القلعة وعينه مستشارًا حربيًّا وخبيرًا في الشئون العسكرية. وكان لسليمان باشا الفضل في تحديث الجيش المصري وتدريب المصريين على أعمال القتال ووضع الخطط،

التي سار عليها محمد علي في جميع فتوحاته. وأمام كل هذه الجهود أنعم عليه محمد علي برتبة الباشوية فأصبح معروفًا باسم سليمان باشا الفرنساوي.

عاش جوزيف أو سليمان باشا في حي القلعة وتزوج من فتاة مصرية وأنجب منها ثلاث بنات، وكان من شدة إعجابه بمحمد علي باشا أن استعار اسم ابنته نازلي هانم وأطلقه على ابنته الكبرى، وكانت هذه الابنة شديدة الجمال تجمع ما بين الجمال المصري الأسمر والملامح الفرنسية الدقيقة، فقد كانت بشرتها تميل إلى السمرة بينما عيناها زرقاوان. وعندما شاهدها شريف باشا رئيس وزراء مصر أعجب بها وطلبها للزواج، فأصبحت الزوجة المفضلة لديه دونًا عن زوجتيه الأخريَيْن نظرًا لذكائها الشديد وقدرتها على تحدث العربية والفرنسية والتركية بطلاقة، وأنجب شريف باشا من نازلي هانم ابنة سليمان باشا الفرنساوي عددًا من الأطفال كانت أكبرهن فتاة جميلة اسمها «توفيقة». وقد اهتم شريف باشا بتعليم أبنائه الأولاد والبنات، فشبت توفيقة هانم وقد حظيت بقدر كبير من التعليم، وبالتالي فقد كانت مناسبة تمامًا كعروس لأحد أبناء مصر النابهين الذين تم إرسالهم إلى فرنسا لدراسة القانون واسمه عبد الرحيم صبري.

كان عبد الرحيم صبري ينتمي إلى طبقة الأنتلجنسيا أكثر من انتمائه للطبقة الأرستقراطية المصرية؛ حيث كانت أصوله ريفية، وكان يود لو ذهب إلى فرنسا لدراسة الزراعة بدلًا من القانون، غير أن نظام البعثة التي سافر فيها كان قد ألزمه بدراسة القانون. لكن حبه الشديد للزراعة كان قد دفعه إلى دراسة الزراعة إلى جانب القانون، فأصبح من المصريين القلائل الذين درسوا العلوم الزراعية وفكروا في أن يطوروا المحاصيل الزراعية في مصر، لكنه عندما عاد إلى مصر أوكل إليه الخديوي عباس مهمة تطوير المحاكم الشرعية فلم يمارس الزراعة التي يحبها إلا في أملاكه فقط؛ حيث اختار منزلًا في منطقة الدقي بالقرب من ميدان فيني الآن، وكانت تسمى وقتها بولاق الدكرور، وبنى منزلًا أشبه بقصر صغير محاط بعدة أفدنة أحاطها بأشجار الكافور، وبدأ في هذا المنزل يجري تجاربه الزراعية في المساء بعد انتهائه من عمله كرئيس للمحكمة في الصباح.

وكان الخديوي عباس ابن الخديوي توفيق يحب صحبة المثقفين والفنانين؛ حيث ضم مجلسه العديد منهم، وكان عبد الرحيم باشا أحد الشباب الذين ضمهم الخديوي عباس إلى مجلسه؛ حيث كان معجبًا بنبوغه في أحوال التشريعات القانونية بنفس

إعجابه بعبقريته في مجال الزراعة؛ فأنعم عليه بلقب باشا. وعندما فكر عبد الرحيم باشا في الزواج اقترح عليه أحد رجال البلاط أن يتقدم ليطلب يد «توفيقة» هانم، الابنة الكبرى لنازلي هانم أفندي زوجة شريف باشا رئيس وزراء مصر وأحد قادتها العظام، من الذين حاربوا مع إبراهيم باشا ابن محمد علي. وكانت نازلي هانم لديها أربع من البنات تقوم على رعايتهن بعد وفاة زوجها، وبالفعل تقدم عبد الرحيم باشا وتزوج من توفيقة هانم ابنة شريف باشا ونازلي ابنة سليمان باشا الفرنساوي، وقد أثمر الزواج بين توفيقة هانم وعبد الرحيم باشا صبري عن إنجاب اثنتيْن من البنات واثنين من الأولاد، وكانت الابنة الكبرى التي ولدت عام ١٨٩٤ قريبة الشبه بجدتها نازلي هانم زوجة شريف باشا، فأسماها والدها بنفس الاسم ومعناه ضوء القمر.

هكذا ورثت الملكة نازلي هذا الاسم الجميل، كما ورثت الدماء الفرنسية والتركية، كما ورثت أيضًا روح التحدي وحب المغامرة والجرأة على اتخاذ القرارات، وقبل كل ذلك ورثت العناد وصلابة الرأي والاعتزاز بالنفس. وكانت ترى نفسها أميرة غير متوجة لا تقل أهمية عن أميرات أسرة محمد علي، ولم لا، فهي سليلة الحسب والنسب وحفيدة رجلين لهما من الأهمية في التاريخ المصري سليمان باشا، وشريف باشا.

عاشت نازلي صبري حياة مترفة كسليلة لأرقى العائلات القريبة من السلطة والحكم، ونظرًا لكل الانتماءات الأوربية التي أحاطت نشأتها كانت تميل إلى الثقافة الأوربية أكثر من الثقافة العربية وتعاليم الدين الإسلامي، فقد حملت نازلي ملامح الفتاة الأوربية شكلًا وموضوعًا. وألحقها والدها عبد الرحيم باشا صبري بمدارس الميردي ديو الفرنسية بجاردن سيتي بالقاهرة، وعندما عين محافظًا للإسكندرية ألحقها بمدرسة نوتردام دي سيون، فكانت شديدة التعلق بالثقافة الفرنسية تقرأ للكتاب الفرنسيين مثل فلوبير وإسكندر دوماس، وقبل أن تتم الشهادة الابتدائية توفيت والدتها توفيقة هانم التي ماتت صغيرة في الثلاثينيات من عمرها بعد إصابتها بوباء الإنفلونزا؛ حيث عانت نازلي من انهيار عصبي حاد ألزمها الفراش عدة أشهر حزنًا على أمها توفيقة هانم. وأمام حالة الحزن الشديد التي سيطرت على الجميع لم يجد عبد الرحيم باشا بدًّا إلا أن يرسل ابنته نازلي وشقيقتها أمينة إلى فرنسا للالتحاق بإحدى المدارس الداخلية الفرنسية بباريس؛ كي يبعدهما عن جو الحزن الذي سيطر عليهما، ولكي تكملا دراستيْهما.

عندما سافرت نازلي لأول مرة إلى باريس عام ١٩٠٩، كان عمرها خمسة عشر عامًا، وكان المجتمع الفرنسي في ذلك الوقت في بداية ظهور الثورة الصناعية التي صاحبتها أفكار ونزعات تحررية على يد مجموعة من الكتاب والفنانين الذين حطموا موازين القوى داخل المجتمعات الأوربية، وفتحوا الأبواب على مصراعيها للأفكار التحررية، ونادوا بحرية المرأة وضرورة مشاركتها في المجتمع، فكان من الطبيعي أن تتأثر نازلي بهذه الأفكار وتعقد دائمًا المقارنة بين المجتمع الفرنسي وبين مجتمع مصر المغلق؛ حيث المرأة لا كيان لها ولا كرامة ولا مكان لها إلا خلف الجدران المغلقة، لا حق لها في أي شيء، ولا تفعل إلا ما تؤمر به. هكذا ثارت نازلي على المجتمع المصري حتى قبل أن تصبح ملكة أو سلطانة.

عادت نازلي من فرنسا وعمرها سبعة عشر عامًا، وتقدم للزواج منها أحد أقرباء والدتها من المقيمين في تركيا، وقد جاء إلى مصر ليعمل مستثمرًا في تجارة القطن بين تركيا ومصر، واسمه محمد خليل باشا، لكن الزواج لم يستمر سوى عام واحد فقط، فقد كانت الحياة في البداية مثيرة مع رجل منفتح على المجتمعات الأوربية يتعامل مع زوجته بحرية لم تعتدها أي زوجة مصرية، فقد كان يصحبها معه في كل الحفلات والأماكن العامة ويسمح لها بشرب الشامبانيا والرقص الغربي.

لكن خليل باشا أو هليل باشا، كما كان يناديه الأجانب، لم يكن فقط محبًّا للحياة بل محبًّا أيضًا للمغامرة والمقامرة؛ الأمر الذي أزعج عبد الرحيم باشا صبري، الذي كان يرى أن الحياة الصاخبة التي تعيشها ابنته لا تتناسب مع العادات والتقاليد الشرقية أو مع عراقة العائلة التي تنتمي إليها ابنته، وبالتالي تدخل الأب وأجبر الزوج على طلاق ابنته قبل أن تكمل عامها التاسع عشر.

كل هذه المعلومات كانت قد ذكرتها إحدى الصحفيات البريطانيات واسمها «كلارا بويل» في كتاب لها بعنوان «بويل أوف إيجبت»، وقد كانت بويل مهتمة بسرد قصص الطبقة الأرستقراطية في مصر ونشرها في إحدى المجلات البريطانية أثناء إقامتها في مصر في الفترة ما بين (١٩١٠ وحتى ١٩٢٠). وهذا الكتاب يعتبر من الكتب النادرة؛ حيث اطلعت على نسخة منه في مكتبة جامعة بيركلي بسان فرانسيسكو.

معلومات كثيرة أوردتها «كلارا بويل» في كتابها، ويبدو أن الصحفية كانت مفتونة بشخصية الملكة نازلي، التي وصفتها بأنها كانت من أجمل وأذكى النساء، ولا تنتمي

إلى مجتمعها قدر انتمائها إلى المجتمع الأوربي، رغم أنها تتحدث العربية المصرية بطلاقة كما تتحدث الفرنسية.

ولا أنكر أنه وقبل حصولي على هذا الكتاب لم أكن أعرف شيئًا عن نشأة الملكة نازلي وحياتها قبل أن تصبح سلطانة على مصر، فمن اللحظة الأولى كانت حياة الملكة نازلي بالنسبة لي مثل عقد من اللؤلؤ انفرطت حباته، وكان عليَّ أن أبذل جهدًا كبيرًا كي أجمع أكبر قدر ممكن من تلك الحبات المتناثرة وأعيد صياغتها من جديد. وعندما وقع كتاب كلارا بويل في يدي، شعرت أنني قد حصلت على كنز سليمان، فقد قادتني الصدفة للعثور على هذا الكتاب النادر الذي يصور الحياة في مصر في مطلع القرن الماضي عندما كانت القاهرة مدينة كوزموبوليتان، بها عدد كبير من الجاليات الأجنبية. وكانت بويل تبحث في علاقة الطبقات الأرستقراطية المصرية بتلك الجاليات. وقد ذكرت بويل في كتابها كثيرًا من المعلومات حول الحياة الأولى للملكة نازلي منذ عودتها من باريس هي وشقيقتها وزواجها من خليل باشا حتى تزوجت من السلطان أحمد فؤاد. والسبب في بحثي عن هذا الكتاب أنه عندما بدأت أتتبع تاريخ زواج الملكة نازلي من الملك فؤاد وجدت أن عمرها كان خمسة وعشرين عامًا عام ١٩١٩، واندهشت لأن النساء في ذلك الوقت كن يتزوجن في سن أصغر من ذلك بكثير، ومن غير المعقول أن فتاة من عائلة عريقة مثلها تظل بدون زواج حتى سن الخامسة والعشرين. وبالتالي بدأت أبحث أكثر عن أي معلومات تعود إلى فترة ما قبل زواجها من الملك فؤاد حتى عثرت على نسخة من كتاب بويل، الذي رصد العديد من الشخصيات الأجنبية والمصرية في ذلك الوقت، ومنها شخصية الملكة نازلي، فقد ذكرت الكثير عن حياتها دون أن تدري أنها تكتب للتاريخ عن أهم شخصية نسائية مثيرة للجدل في مصر الحديثة؛ حيث كانت شديدة الإعجاب بجرأتها وثقافتها واعتبرتها نموذجًا مختلفًا تمامًا عن نساء في مصر في ذلك. ولنا أن نتخيل وضع المرأة المصرية قبل عام ١٩١٩ وقبل أن تخلع هدى شعراوي الزي التركي وتنادي نساء مصر للخروج في مظاهرات ضد المحتل البريطاني.

ولا أنكر أن الزواج الأول للملكة نازلي كان مفاجأة بالنسبة لي فلم يشر أحد من المؤرخين من قريب أو بعيد إلى هذا الزواج، ولم يشر أحد إلى أن الملك فؤاد عندما طلب أن يتزوج نازلي بنت عبد الرحيم باشا صبري أنها كانت فتاة مطلقة. ويبدو أن كلارا بويل كانت قريبة إلى حد ما من الملكة نازلي أو على صلة دائمة بها ربما

كصديقة، فقد ذكرت بويل في كتابها أن طلاق نازلي من خليل باشا كان أمرًا متوقعًا، وأن نازلي لم تتأثر بالطلاق عاطفيًّا، لكنها تأثرت بنمط الحياة التي عاشتها مع خليل باشا، وبعد الطلاق ظلت نازلي ابنة عبد الرحيم باشا تمارس حياتها بكل حرية، رغم أنها لم تكن قد تجاوزت تسعة عشر عامًا؛ حيث كانت تميل إلى السهر وحضور الحفلات والانضمام إلى الجاليات الأوربية، فلم تكن تنوي البحث عن زوج آخر ولم تجلس في منزل أبيها بلا حيلة حتى يأتيها عريس آخر كما كانت تفعل النساء في عصرها، بل على العكس كانت سعيدة بحريتها وبطريقة الحياة التي تعيشها، حتى التقت بشاب كان يدرس القانون في باريس، وكان صديقًا لشقيقها شريف صبري، كان هذا الشاب هو سعيد بك زغلول ابن شقيق سعد باشا زغلول الرجل الوطني الذي قاد فيما بعد ثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال الإنجليزي. التقت نازلي بسعيد زغلول في إحدى المناسبات، فأعجب سعيد بأفكارها المتحررة وجرأتها على تناول كل الموضوعات، وكان يرى فيها مثالًا للمرأة الجديدة كما نادى بها قاسم أمين ومصطفى كامل ومحمد فريد.

وتوطدت علاقتها بسعيد زغلول، وكان من الطبيعي أن تسير العلاقة في المسار الطبيعي وتنتهي بالزواج، خاصة أن السيدة صفية زغلول زوجة سعد باشا كانت أقرب صديقة لتوفيقة هانم والدة نازلي، بل وكانت بالنسبة لنازلي نفسها الأم البديلة بعد وفاة والدتها، وبالتالي فقد رحبت بل وباركت فكرة زواج سعيد ابن شقيق زوجها بنازلي، لكن الأحداث الوطنية واشتعال الثورة بين أبناء مصر للمطالبة بالاستقلال حالت دون تطور المسألة إلى حد الزواج.

كل هذه المعلومات وضعها كبير الياوران أمام السلطان أحمد فؤاد قبل أن يستدعي عبد الرحيم باشا صبري إلى القصر.

ذهب عبد الرحيم باشا صبري إلى قصر القبة بعد أن استدعاه السلطان، ولم يخطر بباله مطلقًا أن السلطان سيطلب منه يد ابنته، وعندما فاتحه السلطان بطلبه جلس عبد الرحيم باشا على أقرب مقعد ورأسه مشغول بأشياء كثيرة، أولها فارق السن بين ابنته والسلطان، فقد كانت نازلي تبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا فقط، أي في عمر ابنة السلطان الأميرة فوقية، وكيف سترضى نازلي الذكية الجميلة ذات الأفكار المتحررة والثقافة الفرنسية بالعيش بين جدران الحرملك حتى وإن كانت سلطانة، فقد جلب السلطان أحمد فؤاد إلى قصره كل قواعد القصور التركية بأفكارها المتزمتة

العقيمة؛ حيث النساء مقهورات في الحرملك، تطبق عليهن كل القيود التي تطبق على الخارجين عن القانون.

كانت الدنيا تدور بعقل ورأس عبد الرحيم باشا صبري وهو يستمع إلى كلمات السلطان دون أن ينطق بكلمة واحدة كأنه غائب عن الوعي. تنبه الباشا بعد أن أطلق السلطان صيحة عالية عبر بها عن غضبه أمام صمته. وقف عبد الرحيم باشا وتقدم إلى السلطان بحرج وقال في صوت خافت وباللغة التركية: مولاي، الفتاة مخطوبة. وهنا ثارت ثورة السلطان وهدد وتوعد، إذ كيف يجرؤ أي مخلوق عاقل على رفض طلبه؟ كيف جرؤ عبد الرحيم باشا أن يقول هذا الكلام الفارغ بدلًا من أن يطير من الفرح لأن السلطان سيمنحه هو وعائلته هذا الشرف، وكان أثناء ثورته يتحدث بالإيطالية والتركية؛ لأنه لا يعرف العربية جيدًا، وهو يطلق بين عبارة وأخرى تلك الأصوات الغريبة التي تشبه فحيح الثعبان وانتهت المقابلة، ولم يكن أمام عبد الرحيم باشا إلا أن يعد السلطان بأن أوامره لا بد أن تطاع.

وبعد خروج عبد الرحيم باشا استدعى السلطان كبير ياورانه وأمره بالذهاب إلى سعد باشا زغلول كي يفض خطوبة ابن شقيقه على نازلي هانم عبد الرحيم، وأكد على أن هذا أمر لا مناقشة فيه.

أي حظ عاثر يمكن أن يصادف فتاة في ربيع العمر فتحرم من حبيبها لتتزوج رجلًا أكبر منها بثمانية وعشرين عامًا؟ أي قدر يمكن أن يحول مجرى الحياة إلى مسار آخر؟ هل تخيل أحد أن نازلي هانم عبد الرحيم كان من الممكن أن تتزوج من أحبته لتعيش حياة عادية مثل كل فتيات طبقتها الأرستقراطية، وهي تنعم بالحرية والسعادة بعيدًا عن أسوار القصور ومرارة أقدار العائلة العلوية؟ هل كان من الضروري أن ترتدي أجمل الثياب التي أتت بها إلى باريس وتذهب إلى الأوبرا في ذلك اليوم؟ هل كان قدرها أن تصبح ملكة فيما بعد وأمًّا لآخر ملوك مصر، وتسير مع قدرها إلى آخر الدنيا لتموت هناك وحيدة وهي تتوارى من الحسرة والعار؟ أسئلة كثيرة تدور في ذهني وأنا أتتبع قصة حياة هذه المرأة التي عاشت حياتين وثارت على ملكين؛ ملك الدنيا وملك الآخرة.

عمومًا كانت ثورة ١٩١٩ على الأبواب، وكان الجميع مشغولين بهموم الوطن أكثر من قصة ابنة عبد الرحيم باشا التي طلب السلطان يدها، فقد اشتعلت الثورة في أرجاء البلاد، وأمام تلك الأحداث الملتهبة انقطعت الصلة بين نازلي وسعيد زغلول،

في الوقت الذي كان فيه السلطان يلح في طلب الزواج، والأب يضغط على ابنته للموافقة. والحقيقة أن الملكة نازلي كانت تعتقد أنه لولا ثورة ١٩ وانشغال خطيبها في الثورة لكان والدها قد عقد زواجها على سعيد بك ليضع السلطان أمام الأمر الواقع، وكانت تعرف أن والدها على استعداد لتحمل المسئولية كاملة حتى لو اضطر إلى الرحيل خارج البلاد، لكن العريس لم يظهر وانقطعت أخباره، البعض قال إن الوقت كان غير مناسب خاصة بعد نفي عمه سعد زغلول، والبعض تصور أن تهديد السلطان أرغم الجميع على الأمر الواقع. المهم أن سعيد زغلول لم يظهر ولم تفلح الرسائل التي كتبتها نازلي بدموعها مرة بالفرنسية ومرة بالعربية في استرداده، ولم يجد عبد الرحيم باشا مفرًّا إلا أن يعلن خطبة ابنته نازلي هانم عبد الرحيم على سلطان مصر أحمد فؤاد.

وفي قصر البستان بباب اللوق (أحد أبنية الجامعة الأمريكية الآن) عقد قران نازلي هانم عبد الرحيم على سلطان البلاد أحمد فؤاد في ٢٤ مايو عام ١٩١٩ في حفل محدود على أضواء الشموع، ضم أقاربها فقط فلم يدعُ السلطان أي شخص من أقربائه، وبعد انتهاء الحفل تحركت العربة الملكية إلى قصر العباسية «الزعفران».

كانت القاهرة متشحة بالسواد حزنًا على نفي سعد زغلول؛ حيث تدلت الأعلام السوداء من نوافذ المنازل على طول الطريق من باب اللوق إلى العباسية، كانت الظلمة موحشة التهمت أي بريق للفرح. كان الموكب يسير وسط ظلام القاهرة كأنه يسير إلى المجهول، وكانت العروس تشعر أنها تسير في جنازتها. ماتت الأحلام قبل أن تولد، فقد كان السلطان يعرف أنه اختطف العروس من رجل تحبه، وكانت العروس تعرف أن الزواج تم بهدف إنجاب وليٍّ للعهد، وأن حياتها ستصبح جحيمًا لو لم تنجح في ذلك. لم تشعر لحظة واحدة أنها عروس أو أنها ستكون سلطانة مصر، امتلأ وجهها بالدموع على آخر أيام الفرح في حياتها، مدت يدها لتمسح دموعها وهي تنظر إلى الرجل القابع إلى جوارها بصدره الضخم وأنفاسه التي تصدر أصواتًا مخيفة، كان السواد المنتشر في كل شوارع القاهرة يليق بها وبالقدر الذي غير حياتها، فلم يستطع أي فرح بعد ذلك أن يمحو لحظة السواد التي عاشتها يوم زفافها.

تسعة أشهر مكثتها السلطانة نازلي في قصر الزعفران لم يسمح لها بالخروج خارج أسوار القصر إلا مرة واحدة، يوم زفاف شقيقتها الصغرى أمينة هانم، وخلال تسعة أشهر زارها والدها عبد الرحيم باشا مرتين فقط ليطمئن على صحتها، كان ممنوعًا

عليها الاتصال بأحد أو الالتقاء بأي شخص إلا بأمر السلطان، تسعة أشهر كانت حبيسة في قفص من ذهب لا ترى سوى المربيات وطبيبها الخاص.

حتى حانت لحظة الولادة، وهنا أمر السلطان باستدعائها إلى قصر عابدين حتى يولد ولي العهد في القصر الملكي. لم يكن أحد يعرف هل المولود ذكر أم أنثى، لكن السلطان ظل يدعو الله أن يكون المولود ولدًا ليرث عرشه بدلًا من أخيه الأمير عبد المنعم. يقال إن السلطان ظل جالسًا إلى جوار إحدى نوافذ قصر عابدين ثلاثة أيام يدعو الله وهو يقسم إن الولد إذا جاء فسيترك الخمر ولعب القمار وسيتفرغ لحكم البلاد. كان السلطان متفائلًا بأحد الطيور المغردة أمام نافذته، وقال: لو غرد الطائر ثلاث مرات فسيكون المولود ذكرًا، وغرد الطائر وصرخت السلطانة آخر صرخاتها قبل أن تغيب عن الوعي فقد أجهدتها آلام الوضع ثلاثة أيام قبل أن يخرج المولود إلى النور، ولم تفق إلا على زغاريد مربيتها التي أخذت تصرخ: ولد.. ولد، وعندما سمع السلطان الزغاريد اندفع إلى جناح السلطانة وحمل الطفل وهو يبكي ويردد مرة بالتركية ومرة بالعربية عبارات الشكر لله.

أنقذ المولود نازلي هانم من الحرملك، فقد كان السلطان ينوي أن يضمها إلى الحريم إذا لم يجئ ولي العهد، لكنها الآن سلطانة رسميًّا، وأم ولي العهد فاروق الأول الذي ولد يوم ١١ فبراير عام ١٩٢٠.

كاد السلطان يطير فرحًا وأصدر أوامره إلى رئيس الوزراء يوسف باشا وهبه بإعلان ميلاد ولي العهد، ورفعت الأعلام وزف الخبر في جميع أنحاء البلاد، ووزع السلطان عشرة آلاف جنيه ذهبية على المحتاجين والفقراء، كما أفرج عن المساجين الذين أتموا ثلاثة أرباع المدة، وأقيمت المآدب لمدة ثلاثة أسابيع، كما رفع السلطان طلب أحقية ابنه الوليد في ولاية العهد، ومن ثم في الحكم من بعده، وقد رفع الأمر إلى دار الحماية البريطانية وجاءت الموافقة بعد اثنين وستين يومًا؛ حيث دعا أئمة المساجد للسلطان وولي عهده بعد صلاة الجمعة، هكذا ضمن فؤاد الأول الحكم لنفسه ولذريته وأنقذ عرشه من يد ابن أخيه الأمير محمد علي.

لم تعد الملكة نازلي مرة أخرى إلى قصر الزعفران بل تم عمل جناح خاص لها بقصر القبة، كما أهداها السلطان لأول مرة عقدًا من الماس صنعه خصيصًا لها محل كارتييه بباريس، كما سمح لها باختيار ثلاث من المربيات السويديات ممن يتحدثن الفرنسية التي تجيدها لرعاية المولود، في نفس الوقت وضع نظامًا صارمًا لمتابعة

صحة المولود ورعايته حفاظًا عليه، فقد كان الطبيب يعاينه كل يوم حتى بلغ عامين؛ حيث تم عزله عن أمه في جناح خاص، وحدد الساعات التي ستراه فيها الملكة حتى يضمن أن يشب بعيدًا عن تدليل والدته.

وقد نشرت إحدى المربيات السويديات اللاتي أشرفن على تربية الملك فاروق مذكراتها بعد عزل الملك فاروق عام ١٩٥٢، وأكدت على أنه كان متعلقًا بها أكثر من أمه التي كانت لا تراه إلا ساعة واحدة كل يوم، بحجة أنها تضع مساحيق على وجهها مما يضر بصحة الطفل.

على العموم، فقد كان ميلاد ولي العهد فرصة لتقرب السلطان من زوجته وهجر العديد من عاداته السيئة، وأصبح مهمومًا أكثر بالحكم وكيفية تمهيد الطريق لابنه، فأخذ ينظم الشئون الإدارية في القصر، وألغى النظام الأوتوقراطي التركي، وخفف من الوجود الإيطالي الذي جاء به إلى القصر واستبدله بالنظام الإنجليزي كي يتقرب إلى القوة الحقيقية التي تحكم البلاد، والتي تضمن الحكم من بعده، كما تابع بقوة المباحثات المصرية البريطانية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، حتى صدر إعلان ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ الذي أقر بأن مصر دولة مستقلة خارجة عن الولاية التركية؛ وبالتالي أصبحت مصر مملكة مستقلة؛ حيث تمثل فيها دولة بريطانيا العظمى بسفير وليس بمندوب سامي.

وعقب إعلان ٢٨ فبراير ورغم أن الاستقلال كان استقلالًا مزيفًا، إلَّا أن السلطان أعلن فور صدور التصريح تنصيب نفسه ملكًا على مصر، وبالتبعية أصبحت الملكة نازلي ملكة مصر في ١٧ مارس عام ١٩٢٢؛ حيث قام بيت المجوهرات كارتييه بصنع الإشارة الملكية المصرية، والمعروفة بالتاج الذي تتدلى منه ستارتان بينهما دائرة عليها ثلاثة نجوم تمثل العلم المصري، كما صنع كارتييه أيضًا تاجًا للملكة صمم خصيصًا لها يزن الماس فيه أربعين قيراطًا.

ومع أول إعلان لمصر كمملكة مستقلة أصدر الملك قرارًا بتعيين عبد الخالق باشا ثروت رئيسًا للوزراء، وبدأ الإعداد لدستور ١٩٢٣ حيث عقد أول برلمان مصري منتخب بعد ذلك برئاسة سعد باشا زغلول عام ١٩٢٤.

بدأ الملك فؤاد عهدًا جديدًا بعد ميلاد ابنه حيث عمل جاهدًا على تحسين صورته أمام الشعب؛ حيث وضع حجر الأساس لأول جامعة مصرية تحمل اسمه «جامعة فؤاد الأول ـ القاهرة»، وكان قد بدأ المشروع عام ١٩١٤ قبل توليه الحكم على قطعة

أرض من أملاك شقيقته الأميرة فاطمة في أراضي الجيزة، كما انشغل بعمل العديد من الإصلاحات في الجسور والخزانات، وجدد أجزاء من القناطر الخيرية، وبدأ يراجع أحوال الفقراء في مصر، ففتح خزائن الأوقاف للصرف على المساجد وتقديم العون للفقراء، وقام ببناء العديد من المساكن في الأحياء الشعبية.

كان ميلاد ولي العهد فاتحة خير على الجميع، فقد أصبحت نازلي ملكة لمصر وأمًّا لولي العهد، وبموجب الأمر الملكي بتتويجها ملكة على البلاد، تم السماح لها بعمل بعض الأنشطة خارج القصر مثل افتتاح دار الأوبرا المصرية في بداية موسمها وافتتاح معرض الزهور السنوي، كما سمح لها أيضًا بحضور افتتاح البرلمان عام ١٩٢٤؛ حيث تم عمل مقصورة خاصة لها كي تتابع الجلسات، الأكثر من ذلك أن الملك لم يجد غضاضة في أن تذهب معه في رحلته إلى أوربا عام ١٩٢٧ والتي امتدت أربعة أشهر، وشملت سويسرا وبلجيكا وإنجلترا وفرنسا والفاتيكان، لكن الملكة لم تصحب الملك فؤاد من بداية الرحلة على متن اليخت الملكي المحروسة، بل لحقته إلى أوربا بعد شهر من بداية الرحلة، فقد كانت الملكة تعاني من بعض المشاكل الصحية حيث بدأت تظهر عليها أعراض الالتهاب الكلوي نتيجة وصول فيرس إلى حوض الكلى، وكانت الملكة تعتقد أن ما أصابها جاء من زوجها الملك فؤاد الذي كان دائمًا يعاني من التهابات حادة، وقد ظهرت بوادر المرض على الملكة نازلي بعد أن وضعت طفلتها الثالثة فايقة عام ١٩٢٦؛ حيث عرض عليها الأطباء المصريون فكرة السفر إلى فرنسا للعلاج، لكنها لم تتمكن من مرافقة الملك ولحقت به بعد شهر من بداية الرحلة.

والغريب أن القصر لم يعلن عن مرض الملكة نازلي فقط بل أعلن أيضًا عن المتاعب الصحية التي يعاني منها الملك فؤاد؛ حيث أوعز القصر أن الهدف من الرحلة أسباب صحية.

لكن شخصية الملك فؤاد كانت دائمًا محل شك وكان سلوكه مثيرًا للشائعات، فسرعان ما لمح البعض إلى أن الرحلة هدفها وضع أموال في مصارف أوربا، وأن الملك فؤاد كان قد جمع مبالغ كبيرة على مدى عشر السنوات التي قضاها في الحكم وسافر ليضعها في البنوك الأوربية، حتى يكون له ولأولاده مصدر رزق إذا ما أجبرته الظروف على الرحيل كما فعل الإنجليز بأبيه الخديوي إسماعيل، فقد تولدت داخله عقدة من أن الحكم لا يدوم، وأن الإنجليز يتلاعبون بالحكام كما يشاءون، وبالتالي

وجب عمل ضمانات للمستقبل حتى لا يعيش هو وأولاده في المنفى حياة بائسة كما عاش هو مع أبيه، وقد نشطت الشائعات عندما نشرت الصحف أخبار زيارته عددًا من البنوك السويسرية.

إذن ربما يكون الملك فؤاد قد وضع بعض الأموال في حسابات سويسرا عام ١٩٢٧، وربما كانت تلك الأموال هي الأموال الوحيدة ومصدر الرزق الوحيد للعائلة بعد خلع الملك فاروق عن عرش مصر عام ١٩٥٢. عمومًا، كانت رحلة عام ١٩٢٧ أول رحلة للملك والملكة وولي العهد فاروق وشقيقاته الأميرات فوزية وفايزة وفايقة التي كانت طفلة رضيعة، وكان فاروق يبلغ من العمر سبع سنوات عندما التقطت لأول مرة وكالات الأنباء صوره كولي لعهد مصر.

وكان أهم ما في الرحلة زيارة الملك فؤاد لإيطاليا حيث استقبله الرئيس الإيطالي، وكانت إيطاليا بالنسبة للملك فؤاد الوطن الأم نظرًا لأنه عاش طفولته وشبابه فيها؛ حيث كان متأثرًا بثقافتها يتحدث لغتها ولا يعرف غيرها وطنًا حتى تركها وعاد إلى مصر وهو في الثانية والعشرين من عمره، وها هو يعود إليها ملكًا لدولة مهمة كمصر. وكانت تلك الزيارة قد أضفت على الملك كثيرًا من السعادة والعظمة وهو يدخل قصر الرئاسة الإيطالي والذي كان يراه في طفولته مكانًا من المستحيل أن يقترب منه.

مكث الملك فؤاد والملكة نازلي في روما سبعة أيام زارا فيها الفاتيكان، ونشرت الصحف العالمية خبر استقبال بابا روما لهما؛ مما أثار شاعر الغضب لدى المصريين، لكن صحيفة الأهرام كانت قد علقت على الزيارة على أنها جزء من تدعيم روابط الصلة بين مصر والدول الأخرى، وأن الملك كان قد بحث أمر تبادل السفراء بين مصر ودولة الفاتيكان.

وتساءل البعض: لماذا خص الملك دولة وهمية كالفاتيكان ليبحث معها أمر تبادل السفراء؟ أليس من الأجدى أن يبحث أمور السياسة مع دولة كإنجلترا حتى تحصل مصر على استقلالها؟

على العموم، هذا ما ذكرته الصحف المصرية، ولا أحد يدري لماذا اجتمع الملك فؤاد ببابا روما، ولماذا اصطحب معه زوجته الملكة نازلي، وهل لهذا علاقة بذهاب الملكة نازلي بعد ذلك بعشرين عامًا إلى الكنيسة الكاثوليكية في أمريكا لتتحول إلى

الديانة المسيحية وتسمي نفسها «ماري إليزابيث»؟ لا توجد إجابة عن ذلك، ولكن ربما كان الملك فؤاد في أعماقه وبحكم نشأته في المنفى مع والده في إيطاليا ينتمي إلى الديانة الكاثوليكية.

عمومًا وبصرف النظر عن كل تلك التفاصيل فقد كانت الرحلة مثمرة، خاصة أن زيارة الملك فؤاد إلى إنجلترا كانت قد قربت العلاقة بينه وبين القصر الإنجليزي إلى حد ما، فقد أقام له الملك جورج الخامس ملك إنجلترا (والد الملكة إليزابيث الحالية) حفل استقبال كبيرًا، لكن الصحف البريطانية لم تشر إلى مباحثات أو نشاط سياسي للملك فؤاد في إنجلترا، فقد زار الملك عددًا من المصانع والمتاحف واجتمع ببعض رجال الأعمال، كما زار مصانع النسيج في يوركشاير، والتي تعتمد في إنتاجها على القطن المصري.

وعندما وصل إلى فرنسا كانت الملكة نازلي قد لحقت به وتم استقبالهما في قصر الإليزيه، مجرد احتفالات شخصية بعيدًا عن السياسة؛ حيث ترك الملك فؤاد زوجته وأولاده في باريس وذهب هو إلى إحدى المصحات الفرنسية «فيشي للمياه المعدنية» حيث قضى ثلاثة أسابيع.

وأثناء إقامة الملكة في فرنسا سمح لها الملك فؤاد بمقابلة إحدى المراسلات، كما سمح أن تنشر مجلة «لايف» حوارًا معها مصحوبًا بصورة مع ابنها الملك فاروق وبناتها الثلاث؛ حيث لفتت الملكة نازلي بثقافتها وأناقتها الفرنسية أنظار الجميع، ووصفتها الصحف بأنها من اجمل وأذكى النساء، رغم أنها أم لأربعة أطفال (لم تكن الأميرة فتحية قد ولدت بعد)، إلا أنها تحتفظ بقامة رشيقة وملامح آسرة، وثقافة تؤهلها كي تكون من أشيك نساء العالم. وفي حديث مع مجلة «زلايفس» أشارت المجلة إلى جذورها الفرنسية ووصفتها بأنها على ثقافة رفيعة، وأنها تجيد العربية والإنجليزية كإجادتها الفرنسية تمامًا، وأنها تعتبر رقيًا للمرأة الشرقية.

وكان السؤال الملح على كل من يقابل الملكة نازلي من الصحفيين هو: كيف تعيش في ظل نظام الحريم؟ ويبدو أن العالم الغربي كان حتى عام ١٩٢٧ يتصور أن مصر تعيش في القرون الوسطى، وأن النساء فيها يعشن كنساء ألف ليلة وليلة. وربما كانت الملكة نازلي أول سيدة مصرية يتعرف عليها الرأي العام الغربي وتعرض وجهة نظر مخالفة لما يعتقده الغرب عن النساء في الشرق؛ حيث بدت في غاية الجرأة وهي تهاجم نظام الحريم القديم، واعتبرته غير إنساني، وصورة سيئة لوضع المرأة في

الشرق، وأكدت أن هذا النظام بدأ ينتهي في غالبية البلدان، ونفت وجوده تمامًا في مصر، لكنها لم تنكر أن العادات والتقاليد الشرقية تفرض على المرأة المصرية كثيرًا من العزلة؛ حيث ما يزال تعليم البنات محدودًا.

وسألتها المجلة: كيف إذًا تقضي الملكة وقتها داخل جناحها بقصر القبة في الشتاء أو في قصر المنتزه في الصيف؟

قالت الملكة: إنها تقضي وقتها وفقًا لجدول معدٍّ من قبل الحاشية حيث تلتقي بأطفالها لمدة ساعة فقط في الصباح حتى لا تحرمهم من أنشطتهم، وتراهم ساعة أخرى في المساء قبل أن يذهبوا إلى النوم، أما عن بقية ساعات النهار فقد كانت تقضي ساعة في عمل بعض الألعاب الرياضية، وساعة تعد فيها نفسها للمناسبات المسائية التي تقتصر على بعض المناسبات العائلية أو استقبال الزوار؛ حيث تختار مع وصيفتها الأولى الملابس المناسبة ثم تقوم بفتح خزانة المجوهرات لاختيار المناسب منها، وتقضي ساعة في الرد على الرسائل التي تصل إلى جناحها حتى يحين موعد الغداء، وقالت إنها تقوم ببعض الأنشطة المحدودة نظرًا لانشغالها بالأطفال، وتمنت أن تحقق بناتها في المستقبل ما لم تستطع هي تحقيقه.

وقد نشرت المجلة صورة للملكة مع أولادها فاروق وفوزية وفايزة وفايقة، التي كان عمرها وقتها سبعة أشهر فقط، وكانت هذه الصورة أول صورة يرى فيها الناس الملكة والأطفال، وقد نقلتها الصحف المصرية عن مجلة «لايف».

ووفقًا لما جاء في مجلة «لايف» فإن وقت الملكة كان مرسومًا بكل دقة، ورغم القيود التي كانت مفروضة عليها فإن تلك القيود لم تمنعها من تعلم الرقص على يد أحد مدربي الرقص الإسبان، بالتحديد السامبا والتانجو، أو أن تطلب تعيين طبيب علاج طبيعي إيطالي لعمل التدريبات الرياضية وعمل مساج لظهرها، أو اختيار مجموعات نادرة من المجوهرات، أو شراء كميات كبيرة من الأزياء العالمية باهظة الثمن، لكن الحقيقة كانت أقسى مما قرأه الناس عن الملكة، فقد كانت العلاقة بين الملك والملكة لا تخرج عن حدود الأدوار المرسومة بدقة من قبل الحاشية والمسئولين عن إدارة القصر، وكان الملك يفرض عليها نظامًا صارمًا في الحياة؛ حيث كانت الملكة تشعر طوال الوقت بأنها مراقبة من كل الموجودين حولها كي يعرف الملك كل صغيرة وكبيرة تدور في القصر، يضاف إلى ذلك حقيقة العلاقة بين الملك والملكة، فقد كان

التفاهم بينهما شبه معدوم نظرًا لفارق السن بينهما؛ فقد كان الملك أكبر منها بستة وعشرين عامًا، يضاف إلى ذلك اختلاف الثقافات واختلاف لغة الحديث أيضًا، ففي أثناء احتدام المناقشات بينهما كانت الملكة تتحدث العربية والفرنسية وكان صوتها عاليًا جدًّا، بينما يتحدث الملك بالإيطالية والتركية نظرًا لعدم إلمامه باللغة العربية بطريقة جيدة، وبعد انتهاء كل مناقشة كان الملك يعاقبها إما بالحبس في جناحها وإما بمنعها من رؤية الأطفال لمدة أسبوع أو أكثر، بالإضافة إلى استحالة العلاقة الزوجية الخاصة، والتي كانت الملكة تكرهها وتهرب منها بحجج كثيرة مثل ادعاء المرض، لكن الملك فؤاد كان يريد أبناء آخرين حتى لا يعيش فاروق وحيدًا بلا أشقاء، وفي كل مرة كانت الملكة تلد طفلًا كان يتمنى أن يكون ذكرًا، لكن الأمنية لم تتحقق له سوى مرة واحدة، فقد أنجبت الملكة بعد فاروق أربع بنات هن: فوزية التي ولدت عام ١٩٢١، وفايزة عام ١٩٢٣، وفايقة عام ١٩٢٦، وفتحية عام ١٩٣٠، وفي كل مرة كانت الملكة نازلي تقاوم الملك بشدة؛ حيث كان رجلًا يتسم بالعنف والخشونة في معاملته للنساء.. (معلومات جاءت في مذكرات المربية «جيردا ساجو برج»).

لم تقاوم الملكة نازلي الحصار المفروض عليها في جناحها الملكي، أو نظام رؤية الأطفال الذي وضعه زوجها، والذي قصد به إبعادها عن الأطفال بعد أن يتموا سن الفطام، فقد كانت تعرف أن أيام السلطان معدودة، وأن الرصاصة التي استقرت في حلقه تعيش عليها بكتيريا صديدية لم ينجح الطب في علاجها، وكانت هذه البكتيريا تسبب له غازات كريهة الرائحة يعجز أي شخص يقترب منه أن يتحملها، وأن هذه البكتيريا سيكون لها تأثير خطير مع مرور الأيام على عضلة القلب، لكن الملك عاش سبعة عشر عامًا، تحملتها الملكة نازلي كعقوبة غير عادلة على ذنب لم ترتكبه.

سبعة عشر عامًا تحملتها الملكة نازلي مع رجل لا يربطها به سوى قواعد الحياة وبروتوكولات القصور، فلم يكن بينهما أي حوار أو مشاعر؛ حيث عاشت حبيسة جدران قصر القبة أو قصر المنتزه لا رأي لها في أي شيء، ولا تفعل شيئًا سوى إنجاب الأطفال. هكذا عزلها الملك فؤاد عن الحياة، ولم يكن أمامها إلا أن تحلم بأن يصبح ابنها يومًا ما ملكًا، كي تسترد حريتها ومكانتها ليس فقط كملكة، بل أيضًا كإنسانة.

الملكة نازلي الأم

كانت الملكة نازلي مثل أي أم مصرية حريصة على مصالح أبنائها، ورغم القيود التي فرضها عليها الملك فؤاد والنظام الصارم الذي وضعه عند رؤية أبنائها خوفًا من أن تفرط في تدليلهم، فإنها كانت أمًّا حنونًا بل ومفرطة في حنانها وتدليل أبنائها، وكانت تنتهز الفرصة لتلبي لهم طلباتهم أيًّا كانت. ونظرًا لأن فاروق كان ابنها الوحيد، وكانت تعرف أنه سيصبح ملكًا عما قريب، فقد كانت ضعيفة تجاهه جدًّا، لا تستطيع أن ترفض له طلبًا؛ لتعوضه عن النظام الصارم الذي كان أبوه الملك فؤاد يفرضه عليه.

كان الملك قد أحضر لأبنائه عددًا كبيرًا من المربيات السويسريات والإنجليزيات للإشراف على تربيتهم، وقد نشرت إحدى المربيات السويسريات مذكراتها في إحدى الصحف الأوربية واسمها «جيردا ساجو برجس» تصف ما كان يدور في قصر القبة يومًا بيوم، واختصت بالأمر الملك فاروق عندما كان طفلًا حيث وصفته بأنه كان طفلًا وحيدًا ليس له أصدقاء، فلم يكن مسموحًا لأطفال العائلة المالكة من أبناء أعمامه أو عماته الاختلاط به، وبالتالي لم يكن أمامه إلا اللعب مع شقيقاته فقط. والحقيقة أن الملكة نازلي كانت تعرف أن ابنها سيكون ملكًا، وكانت لا تريد أن يشب بين أقرانه من أبناء العائلة فيتساوى معهم، بل أرادت أن يكون فريدًا وبعيدًا عنهم، يضاف إلى ذلك أن الملك فؤاد نفسه لم يكن على علاقة طيبة بعائلته، ومن ثم لم يحب أن يشب ابنه بينهم.

وتصف المربية جيردا كيف كان الملك فاروق يبدأ يومه وهو في الثالثة من عمره حيث يستيقظ في تمام الساعة الثامنة بعد أن تعزف له فرقة موسيقية صغيرة السلام الملكي خارج شباك حجرته، وبعد ذلك يأتي النوبي المكلف برعايته ليعطيه حمامًا ساخنًا ثم تبدأ جيردا تساعده على ارتداء ملابسه واصطحابه إلى الفراندة لتناول وجبة الإفطار المكونة من توست محمص ومربى، وبعد الانتهاء من الإفطار يأتي كبير الخدم محمد حسن بزيه المميز فيقبل الأرض ثم يقبل يد فاروق ويصطحبه إلى

الحديقة حيث يقضي ساعتيْن تقرأ له جيردا بعض القصص أو يستمع إلى عزف الفرقة الموسيقية، ثم يقوم بعد ذلك بعمل تمارين رياضية ويعود بعد ذلك إلى حجرته ليغير ثيابه ويغسل يديه استعدادًا لزيارة والدته، ثم يستعد لتناول الغذاء المكون من فراخ روستيد وخضراوات وكيك شوكولاتة.

وفي العادة كانت تصحبه شقيقاته وأحيانًا والدته في تناول الغذاء، وبعدها يذهب لأخذ قسطٍ من الراحة لمدة ساعتين ليبدأ برنامج المساء بارتداء بدلة من الحرير وقميص أبيض محلى بالدانتيل استعدادًا لتناول الشاي مع شقيقاته واللعب في حجرة الألعاب أو أن يستدعيه والده ليراه، حتى يحين موعد العشاء، وأحيانًا تصحبه أمه معها إلى قاعة الطعام الملكية إذا كان لديها بعض الزوار حتى الساعة السابعة فيعود إلى حجرته ويأخذ حمامه وتقرأ له جيردا قصة لينام.

تقول جيردا التي كانت مربية الملك طوال خمسة الأعوام الأولى إن الملك الصغير كان وحيدًا جدًّا، لدرجة أنه أخذ منها صورة ابن أخيها الصغير ووضعها إلى جوار سريره، واعتبره صديقه الخيالي فكان يكلمه ويحكي له ما يزعجه أو ما يفرحه طوال اليوم.

وبعد أن أتم الملك فاروق عامه السادس عادت جيردا إلى السويد وجاءت مربية إنجليزية اسمها «إينا نيلور»، وكان فاروق يناديها باسم «نينزي»، وكانت صارمة بعض الشيء؛ مما أزعج الملكة نازلي التي كانت دائمة الشجار معها بسبب شدتها على فاروق، لكن الملك فؤاد كان يرى أن «نينزي» تقوم بواجبها كي لا يشب الولد لينًا في تصرفاته. وبين شدة نينزي وحنان الملكة نازلي تعلم فاروق وهو طفل كثيرًا من الحيل ليرضي الطرفين أمه ومربيته التي تقضي معه أطول ساعات النهار. وكانت كل الأشياء التي تمنعها عنه نينزي مثل أكل الحلوى والشوكولاتة كانت الملكة تعطيها له بلا حساب، وبينما كانت نينزي تمنعه من اللعب في الحديقة بعد الساعة الخامسة كي يؤدي فروضه الدراسية، كانت أمه تتعمد أن تأخذه في جناحها وتصحبه بنفسها إلى الحديقة حتى يحين موعد نومه. هكذا عاش فاروق طفولته مدللًا من أمه ضاربًا عرض الحائط بأي نظام يفرض عليه، وأمام الحرب الدائرة بين الملكة وبين مربيته شب الطفل فاروق ميالًا للعب على حساب العلم، ميالًا للفوضى على حساب الانضباط، وعرف في نفس الوقت أن أمه الملكة نازلي سيدة قوية عنيدة لا تستسلم بسهولة لأي شيء لا يعجبها.

لكن ذلك لم يمنع فاروق وهو في سن السادسة من أخذ دروسٍ في الحساب والجغرافيا ومبادئ العلوم، وأيضًا من ممارسة الرياضة مثل ركوب الخيل ولعب السيف «الشيشز والتن»، أو أخذ دروسٍ في اللغات التي نبغ فيها سريعًا؛ حيث كان وهو في العاشرة من عمره يتحدث العربية والفرنسية والإنجليزية بطلاقة، لكنه كان مثل أمه وشقيقاته مسجونًا في قصر القبة أو قصر المنتزه لا يختلط بأحد وليس له أصدقاء، وغير مسموح له مثل كل من في سنه من الأطفال أن يخرج ويختلط مع أقرانه. والمرة الأولى التي خرج فيها من القصر كانت في عام ١٩٢٧ عندما اصطحبته الملكة نازلي معها إلى رحلة أوربا، وكانت المرة الأولى في حياته التي سافر فيها خارج مصر، وكان عمره وقتها سبع سنوات؛ حيث نشرت بعض الصحف الفرنسية والإنجليزية لأول مرة صوره التي نقلتها وكالات الأنباء إلى الصحف المصرية.

وأمام إلحاح الملكة نازلي بأن الناس يجب أن تتعرف على ولي العهد، اصطحبه والده مرة عند افتتاح معرض البريد، وكان فاروق وقتها يلقب بولي العهد أمير الصعيد.

إذا شب الملك فاروق دون أن ينتظم في برنامج دراسي محدد، فقد حصل على معلومات متفرقة في الحساب والجغرافيا والعلوم دون أن ينهي برنامجًا محددًا، ولم تكن الملكة حريصة على ذلك، فقد كانت فرحتها به وتدليلها له يبعدان عن رأسها فكرة أن يجهد نفسه في استذكار الدروس أو حفظ الأناشيد، ولماذا يتعلم؟ هل هو محتاج إلى وظيفة؟ هكذا كانت تردد عندما يطلب منها أحد تشجيعه على الدراسة، خاصة السفير الإنجليزي الذي أرسل زوجته شخصيًّا كي تقنع الملكة بضرورة التحاق ابنها في إحدى الكليات الأجنبية، وكلما ألح السفير البريطاني على الملك فؤاد أن يرسل ابنه إلى إنجلترا ليلتحق بكلية «إيتون» الإنجليزية حيث أقرانه من أمراء العالم يدرسون فيها، كانت الملكة تعترض وكان الملك يرى أن سنه ما تزال صغيرة، حتى رضخ الجميع للإلحاح البريطاني وسافر فاروق في أكتوبر عام ١٩٣٥ إلى إنجلترا وعمره خمسة عشر عامًا، لكنه للأسف عاد بعد ستة أشهر فقط بعد وفاة والده الملك فؤاد في إبريل عام ١٩٣٦.

إذا كانت العلاقة بين الملكة نازلي وابنها فاروق علاقة تتسم بالحنان إلى حد التدليل، فقد كانت لا تحب أن ترفض له طلبًا، وكانت تتركه يأخذ أي شيء يريده حتى لو كان هذا الشيء ملك شخص آخر. وتحكي المربية «نينزي» أنها كانت بصحبته هو ووالدته الملكة نازلي في زيارة للأميرة شويكار ليسلم فاروق على شقيقته الكبرى

فوقية التي عادت من أوربا بعد رحلة علاج، وكان عمر فاروق عشر سنوات، وأثناء الزيارة فتح فاروق دون أن يستأذن دولابًا في حجرة الصالون وأخذ شيئًا ووضعه في جيبه، وعندما نهرته المربية نينزي ابتسمت والدته وسألته بالفرنسية: ما هذا الشيء؟ فقال لها: علبة شيكولاتة، فضحكت دون أن تؤنبه، ومنعًا للحرج فقد قامت شقيقته وأحضرت له علبة أخرى. هذه الحادثة تدل على أن الملكة نازلي كانت ترى أن من حق فاروق أن يأخذ أي شيء يعجبه، ولِمَ لا، فسوف يكون ملكًا وسيكون كل شيء تحت تصرفه، لكنها لم تعرف أن عدم انتظام ابنها في برنامج علمي محدد قد أضعف قدراته التحليلية، وجعل تفكيره مشتتًا، وركز طاقته الذهنية في التفكير غير العلمي حيث اعتمد في تحليله للأمور على نظرية المؤامرة، بالإضافة إلى عدم المقدرة على الفهم المنطقي للأشياء، فكان يتصرف بالحاسة وليس بالمنطق، ميالًا إلى الخيال أكثر من الواقع، متصورًا أنه الوحيد الذي يعرف لأنه لم يرَ ولم يسمع عن أشخاص أكثر منه علمًا أو ثقافة.

هذا عن علاقة الملكة بابنها، فماذا كانت علاقتها ببناتها؟ على عكس القيود التي فرضها الملك فؤاد على تربية ابنه فاروق، ترك للملكة نازلي أمر تربية البنات، فكانت تختار المربيات المناسبات للأميرات، كما ترك لها حرية التصرف في وضع البرنامج الدراسي لهن. وكانت الأميرة فوزية أصغر من فاروق بعام واحد وبالتالي فقد كانت قريبة جدًّا من أمها. ونظرًا لأن الملكة لم يكن لديها صديقات تثق فيهن، فقد كانت الأميرة فوزية مخزن أسرار أمها التي كانت تشكو إليها سوء معاملة أبيها الملك فؤاد، وكانت دائمًا ترى أمها وهي تبكي حظها العاثر عندما يعاقبها الملك فؤاد، فشبت الأميرة فوزية وهي ترى كثيرًا من المشكلات بين أمها وبين أبيها عكس أخيها فاروق الذي كانت الملكة تتجنب الحديث عن مشاكلها أمامه، فشبت الأميرة فوزية ميالة إلى الانطواء، ميالة إلى العزلة قليلة الكلام، وكانت الملكة نازلي تصفها بالفرنسية «إيلي دو» أي كالم برنسيس، على عكس شقيقتها فايزة التي كانت تميل إلى الحركة واللعب وعدم إطاعة أوامر المربيات.

كانت الملكة تعوض تعاستها في الحياة مع زوجها بمنح ابنها وبناتها فيضًا جارفًا من الحنان والتدليل المفرط؛ حيث كانت تفرط في شراء اللُّعب من أغلى العرائس في العالم، حتى إنه تم عمل متحف صغير في قصر عابدين ضم أكثر من ألف عروسة ولعبة كانت تخص أبناء الملك فؤاد (أين هذه الألعاب النادرة الآن؟).

يضاف إلى ذلك حجم الملابس التي كانت الملكة تأمر بشرائها من أرقى محلات الأزياء في العالم، وكانت الملكة تشرف بنفسها على دروس الإتيكيت والبروتوكول التي تتدرب عليها الأميرات، كذلك دروس اللغات والألعاب الرياضية والرقص الغربي كالتانجو.

كانت الملكة نازلي تعيش لحظات السعادة الوحيدة مع ابنها وبناتها، وكانت طوال سنوات زواجها من الملك فؤاد تشغل نفسها بأبنائها، وكانت نادرًا ما تستقبل زوارًا من أقاربها أو من أفراد العائلة المالكة؛ حيث كانت الزيارات تتاح فقط في الأعياد والمناسبات الرسمية كأعياد ميلاد ابنها أو إحدى بناتها؛ حيث يأتي الزوار حاملين الهدايا النادرة دون أن تبذل أي مجهود في عمل صلات حقيقية معهم، وكانت تكتفي بصديقة أو اثنتيْن من بنات الوصيفات كي تسمح لهما باللعب مع بناتها.

هكذا عاشت الملكة نازلي سبعة عشر عامًا سجينة في القصر مع أبنائها حتى مات الملك فؤاد في ٢٩ إبريل عام ١٩٣٦، فشعرت الملكة نازلي لأول مرة بعد سبعة عشر عامًا أن حلمها سيتحقق وسيعتلي ابنها الوحيد عرش مصر. وفور إعلان وفاة الملك فؤاد قامت على الفور بالاتصال تلفونيًّا بابنها في إنجلترا حيث قالت: (ولدي أنت الملك.. Son you are the King).. (نص المكالمة سردته مجلة التايمز في عددها الصادر يوم ٢٩ إبريل عام ١٩٣٦).

لم تقل الملكة لابنها الموجود في إنجلترا على بعد آلاف الأميال: البقية في حياتك، ولم يظهر عليها أي علامة من علامات الحزن، بل كانت في أشد الاشتياق إلى أن يعود بأسرع وقت مكن حتى يعتلي العرش لتبدأ صفحة جديدة من حياتها تنعم فيها بالحرية والسعادة أو هكذا تصورت.

خرج جثمان الملك فؤاد من قصر عابدين دون أن تعلن الملكة عن حزنها، بل تركت واجبات العزاء لشقيقة الملك فؤاد الأميرة نعمت مختار بحجة أنها مريضة ولا تقوى على استقبال الزوار، ومنعت ابنتها الكبرى الأميرة فوزية من ارتداء ملابس الحداد، وكان عمر فوزية وقتها خمسة عشر عاما، وباقي القصة معروفة فقد قامت بتوزيع ملابس الملك على الفقراء، وطردت كل أفراد الحاشية الخاصة بالملك فؤاد، فقد كانت أمامها مهمة ليست سهلة وهي أن يعتلي ابنها العرش بأسرع ما يمكن حتى لا يقتنصه ابن شقيق الملك فؤاد الأمير محمد علي وكان عمره واحدًا وستين عامًا، فقد بدأت الملكة نازلي قبل أن يعود ابنها فاروق من إنجلترا في الاجتماع بكل من

علي باشا ماهر وشقيقها شريف باشا صبري لبحث خطة تنصيب ابنها الملك فاروق في أسرع وقت ممكن.

قطع الملك فاروق رحلته إلى إنجلترا وعاد بعد ستة أشهر فقط دون أن يكمل تعليمه بعد وفاة والده، وكان في وداعه دوق كنت ووزير خارجية إنجلترا «إيدن» حتى صعد الباخرة «روي أوف إنديا» تصحبه مدمرتان لحراستها، وقد أفردت الصحف البريطانية الحديث عن وسامة الملك فاروق وصغر سنه كما علقت على نظرات الحزن التي اعتلت وجهه بعد سماع نبأ وفاة والده.

رست الباخرة على شاطئ الإسكندرية بعد ستة أيام، وطوال الرحلة من الإسكندرية إلى القاهرة بالقطار الملكي كان الملك الصغير يفكر في المسئولية التي ألقيت عليه في هذه السن الصغيرة، كما كان يفكر في والدته وشقيقاته الصغيرات، لكن لم يخطر على باله مطلقا أن المرأة التي ساعدته ووقفت إلى جواره حتى اعتلى العرش هي نفسها التي ستذبح كل الأحلام وكل الأمنيات التي تمناها، وأنها ستكون من ألد أعداء عرشه وأكثرهم خطرا على مستقبله.

عاد الملك فاروق من إنجلترا وعمره ستة عشر عامًا فقط، وكان قانون المجلس الحسبي لعام ١٩٢٥ يحدد سن الرشد بواحد وعشرين عامًا، وبالتالي فإن الملك فاروق سيبقى بعيدا عن العرش خمس سنوات، وعلى مقدار فرحة الملكة نازلي بوفاة زوجها وعودة ابنها من إنجلترا، على قدر قلقها الشديد على عدم تولي ابنها العرش حتى يكمل سن الرشد، فكيف ستمر تلك السنوات الخمس وهي تعلم جيدًا أن الأمير محمد علي يقف بالمرصاد للانقضاض على العرش، خاصة بعد أن أعلن عن رغبته في رفع سن الرشد إلى خمسة عشر عامًا عندما علم بمرض الملك فؤاد؟ على كل حال، لم تكن للملكة نازلي أي علاقة بالسياسة من قبل فلم يكن مسموحًا لها بذلك، لكن الآن عليها أن تستجمع كل حنكة السنين كي تضمن لابنها العرش وحتى لا يقتنصه أحد من الأسرة العلوية.

جمعت الملكة كل قوتها وبدأت في الاتصال بكل من بيده الأمر حتى يتحقق لها هدفها ويعتلي ابنها العرش. فقامت بالاتصال بالنحاس باشا على اعتبار أنه زعيم الأغلبية ورئيس الوزراء، وكان النحاس باشا من أقرب أصدقاء والدها وكان يعتبرها ابنة الوفد نظرًا للصلات القديمة بسعد باشا، وعندما أعلنت عن مخاوفها في أن يقتنص العرش من ابنها الأمير محمد علي، طمأنها النحاس باشا وأعطاها كلمته وأكد

لها أن الوفد لن يسمح بذلك أبدًا؛ حيث وجد في رغبتها بضرورة اعتلاء ولي العهد للعرش ما يناسب السياسة الوفدية، على أساس أن تدعيم الملك الصغير سيضمن رضا القصر عن الحكومة الوفدية، وبالتالي سيضمن استمرار الوفد في الحكم، لكن الملكة نازلي كانت تنظر لأبعد من ذلك بكثير؛ فقد كانت تعلم مدى كراهية الملك فؤاد للوفد وكانت تخشى من أن تكون الأسماء التي وضعها الملك فؤاد لمجلس الوصاية أسماء لا يمكن الاعتماد عليها في تحقيق الهدف، وهنا طمأنها النحاس باشا؛ حيث إن مظروف الملك فؤاد وفقًا للدستور يجب أن يفتح في مجلس النواب الذي يملك وحده حق الموافقة على أسماء مجلس الوصاية، وبالفعل عندما فتح مظروف الملك فؤاد كانت أسماء مجلس الوصاية على العرش هم: عدلي يكن، وتوفيق نسيم ومحمود فخري، وعلي ماهر، وكان كل من عدلي يكن وتوفيق نسيم قد توفيا وبالتالي كان لا بد من اختيار اسميْن جديديْن. وانتهى الأمر على أن يضم مجلس الوصاية كلًّا من الأمير محمد علي وعلي ماهر وشريف باشا صبري «شقيق الملكة». وهنا استطاعت الملكة أن تضمن صوتين في مجلس الوصاية هما: علي ماهر وشقيقها شريف صبري؛ حيث أقر البرلمان اسميْهما وحلفا اليمين كوصييْن على العرش حتى يتم الملك سن الواحد والعشرين عامًا.

لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد فقد كان القلق يملأ عقل وقلب الملكة نازلي، فمن يضمن ماذا سيحدث في سنوات انتظار بلوغ ولي العهد سن الرشد؟ لا بد أن تكون هناك طريقة تضمن تولي ابنها العرش بأسرع ما يمكن. كان الأمر يشغلها ليل نهار، حتى إنها أمرت كبير الياوران بالبحث في أوراق الملك فؤاد فقد تذكرت أنه في عيد ميلاد فاروق الثاني كانت قد طلبت منه إصدار أمر ملكي يضمن لفاروق العرش، وبعد البحث والتنقيب عثر علي باشا ماهر على أمر ملكي بتاريخ ١٢ إبريل عام ١٩٢٢ يوصي بأن سن الرشد بالنسبة لولي العهد يكتمل بثماني عشرة سنة هلالية، وبالتالي فإن الملك فاروق سيبقى بعيدًا عن عرشه خمسة عشر شهرًا فقط حتى يتم ثمانية عشر عامًا هلاليًّا، بدلًا من الانتظار أربع سنوات حتى يتم الواحد والعشرين عامًا ووافق الجميع على تنفيذ الأمر الملكي بمن فيهم السفير البريطاني.

لكن سعي الملكة نازلي لم يتوقف عند هذا الحد، بل امتد جهدها إلى داخل الأسرة العلوية نفسها؛ حيث زارت الأميرة شويكار طليقة زوجها، وبينت لها أن فاروق عندما يصبح ملكًا ستكون شقيقته الأميرة فوقية (ابنة الملك فؤاد من شويكار)

في أرفع درجات أميرات أسرة محمد علي؛ وبالتالي فإن مصلحة شويكار لا بد أن تكون مع فاروق.

كذلك قامت بالاتصال بالسلطانة ملك زوجة السلطان حسين كامل العم الأكبر لفاروق، وكانت السلطانة ملك تعتبر أكبر النساء سنًّا في العائلة ولها كلمة مسموعة على كل أفراد العائلة العلوية، وعندما أبدت نازلي مخاوفها من الأمير محمد علي طمأنتها السلطانة ووعدتها بوقوف العائلة كلها مع فاروق حتى يعتلي العرش.

تحركت نازلي في جميع الاتجاهات وجمعت كل الخيوط في يدها كي تضمن أن العرش سيكون لابنها ولن ينقض عليه أحد من الأسرة العلوية، لكنها رغم ذلك كانت تعيش أشد لحظات القلق في حياتها وهي تنتظر لحظة تتويج ابنها على عرش مصر.

وحتى تنتهي شهور الانتظار بدأ الاستعداد لعمل خطة تضمن لملك المستقبل أولًا: الاقتراب من شعبه والتعرف على ثقافة بلده. ثانيًا: التعرف على ثقافات العالم والاقتراب من الرأي العام العالمي، وكانت الخارجية البريطانية ترى أن الملك فاروق لم يكمل تعليمه وبالتالي يجب أن يكمل تعليمه بأي وسيلة، وأمام اعتراض الجميع وعلى رأسهم الملكة الأم على سفر ابنها مرة ثانية إلى إنجلترا، وافق السفير الإنجليزي سير لامبسون على استدعاء أحد معلمي كلية إيتون أكبر الكليات في إنجلترا لمتابعة تعليم الملك الشاب. وبالفعل جاء من إنجلترا أحد مدرسي كلية إيتون للإشراف على تعليم ولي العهد، غير أن الملكة نازلي لم تعر هذه الجهود أي اهتمام، وبالتالي لم تشجع ابنها على تلقي الدروس قط، وظل مستر فورد الذي جاء من إنجلترا ليتابع دروس الملك بلا وظيفة ولم يحضر الملك درسًا واحدًا من دروسه، وعندما لفت شريف باشا صبري شقيق الملكة نظرها إلى خطورة المسألة وإلى ضرورة تلقي الملك لبعض المواد العلمية، أجابته الملكة بلامبالاة: شريف باشا.. ده ملك مش محتاج لتعليم.

كانت الملكة نازلي مشغولة في إعداد العدة لعمل رحلات نهرية إلى جنوب مصر بهدف التعرف على الآثار المصرية واقتراب ملك المستقبل من شعبه. وبالفعل وفي ١٧ يناير عام ١٩٣٧ اصطحب الملك والدته وشقيقاته وثلاثين نفرًا من الحاشية في رحلة إلى صعيد مصر، كان القطار الملكي يتوقف في المحطات الرئيسية ليتيح للملك تلقي التهاني والتحيات من شعبه، حتى الوصول إلى الأقصر حيث انتقل الجميع إلى الباخرة الملكية حتى الأقصر لزيارة الآثار المصرية، وكانت هذه أول مرة تخرج فيها

الملكة إلى الحياة العامة بصحبة أبنائها، وكانت المرة الأولى لبناتها أن يخرجن خارج أسوار القصر لرؤية الحياة في مصر.

وما إن انتهت الرحلة النيلية حتى بدأت الملكة في ترتيب رحلة إلى أوربا، لزيارة إنجلترا وفرنسا وسويسرا. وفي ٢٧ فبراير ١٩٣٧ غادرت الباخرة «روي أوف إنديا» شواطئ الإسكندرية متجهة إلى سويسرا، لكن الرحلة هذه المرة كان هدفها أبعد بكثير من التعرف على الثقافات المختلفة، فقد كان هناك ترتيب آخر تريد منه الملكة أن تتعرف الصحف العالمية على ملك مصر الشاب، بالإضافة إلى رغبة الملكة في اصطحاب بناتها اللاتي لم يخرجن من خلف أسوار القصور إلى أوربا حيث المتاحف والموسيقى وأحدث الأزياء والمجوهرات العالمية، والتي كانت الملكة نازلي شغوفة بها إلى أبعد الحدود.

كانت رحلة أوربا فرصة للجميع لأخذ الأنفاس بعد رحيل الملك فؤاد، ورغم أن الملكة نازلي قد سافرت من قبل إلى أوربا مع زوجها فإن هذه المرة كان الأمر مختلفًا، فلم يكن هناك زوج تأخذ منه الإذن في كل صغيرة وكبيرة بل كانت هي التي تتصرف بملء إرادتها وبحرية كاملة؛ حيث عاشت الملكة نازلي في تلك الرحلة الحياة التي تمنتها بكل حرية مثل طائر انطلق إلى الفضاء بعد أن ظل حبيسًا في القفص.

كان برنامج الرحلة يضم سويسرا وإنجلترا وفرنسا، وكانت المحطة الأولى في سويسرا ـ سان موريتز ـ منتجع الملوك والأغنياء في العالم، وتصدرت صور العائلة المالكة المصرية الصفحات الأولى في الصحف الأجنبية، والتي كانت تنفرد بنشر تحركاتهم وسهراتهم وحجم الأموال التي ينفقونها ببذخ واضح، وكان من ضمن الصور والتعليقات التي نشرتها تلك الصحف صور للملكة وهي مرتدية ملابس التزحلق على الجليد وسط أبنائها وحاشيتها، في منتجع سان موريتز، وعندما تناقلت وكالات الأنباء تلك الصورة ونشرتها إحدى الصحف المصرية، بدأ الكثيرون يتكلمون عن سلوك الملكة على اعتبار أن مصر دولة إسلامية، كما أن ما نشر كان قد أزعج الوفديين أيضًا وعلى رأسهم أم المصريين السيدة صفية زغلول، التي كتبت للملكة خطابًا شديد اللهجة تؤنبها على سلوكياتها التي عرضتها الصحف الأجنبية والمصرية، وتذكرها بمهامها المستقبلية كأم لملك المستقبل، وعندما وصل الخطاب إلى جناح الملكة في فندق جورج سانك أو جورج الخامس في باريس، قرأت الملكة الخطاب بهدوء دون أن يظهر على وجهها أي انفعال ثم أشارت لوصيفتها أن تلقيه

في سلة المهملات. كانت الملكة في هذه اللحظة تعيش لحظات حريتها وتستمتع بها ولم تكن على استعداد أن يفسد عليها أي مخلوق سعادتها، حتى لو كان هذا الشخص صفية هانم زغلول التي كانت بمثابة الأم الروحية للملكة نازلي والتي تكن لها كل مشاعر التقدير وتعتبرها في محل والدتها.

غير أن شريف باشا شقيق الملكة كان له رأي آخر وطلب من شقيقته أن تتوارى قليلًا عن أعين الصحفيين حتى تركز الصحف الأجنبية على فاروق. وبالفعل أصبحت تحركات الملكة وبناتها بعد ذلك سرية، وتابعت الصحف الأجنبية أخبار الملك الشاب فاروق، ولم يكن قد تجاوز السابعة عشر عامًا ويتمتع بقدر كبير من الوسامة وسرعة البديهة، وكان مصورو الصحف والمجلات يطاردونه في كل مكان يذهب إليه ويلتقطون الصور له وهو يقود سيارته بنفسه، حتى إنه كان يختفي عن أعين المصورين وينزل من السلالم الخلفية من الفندق وينطلق بسيارته المرسيدس إلى المكان الذي يريده بعد أن ضاق بمطاردتهم، وقد ظهرت صورة الملك فاروق على أغلفة مجلات شهيرة مثل «لايف» و«تايمز» إلى جانب الأخبار اليومية في «الهارولد تريبيون» و«الفيجارو».

كانت رحلة أوربا التي امتدت خمسة أشهر من أهم وأسعد اللحظات التي عاشتها الملكة نازلي في حياتها، فلأول مرة في حياتها تنفق هذه المبالغ الفلكية على الأزياء والمجوهرات دون أن يحاسبها أحد؛ فقد كانت الملكة تهوى المجوهرات بجنون، حتى إن صحيفة «الفيجارو» كانت قد أشارت في عددها الصادر يوم ٢٥ مارس سنة ١٩٣٧ إلى فاتورة المجوهرات التي دفعتها الملكة لمحل المجوهرات «فإن كليف آند آربيلس» والتي بلغت ٢٥٠ ألف جنيه إسترليني، قيمة شراء بعض المجوهرات لها ولبناتها، يضاف إلى ذلك أن بيوت الأزياء العالمية كانت قد أرسلت مندوبيها في باريس إلى فندق جورج سانك حيث كانت الملكة وبناتها يقمن، وقاموا بعرض أحدث الموديلات كي تختار الملكة والأميرات ما يناسبهن.

كذلك فقد أشارت الصحف الأوربية إلى حجم الأموال التي ينفقها الملك الشاب فاروق، فقد اشترى الملك سيارة مرسيدس إسبور، ويختًا، ومجموعات من التحف والساعات الذهبية، إلى جانب عدد كبير من الأزياء والبدل، كما اشترى ماكينة ألعاب تشبه ماكينات ألعاب القمار الآن، واعتبرت الصحف الأوربية ولي عهد مصر وملكها المستقبلي من أغنى الأمراء في العالم. والحقيقة أن الدولة المصرية كانت تدفع

مصاريف الإقامة والانتقالات فقط، أما فواتير الشراء فقد كانت تدفع من حسابات الخاصة الملكية أو من حساب الملك فؤاد في سويسرا.

كانت رحلة أوربا فرصة للملكة نازلي في أن تعيش الحياة التي كانت تتمناها كملكة وأم لملك مصر على حريتها تمامًا، كما كانت الرحلة فرصة لاقتراب فاروق من فتاة صغيرة كانت ترافق شقيقاته وهي صافيناز ذو الفقار. كانت الفتاة ابنة كبيرة وصيفات الملكة نازلي زينب هانم ذو الفقار، والدها يوسف باشا ذو الفقار رئيس المحكمة العليا ثم أصبح محافظًا للإسكندرية، وقد طلب الملك فاروق من والدته اصطحاب صافيناز معهم إلى الرحلة بعد أن شاهدها بالصدفة مع شقيقاته بعد عودته من إنجلترا وأعجب بها. وهنا فكرت الملكة نازلي في زواج ابنها من تلك الفتاة، بعد أن يعتلي العرش ويتسلم مسئولياته الدستورية.

والحقيقة أن الملكة كانت مثل كل الأمهات في عصرها تستعجل زواج ابنها في السن الصغيرة لتبعده عن الإغراءات، يضاف إلى ذلك أن زواج فاروق وإنجابه لولي عهد سيحفظ له الحكم مدى الحياة، ولكن لماذا وافقت الملكة ورحبت بصافيناز ذو الفقار، ولم تفكر في أميرة من بيت محمد علي؟

كتب الكثيرون تحليلاتهم عن هذا الموضوع حيث رأوا أن اختيار الملكة لفتاة من خارج العائلة الملكية سيجعل الملكة نازلي دائمًا في مرتبة أعلى منها، وفي رأيي أن هذا التحليل ساذج، فالملكة نازلي كانت تتمتع بشخصية قوية جدًّا، بحيث إنها ليست في حاجة كي تزوج ابنها من فتاة أقل منها لتكون هي أعلى مرتبة، فهي في النهاية ملكة وأم الملك سواء تزوج ابنها من أميرة أو من فتاة عادية. إذن، ما هو سر حماس الملكة نازلي لصافيناز ذو الفقار، ولماذا استعجلت الزواج؟

الحقيقة أن نازلي أحبت بالفعل الفتاة وكانت تعتبرها مثل بناتها، فقد كانت من القليلات اللاتي سمحت لهن الملكة بالقدوم إلى القصر واللعب مع بنتيْها الأميرة فوزية والأميرة فايزة، يضاف إلى ذلك أن الملكة رغم شخصيتها القوية كانت عاطفية إلى أبعد الحدود متأثرة بالقصص الرومانسية التي قرأتها في شبابها للكتاب الرومانسيين الفرنسيين، وكانت لا تطيق فكرة أن تحرم ابنها من فتاة يحبها، هكذا كانت تفكر الملكة نازلي بكل بساطة في الأمور التي تتعلق بالحب والزواج، يضاف إلى ذلك أن الملكة كانت ترى أن زواج ابنها من فتاة عادية من أسرة كريمة سيقربه

أكثر من أبناء الشعب، عن زواجه من إحدى أميرات الأسرة العلوية التي تعلم جيدًا أن الشعب يعتبرهم من الدخلاء عليه.

ولكن لماذا استعجلت الملكة إتمام الزواج حتى قبل أن يتم الملك عامه الثامن عشر؟

ويعلق الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه (Nation in Crisis)، فيقول إنه ورغم تولي الملكة لسلطاته قبل أن يكمل السن القانونية، فقد كانت هناك مخاوف في الطعن بعدم بلوغه سن الرشد القانونية التي حددها الدستور عام ١٩٢٥ وهي سن الواحد والعشرين عامًا.

إذا كانت هناك مخاوف من الطعن في دستورية الملك وكانت لدى الملكة نفس المخاوف؛ وبالتالي فقد كانت ترى أن زواجه ثم إنجابه لولي العهد بأسرع ما يمكن سيقطع الطريق على الطامعين في العرش.

فقد كان العرش هو الهم الأول الذي يحرم الملكة النوم، وكانت تحاول تدعيم عرش ابنها بكل الوسائل الممكنة، ربما عوضها ذلك عن سنوات القهر التي عاشتها في ظل الملك فؤاد وأفراد أسرة محمد علي الذين لم يظهروا لها أي مشاعر إيجابية طوال زواجها. كانت الملكة نازلي ترى أنها يجب أن تنتصر في معركة تولي ابنها العرش، وأنها ستسانده بكل الوسائل من أجل تحقيق ذلك ليكون ملكًا على مصر وتكون هي الملكة الأم وتضمن لأسرتها الحياة السعيدة التي حلمت بها سنوات طوالًا، دون أن تدري أن الأيام ستخبئ لها ما لا يتصوره خيال.

وبالفعل تولى الملك فاروق سلطاته الدستورية في ٢٩ يوليو عام ١٩٣٧، وعقب توليه لسلطاته الدستورية تم إعلان خطبته على صافيناز ذو الفقار، وبدأ الاستعداد للزواج الملكي الذي تحدد موعده مع بداية عام ١٩٣٨، وبدأ الملك في البحث عن اسم يناسب الملكة الجديدة يبدأ بحرف الفاء، وبحث في دفتر والده واختار في النهاية اسم فريدة، فقد كان اسم صافيناز غريبًا بعض الشيء على مسمع الشارع المصري رغم أنه ظل يناديها باسم «فافيت» طوال حياته.

بدأت الاستعدادات للزواج الملكي طوال الأشهر الستة التي أعقبت تولي الملك عرش مصر، وقد أفردت الصحف الأجنبية عناوين صحفها لأخبار العروسين الشابين، وظهرت صورة العروس لأول مرة على غلاف مجلة لايف عام ١٩٣٧ في عدد أكتوبر، وأفردت المجلة تحقيقًا عن ملكة مصر الشابة وأشارت إلى ثقافتها

الفرنسية وحبها للفنون، وأكدت على أنها الابنة الوحيدة ليوسف باشا وهبة وزينب هانم ذو الفقار الوصيفة الأولى للملكة نازلي، وأن لها شقيقيْن صغيريْن وليس لها أي شقيقات، كما أشارت المجلة إلى الذوق الرفيع الذي تتمتع به الملكة الجديدة، كما عرضت المجلة مجموعة نادرة من الصورة للملكة مع شقيقتي الملك فوزية وفايزة أثناء رحلتهما إلى أوربا العام السابق.

أما الصحف المصرية وعلى رأسها مجلة الاثنين التي ظهرت على غلافها الملكة بفستان بسيط، فقد أفردت تحقيقًا خاصًّا عن عاداتها وهواياتها الفنية، فقد كانت محبة للرسم مثل خالها الفنان محمود سعيد.

كانت الملكة الصغيرة تستعد لتعتلي عرش مصر وتصبح صاحبة الجلالة الملكة فريدة، ولكن ما هو وضع الملكة نازلي بعد هذا الزواج؟ هل ستقبل أن تكون في معية الملكة الشابة التي ستحمل لقب صاحبة الجلالة بينما هي تحمل لقب الملكة الأم فقط؛ وبالتالي ستكون العروس في درجة ملكية أعلى منها؟

فكرت نازلي في موقفها طويلًا، واستشارت شقيقها شريف باشا صبري وصديق العائلة ورائد ابنها أحمد حسنين باشا في الأمر، وبعد تفكير طويل استقر الرأي على أن يصدر ابنها الملك فاروق أمرًا ملكيًّا يمنحها لقب صاحبة الجلالة؛ وبالتالي تكون على نفس الدرجة الملكية للملكة الجديدة، وتحتفظ بكل حقوقها وصلاحيتها الملكية. وبالفعل طلبت الملكة نازلي من ابنها أن يمنحها لقب صاحبة الجلالة قبل أن يتزوج تقديرًا وعرفانًا بكل جهودها معه حتى يعتلي العرش. وعلى الفور وافق الملك الذي كان يكن لأمه كل الاحترام والتقدير وأصدر أمرًا ملكيًّا يمنح والدته الملكة نازلي لقب صاحبة الجلالة الملكة الأم؛ امتنانًا لكل الجهود التي قامت بها، وأفرط الأمر الملكي في سرد صلاحيات اللقب التي امتدت إلى وصاية الملكة نازلي على بناتها حتى بلوغهن سن الرشد، مع الاحتفاظ بكل الحقوق المالية والسياسية المصاحبة للقب على أن يتم تنفيذه من قبل الوزارات المعنية ومجلس الوزراء.

وقد يتساءل البعض عن مدى أهمية هذا الأمر الملكي وعن أسبابه، فالملكة نازلي ملكة فما الذي سيضيفه لها هذا الأمر الملكي؟ وللإجابة عن هذا السؤال نعود إلى الأمر الملكي الذي أصدره الملك فؤاد عام ١٩٢٢؛ حيث أمر بأن تكون السلطانة نازلي فؤاد ملكة مصر دون أن يصحب ذلك لقب صاحبة الجلالة، أي أن صاحبة الجلالة لقب له صلاحيات سياسية ومالية لم تكن الملكة نازلي تحملها.

على العموم، فقد حفظت الملكة نازلي حقوقها أمام الملكة الجديدة وأصبحت صاحبة الجلالة، ولكل منهن صلاحيات ومخصصات أنهكت المالية المصرية، فالأمر لم يكن مجرد لقب، لكنه كان يتعلق بالمراسم والمخصصات المالية والبروتوكول الخاص بالاستقبالات والحفلات الملكية. على العموم، لم تكن الملكة نازلي مهتمة لا بالأنشطة الاجتماعية ولا بحفلات الاستقبال، فقد تركت كل ذلك للملكة الصغيرة، لكن كل ما كان يهمها هو المخصصات الملكية ومظاهر الولاء والطاعة التي تصاحبها أينما كانت كصاحبة الجلالة.

الزفاف الملكي

قبل أن يتم الملك فاروق عامه الثامن عشر بثلاثة أسابيع أي في ١٩ يناير عام ١٩٣٨ تم عقد قرانه على صافيناز ذو الفقار ابنة يوسف باشا ذو الفقار، وكانت تصغره بثمانية عشر شهرًا فقط، وقد عقد القران في الأزهر بحضور والد العروس يوسف باشا ذو الفقار وعلي باشا ماهر وعقد القران الشيخ المراغي، وتم توزيع علب صغيرة من البورسلين المطعم بالذهب عليها صورة العروس ومكتوب عليها الحروف الأولى لكل منهما، بينما انطلقت المدافع على ربوة القلعة تعلن عن الزفاف السعيد. وحلقت طائرات السلاح الجوي المصري في سماء العاصمة تنثر في الفضاء صور العروسين والبالونات الملونة.

وكما كتب د. يونان لبيب في مقالاته الشائقة التي تحمل عنوان «ديوان الحياة المعاصرة»، فقد ذكر أنه وبعد عقد القران انتقلت الملكة الصغيرة إلى قصر عابدين بصحبة والدتها ونساء أسرتها، وفي المساء بدأت الاحتفالات التي امتدت ثلاثة أيام، حيث بدأ اليوم الأول بموكب الملكة الذي تحرك في الساعة الخامسة مساءً من قصر عابدين إلى قصر القبة؛ حيث ركبت الملكة الصغيرة العربة الملكية تصحبها الأميرة نعمت مختار عمة الملك، وتقدم الموكب عربات الزهور ثم أفراد الموسيقى الملكية وستة عشر موتوسيكلًا يقوده أفراد الحرس الملكي؛ حيث اخترق الموكب شوارع القاهرة من عابدين مرورًا بشارع الملكة نازلي «باب الحديد أو رمسيس» إلى ميدان العباسية حتى قصر القبة. كان الزحام شديدًا على جانبي الطريق، فقد خرجت جموع من المواطنين لمشاهدة الموكب الملكي، وأصبح اسم الملكة فريدة يتردد على ألسنة العامة، وهم يهتفون بحياتها وحياة الملك فاروق. والغريب أن الشعب المصري كان قد أحب الملكة الصغيرة من اللحظة الأولى واعتبرها ابنة من بناته، وتحقق هدف الملكة نازلي ورجال القصر حيث قرَّب زواج الملك الصغير بعروس من بنات الشعب من الشعب، وأصبح الفرح الملكي فرحًا في كل بيت مصري حيث عقدت الآمال على مرحلة جديدة وسعيدة على الأمة المصرية.

وكما ذكرت صحيفة الأهرام وقتها فإن الاحتفالات الشعبية بعقد القران السعيد كانت، قد بدأت مع بداية الأسبوع أي قبل الزفاف بأيام؛ حيث تم إعداد الموائد في ميادين القاهرة والإسكندرية لإطعام الفقراء. كما تم توزيع آلاف الجنيهات على الفقراء من الحفاة أبناء القرى والنجوع الفقيرة.

كما قامت مصلحة البريد بطبع طابع تاريخي يحمل صورة العروسين وحولهما غصنا زيتون، وقد أصر الملك ألا يرفع سعر الطابع كما كان ينوي مدير المصلحة؛ حيث ظل ثمن الطابع خمسة مليمات فقط.

وأمام توافد الكثيرين من أبناء مصر من المديريات المختلفة من الذين يرغبون في حضور الاحتفالات، تم تخفيض أجرة القطار الآتي إلى القاهرة إلى ٧٠٪ حتى يتمكن أبناء القطر من مشاهدة الاحتفالات، على الجانب الآخر نظم نادي السيارات الملكي مهرجانًا لسيارات الزهور؛ حيث انتشرت مواكب عربات الزهور من قصر عابدين حتى قصر القبة تتقدمهم فرق الموسيقى العسكرية الملكية.

وقد وصف الصحفي الأميركي «جوزيف ليفي» مندوب جريدة «النيويورك تايمز» احتفالات الزفاف منذ اللحظة الأولى؛ حيث وصف كيف انتقل جهاز الملكة فريدة إلى قصر القبة؛ حيث وصف «الترسو» بأنه يحتوى على خمسة وأربعين فستانا للسهرة، وأربع حقائب للمجوهرات، وثلاثين حقيبة تضم مستلزمات العروس، التي انتقلت بعد كتب الكتاب من قصر عابدين إلى قصر القبة بصحبة الأميرة نعمت مختار عمة الملك. وعند وصول الموكب الملكي إلى قصر القبة، كان الملك فاروق في انتظار العروس حيث استقبلها في حديقة قصر القبة حيث عزف السلام الملكي، وأطلق الحرس الملكي إحدى وعشرين طلقة من بنادقهم، بعدها صعد العروسان إلى الجناح الملكي الخاص، وبعد ثلاث ساعات كانت حديقة القصر تزدان بالزهور والأضواء الملونة، بعد أن صفت طاولات عليها أواني الزهور الفضية، وبعد وصول جميع المدعوين، هبط العروسان وعزفت الموسيقى مارش الزفاف؛ حيث اتجه العروسان حيث كانت جلالة الملكة نازلي واقفة وإلى جوارها السلطانة ملك ثم والدة العروس ثم الأميرات شقيقات فاروق؛ حيث قدم لها العروسان التحية وقبلوا يدها، ثم توجهوا إلى المدعوين الذين توافدوا للسلام عليهما.

كانت الملكة نازلي ترتدي فستانًا من اللون الأزرق وترتدي معه عقدًا وتاجًا من

السفير الأزرق مطعمين بحبات الماس؛ حيث بدت متلألئة تحت أضواء الشموع التي ملأت أركان الحديقة.

استمرت الاحتفالات ثلاثة أيام، وكان اليوم الأول مخصصًا للعائلة؛ حيث اجتمع لأول مرة جميع أفراد العائلة العلوية وعائلة الملكة نازلي وبالطبع عائلة العروس؛ حيث استمتع الجميع بوصلة غنائية للآنسة أم كلثوم، وكان اليوم الأول للاحتفالات يعد احتفالًا بانتصار الملكة نازلي على العائلة العلوية، فقد اعتلى ابنها العرش وتزوج من يحبها ويحبها أيضًا الشعب، وكانت المرة الأولى التي ينحني أمامها كل أمراء وأميرات الأسرة العلوية بعد أن حملت لقب صاحبة الجلالة، بمن فيهم الأميرة شويكار طليقة زوجها الملك فؤاد وأبنائها، كانت علامات الانتصار ترسم ملامح العظمة والتعالي على وجه الملكة نازلي أكثر مما ترسم الفرحة بزفاف ابنها.. (وصف جوزيف ليفي الملكة نازلي).

كان اليوم الثاني لحفل الزفاف الملكي مخصصًا لأعضاء الجاليات الأجنبية؛ حيث تم استقدام إحدى الفرق الموسيقية الشهيرة من أوربا، وبعض فرق البالية، كما خصص اليوم الثالث لرجال الدولة والحاشية والباشوات من أعضاء مجلس النواب، وأحياه المطرب الشهير صالح عبد الحي.

ثلاثة أيام مرت كأنها ثوانٍ في حلم جميل عاشته الملكة نازلي يوم زفاف ابنها الملك فاروق، كأنها لم تفرح قط في حياتها. انتهت الأيام الثلاثة، وصعدت الملكة نازلي إلى جناحها الخاص في قصر القبة، وتأملت ملامح وجهها الذي أجهدته السنون، وأغمضت عينيها وهي تحلم بالأيام الجديدة التي ستعوضها عن السنوات السابقة، لكن السعادة التي ملأت صدرها في ذلك اليوم سرعان ما تلاشت مع أزمات الحياة.

فما الذي غير الأمور، وما الذي عكر صفو الحياة وقلبها إلى جحيم؟

زفاف الأميرة فوزية

كانت السنوات التي أعقبت وفاة الملك فؤاد (إبريل ١٩٣٦) وحتى عام ١٩٣٨ تمثل للملكة نازلي السعادة المطلقة، فقد تولى ابنها الملك فاروق العرش في يوليو عام ١٩٣٧ وتزوج في يناير عام ١٩٣٨.

بدأت الأفراح مع زواج الملك فاروق بالملكة فريدة، وطوال عام ٣٨ لم تنقطع الأفراح عن قصر القبة بعد ذلك، ففي نفس العام تم إعلان خطبة الأميرة فوزية شقيقة الملك فاروق على محمد رضا بهلوي ولي عهد إيران.

وكان الأمير محمد رضا قد شاهد الأميرة فوزية في سويسرا عام ١٩٣٧ عندما سافرت الأسرة في رحلتها إلى أوربا بعد وفاة الملك فؤاد، فأعجب بها جدًّا وتمنى أن تكون زوجته، وكان رضا بهلوي وشقيقته التوأم الأميرة أشرف يدرسان في أهم مدرسة بلوزان في سويسرا، يدرس فيها الأمراء والأميرات من كل أنحاء العالم وهي مدرسة «لو روزي». وقد شاهد الأمير رضا بهلوي الأميرة فوزية لأول مرة في إحدى الحفلات أثناء وجودها في سويسرا في نفس العام، بالتحديد في حفل عيد ميلاد الأمير ألبرت ولي عهد بلجيكا، وكان الحفل يضم نخبة من الأمراء والأميرات الشباب ممن يدرسون في سويسرا، وعندما وقعت عين رضا بهلوي على الأميرة فوزية بهرته بجمالها؛ حيث اقترب منها وعرفها بنفسه وعندما طلبها للرقص معه اعتذرت بأدب شديد واحترمت وجود شقيقها فاروق الذي حيا ولي عهد إيران ودعاه إلى مائدته. لم تنزل عين ولي عهد إيران عن الأميرة فوزية، فقد كانت شديدة الجمال أشبه بممثلات السينما مع قدر أكبر من الملامح الأرستقراطية. شعرها الأحمر يزين وجهها الصغير؛ حيث ملامحها الدقيقة تبرز فوق بشرتها البيضاء المشربة بالحمرة وعيناها واسعتان لونهما أزرق صافٍ كأنها سنو هوايت. شعرت الأميرة بالحرج أمام نظرات الأمير الشاب فخرجت من الحفل قبل أن ينتهي، وعندما عادت إلى مصر لم تتذكر أي شيء مما حدث حتى وصلتها بعد بضعة أشهر باقة من زهور الأوركيد عليها بطاقة تحمل الأمنيات السعيدة مكتوبة باللغة الفرنسية بإمضاء محمد رضا بهلوي.

فقد جمع الأمير محمد رضا بهلوي كل المعلومات عن الأميرة المصرية الجميلة وعرف تاريخ ميلادها، وأرسل لها الزهور يوم عيد ميلادها في شهر نوفمبر، أي بعد ثلاثة أشهر من أول لقاء بها.. (التفاصيل ذكرتها الأميرة أشرف بهلوي شقيقة الشاه في كتابها «وجوه في المرآة»).

> «عندما أنهى رضا بهلوي دراسته في سويسرا وعاد إلى إيران، تم تنصيبه بشكل رسمي وليًّا للعهد ففاتح أباه محمد بهلوي برغبته في الزواج من الأميرة فوزية بنت الملك فؤاد وشقيقة الملك فاروق ملك مصر، وعندما فكر رضا بهلوي ملك إيران في الأمر، رحب بالفكرة وبدأ في تنفيذها بأن أرسل رسولًا إلى الملك فاروق ليفاتحه في الأمر، لكن الملك فاروق لم يجبه على الطلب وترك الأمر معلقًا عدة أشهر.
>
> كانت إيران عام ١٩٣٨ دولة ما تزال تكافح من أجل الخروج من ظلام العصور الوسطى، لم تكن دولة غنية ولم يكن البترول قد ظهر فيها بعد، وكان رضا بهلوي ملك إيران رجلًا عسكريًّا وصل إلى الحكم على أسنة الرماح ليعتلي عرش كوشر أي مملكة بيرجيا أو فارس، وكان ميالًا في اتجاه هتلر وحلفائه عن إنجلترا وحلفائها، وكانت بلاده تعاني من القلاقل والانقلابات في مناطق عديدة نظرًا لاقترابها من روسيا الشيوعية، وبالتالي فقد وجد الأب رضا بهلوي في فكرة زواج ابنه محمد ولي العهد من أميرة من بيت عريق كبيت محمد علي، وشقيقة لملك أهم دولة في الشرق الأوسط مثل مصر يعتبر تدعيمًا له وفرصة كبيرة يضمن بها لابنه حليفًا قويًّا أمام أي تقلبات سياسية».
>
> **(وجوه في المرآة - أشرف بهلوي)**

هكذا فكر ملك إيران (لم يكن لقب إمبراطور متداولًا في ذلك الوقت)، ولكن ما الذي يدفع ملك مصر إلى أن يوافق على ذلك الزواج؟ وما هي الفائدة التي ستجنيها مصر، أو على الأقل ملكها، من زواج أجمل بنات أسرة محمد علي من ولي عهد إيران؟

كان صناع السياسة في القصر وعلى رأسهم علي باشا ماهر وأحمد حسنين باشا يخططون لاستيلاء الملك فاروق على السلطة في البلاد وإزاحة حزب الأغلبية «الوفد» وزعيمه النحاس باشا، كي ينفرد رجال القصر بالحكم وتتقلص السلطة في يد الملك وحده، وكان هذا الصراع على السلطة قد دفع مهندسي السياسة في القصر إلى استغلال شعبية الملك فاروق ونجاحه في الاستحواذ على مشاعر الشعب في

وقت قصير في أن يقنعوا الملك فاروق بضرورة إحياء فكرة الخلافة الإسلامية على يديه فيصبح هو أمير المؤمنين فاروق الأول، خاصة بعد أن أصبحت تركيا دولة علمانية، كان فاروق يبلغ من العمر وقتها ثمانية عشر عامًا فقط وأمام إغراءات ثعالب السياسة في القصر استحوذت الفكرة على رأسه وأصبح مهووسًا بها، فبدءوا في التخطيط لها تخطيطًا محكمًا؛ حيث كلمة الدين أقوى من كلمة الديمقراطية ووجود ملك هو خليفة للمسلمين يعني أن تطاع أوامره طاعة عمياء فهو المنفذ لإرادة الله وتعاليم دينه الحنيف، وبالتالي لن تكون هناك حاجة لا إلى أحزاب ولا إلى حزب أغلبية ولا حتى إلى مجلس للنواب، وهذه هي حيلة يتخذها صناع السياسة للسيطرة التامة على الشعب، وبالتالي ستتم تصفية حزب الوفد إلى الأبد. كانت الفكرة ذكية وكان الهدف منها توسعة نفوذ وسيطرة الملك على الحكم بشكل مطلق، رغم أن الملك الصغير لم يكن قد تغلغل في أمور الدين، ولم يكن يرغب في الحكم الديني بقدر رغبته في حمل اللقب كأمير للمؤمنين، وحتى يتم ذلك بدأ الشيخ المراغي شيخ الأزهر في الدعاية للملك وكيف أنه ورع لا يفوته فرض، وأنه يضع أمام عينيه إرادة الله الذي جعله ملكًا في هذه السن الصغيرة كي يرعى شعبه وينفذ تعاليم الدين الحنيف، وكان الشيخ المراغي شيخ الأزهر يخطب في الناس كل جمعة مؤكدًا أن مصر قد انتهت من كفاحها السياسي بعد معاهدة ١٩٣٦ ولم يبقَ أمامها إلا أن تحقق زعامتها على دول الشرق الإسلامي على يد مليكها صاحب الجلالة الملك فاروق خليفة المسلمين.

وبدأ الجميع يضفون على الملك فاروق ألقابًا مثل الملك الصالح المؤمن التقيّ حامي حمى المسلمين، كما بدأ الملك يظهر في صلاة الجمعة ليؤم المصلين، أو أن يقدم التبرعات لخدمة المساجد، كما كان يكثر من المشاركة في الاحتفالات الدينية مثل رأس السنة الهجرية، وذكرى الإسراء والمعراج والمولد النبوي الشريف وليلة القدر، إلى آخر تلك الاحتفالات التي لم تكن واردة في أجندة القصر منذ عهد محمد علي، وكان الملك فاروق أول من استن عادة الموائد الرمضانية لإطعام الفقراء وكان يطلق عليها اسم «الموائد الملكية» التي كانت تقام أمام قصر عابدين، وكان الملك يفتتحها مع الشيخ المراغي ورئيس الوزراء مع بداية الشهر الكريم.

كانت فكرة أن يصبح الملك فاروق خليفة للمسلمين مسيطرة تمامًا على عقله، وبالتالي عندما جاءه رسول من إيران يعلن عن الرغبة السامية لارتباط ولي العهد

الإيراني بالأميرة فوزية لمعت الفكرة في رأسه واستشار الملك فاروق رجال قصره الذين نبهوه إلى أن مصر دولة سنية وإيران دولة شيعية، وهناك مخاوف من أن يثور السنة على هذا الزواج، لكن الشيخ المراغي أكد له أن هذا الزواج سيوحد بين السنة والشيعة لما فيه خير لصحاح الدين ولا غضاضة من التزاوج بين المذهبين.. وبالتالي فإن هذا الزواج سيضمن للملك فاروق أصوات الشيعة في العالم إذا ما طرح موضوع مبايعته كخليفة للمسلمين.

على الجانب الآخر كانت إنجلترا ترى أن من مصلحتها اقتراب مصر من إيران وتحييدها حتى لا تنضم إلى ألمانيا؛ حيث كانت الحرب العالمية الثانية على الأبواب، هكذا فكر الملك فاروق في مشروع زواج شقيقته الأميرة فوزية بولي عهد إيران؛ حيث بحث الأمور من كل جانب إلا جانب والدته الملكة نازلي؛ حيث كان مترددًا في مفاتحتها في الموضوع حتى شجعه بعض رجال القصر على أن شقيقته ستكون ملكة وستعتلي عرش إيران وتصبح إمبراطورة لأكبر بلد إسلامي في القاهرة.

كانت كل تلك الأفكار تدور في رأس الملك فاروق قبل أن يطلب مقابلة أمه الملكة نازلي؛ حيث حاول بكل الطرق أن يمهد لها فكرة الزواج، فأخذ يحدثها عن الخلافة الإسلامية وضرورة عمل جبهة مع دول أخرى لتكون مصر في مركز قوي أمام إنجلترا، إلى آخر الموضوعات السياسية التي لم تكن الملكة نازلي تهتم أو تفكر فيها، كانت الملكة مندهشة من كلام ابنها، فقد كانت المرة الأولى التي يتحدث معها في السياسة، حتى بدأ يتكلم عن زواج فوزية لولي عهد إيران، وهنا انقبض صدر الملكة نازلي وصرخت بصوت مرتفع: «إيران»؟

كانت الملكة نازلي لا تطيق فكرة ابتعاد أولادها عنها، وكانت الأميرة فوزية أقرب بناتها إليها، فكيف ستتزوج وهي في هذه السن الصغيرة (كانت الأميرة فوزية لم تبلغ بعد السابعة عشرة)، وكيف تتركها لتعيش بعيدًا عنها في دولة أخرى تفصلهما آلاف الأميال؟

وقفت الملكة نازلي في مكانها وقالت بلهجة قاطعة: لا، لا يمكن أن أوافق على ذلك. وعلى مدى ساعة كاملة حاول الملك فاروق أن يقنع والدته بأهمية أن تكون أخته الأميرة فوزية ملكة، بل إمبراطورة على إيران، وكيف أن هذه الخطوة ستعزز مكانته بين الدول الإسلامية وتتيح له الفرصة ليكون في يوم ما خليفة المسلمين، كما كان والده الملك فؤاد يحلم.

كان الملك يحاول بكل الطرق أن يسترضي والدته وأن يسوق كل الحجج كي يقنعها بأن توافق على الزواج، بينما كانت الملكة في حالة ثورة عارمة تتحرك في أرجاء جناحها الخاص بعصبية شديدة، وكانت في غاية الانفعال وهي تعنف ابنها الملك على مجرد طرح الفكرة، هل من المعقول أن تزوج الأميرة فوزية التي تعتبر من أجمل نساء العالم من أمير لدولة فقيرة ما تزال تحاول الخروج من العصور الوسطى؟ كانت كلمات الملكة قوية، وكان الملك يصمت أمام ثورتها فلا يتكلم، فقد كان يعرف أن شقيقته الأميرة فوزية من أجمل وأغنى البنات في العالم، فقد كان والدها الملك فؤاد يخصها بعاطفة كبيرة، رغم أنه كان يتمنى حين ولدت أن تكون ولدًا، لكنه كان يدللها كثيرًا وينعم عليها بكثير من الهدايا في كل مرة يحتفل القصر بعيد ميلادها، حتى إن ثروتها في مصر من أراضٍ وأطيان إلى جانب رصيدها من المجوهرات كان يفوق ما لدى أعظم أميرة في العالم.

اقتربت الملكة نازلي من ابنها، وقالت بصوت خافت: إن إيران دولة شيعية ومصر دولة سنية، فكيف سيخدم الزواج عرشك؟

كانت الملكة نازلي ترفض الفكرة تمامًا، بل وترفض حتى أن يطرح الموضوع على الأميرة فوزية، حتى فاجأها ابنها الملك بأن الأميرة فوزية نفسها ميالة إلى هذا الزواج، وأن ولي عهد إيران كان قد أرسل لها باقة من زهور الأوركيد التي تحبها يوم عيد ميلادها ومعها بطاقة ما تزال الأميرة فوزية تحتفظ بها. وهنا صمتت الملكة نازلي وجلست على أقرب مقعد ونظرت إلى ابنها نظرة شك، وقالت: إذن يجب أن أتحدث إلى فوزية بنفسي.

كانت الملكة نازلي ترفض فكرة زواج ابنتها وسفرها بعيدًا عنها إلى دولة مثل إيران، فقد كانت تعرف قسوة الحياة بين جدران القصور، وتعرف أيضًا أعباء السلطة وضغوط الحكم، وكيف أن الملكة تكون دائمًا محط أنظار كل من في القصر كأنهم يعدون عليها أنفاسها، فتعيش محاصرة مراقبة من الجميع لا تنعم بلحظة حرية أو لحظة سعادة طوال الوقت، يضاف إلى ذلك اختلاف العادات والتقاليد بين مصر وإيران، فلا يكفي أن يكون ولي العهد متعلمًا تعليمًا أوربيًّا، فقواعد القصور الإسلامية ما يزال يحكمها المنطق الإسلامي القديم؛ حيث تفرض على الملكة كثير من القيود تمنعها من الاستمتاع بحياتها فتعيش حبيسة جدران قصرها، وقد عاشت هي تلك الحياة في قصر الزعفران قبل أن يولد ابنها الملك فاروق وقبل أن يطور الملك فؤاد

نظام البلاد الملكي في مصر، وفوق كل ذلك أن إيران لا تتكلم اللغة العربية وابنتها لا تعرف اللغة الفارسية فكيف سيتفاهم العروسان؟

كل هذه الحقائق وضعتها الملكة نازلي أمام ابنتها وهي تناقشها في موضوع زواجها من ولي عهد إيران. كانت الملكة تحاول أن تخبر ابنتها بكل المحاذير السابقة وهي مشفقة عليها من تجربة السفر إلى دولة تختلف ثقافيًّا وحضاريًّا عن مصر، لكن الأميرة فوزية بدت وكأنها لم تسمع كلمة واحدة من كلمات أمها فقد كانت ميالة لقبول الفكرة.

فهل كانت الأميرة فوزية في حاجة إلى لقب آخر ومجد آخر، أم أنها كان مثل كل البنات الصغيرات تفرح بفكرة الزواج دون أن تعي مسئولياته ومشاكله؟ وهل كانت موافقتها على الزواج من ولي عهد إيران بسبب ضغوط شقيقها الملك فاروق الذي أغراها بأن تكون ملكة على إيران؟

كانت شخصية الأميرة فوزية من الشخصيات المحببة الرقيقة تمتاز بالعمق وبعد النظر، كانت قليلة الكلام تستمع أكثر مما تتكلم، وكانت لديها قدرة كبيرة على فهم الأشخاص والحكم عليهم بنظرة أو كلمة واحدة، وفوق كل ذلك كانت أكثر بنات الملكة نازلي حنانًا ورقة، لا تحتمل أن ترى إنسانًا غير سعيد، وكانت قريبة من الملك فاروق الذي كان يدللها ويناديها: (وزي) وكان دائمًا يراها زوجة لملك أو إمبراطور، فقد كانت بالفعل تحمل سمات الكبرياء والاعتزاز بالنفس.

فهل كانت موافقة الملك فاروق على زواجها من ولي عهد إيران أنه يريدها في أعلى مكانة كملكة أو إمبراطورة، أم أن الزواج كان بالنسبة إليه استكمالًا لخطته كي يصبح هو خليفة المسلمين؟

الحقيقة أن الملك فاروق لم يضغط على أخته في موضوع الزواج، ولو أن الأميرة فوزية كانت قد أظهرت قدرًا من التردد في قبول الفكرة ما تحمس الملك فاروق ووافق عليه، فقد كانت شقيقته أغلى عنده من أي أوهام عن الخلافة أو السياسة، كانت الملكة نازلي تعرف مشاعر ابنها فاروق تجاه شقيقته، ولولا ثقة الملكة نازلي في محبة ابنها لأخته لكانت قد تصورت أنه يضحي بها في سبيل طموحاته السياسية، لكن الأمر كان مغريًا لجميع الأطراف في أن تصبح شقيقة ملك مصر إمبراطورة على إيران وتصبح الملكة نازلي أمًّا لملكين.

ورغم إغراءات الفكرة ظلت الملكة نازلي مترددة، لا تطيق فكرة ابتعاد ابنتها عنها،

ولم يكن أمام الملك فاروق إلا أن يرسل لها أحمد باشا حسنين ليقنعها، فقد كان يعرف قدرة حسنين على الإقناع ويعرف أيضًا أن والدته تثق كل الثقة في كلامه.

كانت الملكة محاصرة من جميع الاتجاهات، وأمام إلحاح الجميع وانبهارهم بموضوع أن تصبح فوزية ملكة على إيران وافقت الملكة نازلي على إعلان الخطبة، وعلى الفور أعلن القصر الملكي خطبة صاحبة الجلالة الأميرة فوزية على ولي عهد إيران، وتناقلت وكالات الأنباء الخبر ونشرت الصحف العالمية أخبار الخطبة مصحوبة بصورة للعروسين، وبدأت أخبار الاستعدادات بين مصر وإيران لإتمام الزفاف تتوالى؛ حيث احتلت صورة العروس أغلفة المجلات العالمية التي وصفتها بأنها فينوس الشرق، وأنها تملك نفس جمال وأناقة ملكات هوليوود، مثل أفا جاردنر وهيدي لامار ولكن على نمط أرستقراطي فريد. كانت العروس تبلغ من العمر عام ١٩٣٨ سبعة عشر عامًا فقط، وكان محمد رضا بهلوي ولي عهد إيران يبلغ تسعة عشر عامًا، وكان العالم على أبواب الحرب العالمية الثانية ولا أحد يعرف من قبل أين تقع إيران على خريطة العالم، ولكن أخبار زواج ولي العهد بالأميرة المصرية كان قد حقق الهدف ووضع إيران على الصفحات الأولى من الجرائد العالمية.

وبعد إعلان الخطبة أمر رضا بهلوي ملك إيران البرلمان الإيراني بأن يمنح الأميرة فوزية الجنسية الإيرانية. كان الرجل شديد الدهاء، فقد وضع احتمالات لعدم استمرار الزواج، وفي هذه الحالة سيكون أولاد الأميرة فوزية إيرانيين خالصين وليسوا نصف إيرانيين ونصف مصريين، وبالتالي لا تستطيع مصر أن تطالب الأميرة فوزية بأبنائها إذا ما وقع الطلاق، كما أن منح الجنسية الإيرانية للأميرة فوزية سيقطع كل صلتها بمصر وسيتعامل معها الجميع إذا ما أصبحت ملكة على إيران على أنها واحدة منهم وليست غريبة عن إيران. كان الرجل محنكًا يضع جميع الاحتمالات في الاعتبار، بينما القصر المصري لا يفكر إلا في الخلافة الإسلامية أو لقب الإمبراطورة الذي ستحصل عليه العروس.

بعد إعلان الخطبة رفعت مصر درجة العلاقات بينها وبين إيران إلى درجة سفير؛ حيث صدر الأمر الملكي بمنح يوسف باشا ذو الفقار والد جلالة الملكة فريدة مرتبة سفير لمصر في إيران.

وقد نشرت صحيفة النيويورك تايمز في ٨ مارس عام ١٩٣٩ خبر سفر يوسف باشا إلى طهران كي يتولى الإشراف على مراسم احتفالات زفاف الأميرة فوزية في طهران

حتى يتم عقد القران في القاهرة يوم ١٥ مارس؛ حيث ستسافر العروس إلى طهران بصحبة والدتها وشقيقاتها وبعض سيدات القصر الملكي المصري بعد عودتها من شهر العسل، كما أشارت الصحيفة إلى أن مصر تعتبر الدولة الوحيدة بعد إنجلترا التي رفعت علاقاتها بإيران إلى درجة سفير.

لم يكن أمام الملكة الأم نازلي إلا أن توافق على الزواج ولكن بشروط تصورت أنها قاسية؛ أولها أن يتولى بيت المجوهرات الشهير «فان كليف آند آرابل» تصميم تاج وعقد وأسورة وحلق للأميرة فوزية يزن الماس فيه خمسة وأربعين قيراطًا، وأن يوضع باسم الأميرة فوزية مبلغ من المال كمهر شرعي بقيمة مائتين وخمسين ألف جنيه ذهبية، وأن تقام الاحتفالات بالزفاف في القاهرة لمدة ثلاثة أيام ومثلهم في إيران، وأن تسافر هي إلى طهران بعد عقد القران للإشراف بنفسها على القصر الذي ستسكن فيه ابنتها، وحتى تكون في استقبالها بعد عودتها من رحلة شهر العسل. وبالطبع وافق رضا بهلوي على جميع الشروط، فقد كان زواج ابنه من الأميرة المصرية زواجًا سياسيًّا يحاول أن يضمن به لابنه حليفًا قويًّا مع دولة كبيرة مثل مصر.

وفي يوم ١٥ مارس عام ١٩٣٩، عقد القران الملكي على الطريقة الإسلامية بين صاحبة الجلالة الأميرة فوزية بنت فؤاد والأمير محمد رضا بهلوي ولي عهد إيران في قصر عابدين، وكان الشيخ مرتضى المراغي شيخ الأزهر هو الذي عقد القران بحضور جلالة الملك فاروق وكيلا عن شقيقته العروس، كما حضر علي باشا ماهر ولفيف من رجال القصر والأمراء من أسرة محمد علي، ووزعت الهدايا القيمة التي أحضرها العريس معه، فقد تسلم كل واحد من الأمراء الذين حضروا عقد القران سوفونير عبارة عن علبة صغيرة عليها صورة العروسين صنعها خصيصًا بيت المجوهرات «بوشورون»، كما قدم العريس هدية للملك فاروق وزوجته الملكة فريدة، عبارة عن علبة كبيرة مطعمة بالذهب تحمل شعار دولة إيران وعليها صورة العروسين ثمنها ألف جنيه إسترليني، كما قدم علبة مماثلة للملكة نازلي عليها صورة الأميرة فوزية محاطة بإطار من الذهب الخالص، وكان في هذه العلبة الشبكة التي صنعها «فان كليف آند آرابل»، وهي عبارة عن تاج وعقد وحلق وأسورة من الماس الأبيض مطعمة بالروبي الأحمر على ذهب عيار أربعة وعشرين، وعندما تسلمت الملكة نازلي شبكة ابنتها تساءلت: أين المهر؟

وقبل أن يبدأ حفل العشاء الذي كان الملك فاروق والملكة فريدة قد دعوا فيه كل

أمراء وأميرات العائلة للاحتفال بعقد قران الأميرة فوزية، طلبت الملكة نازلي مقابلة ابنها الملك فاروق لتسأله عن المهر، ولم تكن لدى الملك فاروق إجابة عن سؤال والدته: أين مهر شقيقتك فوزية؟

كان المفروض أن يقدم المهر مع الشبكة، فلماذا أخل العريس بشروط الزواج؟

ثارت ثورة الملكة نازلي واستدعت كبيرة وصيفاتها وأمرتها أن تذهب إلى جناح الأميرة فوزية وتخبرها بأن الحفل سيتأخر ساعة عن موعده، وطلبت من ابنها أن يستدعي رضا بهلوي وابنه إلى مكتبه ويفاتحهما في موضوع المهر؛ حيث قالت بلهجة حازمة: إذا لم يدفع المهر فسيعلق الزواج ولن تسافر الأميرة فوزية إلى أي مكان.

كان الملك فاروق في موقف لا يحسد عليه، وأمام ثورة الملكة وإصرارها، استدعى الملك علي باشا ماهر والشيخ المراغي ليعرض عليهما الأمر؛ حيث أكد له الشيخ المراغي أن المهر مذكور شرعًا في العقد ولا غبار في أن يتسلمه وكيل العروس أي الملك فاروق، وإذا لم يدفع يجب على وكيل العروس أن يطالب به، وتدخل علي باشا ماهر وطلب من الملك أن يتولى هو الموضوع حتى لا تحدث أزمة بين الطرفين وحتى يمنع الحرج عن الملك فاروق. وعلى الفور طلب علي باشا مقابلة مندوب ملك إيران وفاتحه في موضوع المهر، وبعد نصف ساعة جاء المندوب يبلغه أن مهر صاحبة الجلالة الأميرة فوزية موجود في البنك المركزي الإيراني، وقدم له الأوراق التي تثبت ذلك، وهنا أسقط في يد الجميع.

وعندما علمت الملكة نازلي بالأمر كادت تفقد الوعي، فقد شعرت أنها باعت ابنتها بلا ثمن وظلت تردد: البنك الإيراني؟ ولماذا لم يضع المهر في البنك الأهلي المصري؟ وصممت على أن الاحتفالات ستجمد إذا لم يأتِ العريس بمهر ابنتها(*).

بذل كل من الشيخ المراغي وعلي باشا ماهر جهدًا كبيرًا لتهدئة الملكة التي لامت ابنها الملك فاروق على كل ما حدث ولم تهدأ الملكة إلا عندما أقنعها علي باشا ماهر بأن المهر باسم الأميرة فوزية ولا يملك أحد أن يأخذ منه مليمًا بدون إذنها، وفي المستقبل يمكن أن تحول الأميرة هذا المبلغ إلى حسابها في أي مكان تريده.

كان علي باشا ماهر من الرجال المحنكين سياسيًّا، وكان يريد بأي طريقة إنقاذ

(*) القصة منشورة في صحيفة النيويورك تايمز يوم ١٧ مارس عام ١٩٣٩ تحت عنوان «الملكة الأم كادت تلغي زفاف ابنتها من ولي عهد إيران».

الزواج وإنقاذ موقف الملك فاروق الذي أصبح محرجًا، فقد استغل رضا بهلوي أبو العريس الموقف وتلاعب بشروط عقد الزواج ووضع الجميع أمام الأمر الواقع، كما كان يعرف أن ما قاله للملكة نازلي ما هو إلا تحصيل حاصل، فمهر العروس إذا لم يدفع قبل عقد القران فلن يدفع أبدًا. وبالفعل وكما سنرى فيما بعد لم تكن لدى الأميرة فوزية حتى بعد أن أصبحت إمبراطورة على إيران لم يكن لها أي صلاحية في التعامل مع أموالها أو مخصصاتها داخل أو خارج إيران، يضاف إلى ذلك أن الشبكة التي صنعها خصيصًا أشهر بيت للمجوهرات العالمية لم تكن باسم الأميرة فوزية، بل كانت باسم دولة إيران، أي أن هذه المجوهرات تعتبر من كنوز الدولة لا يستطيع أحد التصرف فيها، ومعنى ذلك أن حتى الشبكة لم تكن ملك الأميرة فوزية ولا بلدها مصر.

وقصة شبكة الأميرة فوزية قصة مثيرة خاصة أن الأميرة ظهرت بالعقد والتاج على أغلفة الصحف والمجلات الأجنبية، وكان العقد الذي ترتديه من أشهر قطع المجوهرات في العالم في ذلك الوقت، وهناك حادثة شهيرة لهذا العقد، فبعد قيام ثورة ١٩٥٢ جمع رجال الثورة كل المجوهرات الملكية وقاموا بمصادرتها على اعتبار أنها كنوز من أموال الدولة، وبالتالي فقد تمت مصادرة مجوهرات الأميرة فوزية بما فيها العقد الشهير الذي صنعه «فان كليف» كجزء من الشبكة التي قدمها زوجها محمد بهلوي عند زواجها منه. وفي عام ١٩٦٥ نشرت صحيفة «الديلي تلجراف» اللندنية خبر محاولة إحدى بنات أحد أعضاء مجلس الثورة المصري بيع عقد الأميرة فوزية الشهير، إلا أن المحل الذي تمت فيه محاولة البيع عرف أن العقد من صنع «فان كليف آند آرابل»، فقام بالاتصال بمحل فان كليف لتقييمه؛ حيث جاء مندوب فان كليف وفحص العقد ثم طلب التحفظ عليه لأنه من ممتلكات دولة وليس من ممتلكات أشخاص. وبالفعل تحفظ البوليس الإنجليزي على العقد وتم الاتصال بدولة إيران المالك الأول له؛ حيث حضر السفير الإيراني واتصل بوزارة خارجيته التي أمرت بالتحفظ على العقد وإرساله فورًا إلى إيران على اعتبار أنه ملك للدولة الإيرانية وليس ملكًا للأميرة فوزية ولا للدولة المصرية. وبالفعل تم التحفظ على العقد وتم إرساله إلى طهران بعد ذلك، ولم تجد السفارة المصرية مفرًّا إلا أن تعتذر عما حدث. أما بقية الشبكة التاج والأساور والحلق، فيقال إنهم من ضمن مقتنيات متحف قصر المجوهرات بالإسكندرية، لكن الحقيقة أن مجوهرات الأميرة فوزية بالذات لم تعرض قط ضمن معروضات المتحف وبالتالي لم يرها أي شخص من زواره.

ونعود إلى ليلة زفاف الأميرة فوزية من ولي عهد إيران، فقد أنقذ علي باشا ماهر الموقف، وهدأت الملكة نازلي رغم شعورها بالهزيمة أمام الذئب الإيراني، وبدأ الحفل الذي أقيم في القاعة الكبرى بقصر عابدين، وذهب الملك فاروق إلى جناح شقيقته العروس الأميرة فوزية ليصحبها إلى القاعة الملكية وعلى ملامح وجهه غضب مكتوم من الأحداث التي سبقت الحفل، لكنه لم يحاول أن يظهر ذلك حتى لا يفسد فرحة شقيقته يوم زفافها. كانت الأميرة فوزية ترتدي فستانًا صنع خصيصًا في باريس وترتدي تاجها وعقدها الشهيرْين، كانت بالفعل من أجمل الأميرات وأكثرهن أناقة وكبرياء، وهنا شعر الملك فاروق لأول مرة أن والدته الملكة نازلي كانت على حق، فقد باع شقيقته بلا ثمن، قايض عليها بالأوهام، فلم تكن إيران في ذلك الوقت بالحليف القوي، ولم يكن حتى العريس محمد بهلوي ذا قيمة تذكر وسط الأمراء، ولم يساند الزواج الملك فاروق في تنفيذ فكرته الوهمية كي يصبح خليفة المسلمين، فقد ماتت الفكرة ولم تنفذ ودخل العالم في أتون الحرب العالمية الثانية وتناسى الملك ورجال القصر الموضوع تمامًا، ولم يبقَ من موضوع الزواج سوى الأميرة فوزية التي عانت أشد المعاناة في تلك الزيجة التي انتهت بالطلاق ولم تجنِ منها سوى العذاب بعد أن عادت وبعد أن أجبرت على ترك ابنتها الوحيدة الأميرة شاهيناز في إيران، والتي ظلت محرومة منها أكثر من عشر سنوات، كما سنشرح فيما بعد.

أمسك الملك فاروق بيد شقيقته العروس حتى القاعة الملكية بقصر عابدين وقلبه مليء بالحزن والندم، بعد أن تأكد من المصير المظلم الذي دفع شقيقته إليه، كانت الأميرة فوزية مثل أي فتاة صغيرة سعيدة بيوم زفافها لا تدري ماذا حدث في أجمل يوم في حياتها ولا تعرف شيئًا عن المجهول الذي ينتظرها، وعند باب القاعة الملكية تقدم الأمير محمد رضا بهلوي ليصطحب عروسه إلى مكان الحفل.

اكتمل الجمع في حفل العشاء بالقاعة الملكية لكن الملكة نازلي لم تظهر، وكان الملك فاروق في غاية الاضطراب فقد كان يعلم أن والدته من أشد النساء عنادًا، لكن كبير الياوران طمأنه بأن الملكة أمامها دقائق وتظهر، لكنها تأخرت أكثر من خمس عشرة دقيقة، وكان هذا أقل رد منها على ما فعله والد العريس.

ولا أحد يعلم هل تأخرها كان متعمدًا، أم أنها أخذت هذا الوقت كي تلملم شتات نفسها بعد كل هذا الغضب وهذه الثورة التي اعترت ليلة زفاف ابنتها، وعندما ظهرت في الحفل كانت ترتدي تقريبًا كل مجوهراتها حتى تؤكد لملك إيران وزوجته أنها

ليست في حاجة إلى أموالهم، ومن يرَ صور الملكة نازلي في حفل زفاف الأميرة فوزية فسيجد ملامح الغضب ما تزال مطبوعة على وجهها رغم محاولتها الابتسام.

استمرت الاحتفالات ثلاثة أيام سافر بعدها العروسان إلى باريس، وبدأت الملكة نازلي في الاستعداد للسفر إلى إيران لترتيب احتفالات استقبال ابنتها بعد عودتها من شهر العسل، وكان يوسف باشا ذو الفقار هناك في إيران يقوم بعمل الترتيبات الخاصة باستقبال الملكة نازلي والعروسين، لكن الأوضاع في إيران كانت في غاية السوء، فقد أرسل يوسف باشا برقية مطولة إلى الملك فاروق يخبره بسوء الأوضاع؛ حيث إن القصر الذي ستعيش فيه الأميرة فوزية أشبه بقصور العصور الوسطى، وإن الجناح المخصص للأميرة غير صالح للإقامة؛ حيث إن المياه الساخنة غير موصلة به، إلى آخر المعلومات التي تعني أن الأميرة ستعيش في مكان لا يليق بها على الإطلاق. وعلى الفور أرسل الملك برقية عاجلة إلى يوسف باشا، يخبره بأنه سيرسل على وجه السرعة ثلاثة من المهندسين الإيطاليين لعمل جناح يليق بالأميرة فوزية وجناح للملكة نازلي، وأكد عليه ألا يشير بعد ذلك إلى سوء الأوضاع حتى لا تنزعج جلالة الملكة نازلي. وبالفعل سافر طاقم يضم ثلاثة من المهندسين الإيطاليين وعددًا من العمال لصناعة الستائر والمفروشات، كما تم شحن أثاث من قصر رأس التين وقصر عابدين لتجهيز جناح العروس.. (وجوه في المرآة ـ أشرف بهلوي).

وتقول الأميرة أشرف في مذكراتها:

«إن الحياة في القصور المصرية مختلفة تمامًا عن الحياة في القصور في إيران، ففي مصر تعتبر القصور قطعة من القصور الفرنسية؛ حيث التحف في جميع الأرجاء والسجاد الحريري يفترش الأرضيات بمساحات كبيرة، وأعمدة الرخام تحمل أقواسًا مذهبة بخطوط فنية دقيقة، إلى جانب اللوحات الفنية لأشهر رسامي العالم وقطع الأثاث منتقاة بعناية تنم عن ذوق رفيع، بينما القصر الإيراني له خصوصيته؛ حيث الأعمدة الذهبية تعلن عن القوة والثراء وليس الفن أو الجمال؛ وحيث الغموض والسحر الشرقي يضفيان على المكان قدرًا من الظلمة والرهبة. أما عن البلاط الملكي فهناك فروق جوهرية بين القاهرة وإيران، فبالبلاط المصري يتكون من نخبة منتقاة من الأرستقراطية والأنتلجنسيا رفيعة المستوى إلى جانب الفنانين الفرنسيين والإيطاليين والأمراء والأميرات الذين يعرفون قواعد البروتوكول ونظام الاستقبال، لم يكن كل ذلك موجودًا في طهران قبل أن يتولى شقيقي محمد رضا بهلوي حكم البلاد، فقد كانت

إيران دولة فقيرة ليس لها موارد تعاني من الفقر والجهل، ورجال البلاط المحيطون بأبي وكانوا من المؤيدين له من الذين يعرفون السياسة ولا يعرفون البروتوكول؛ حيث لا يعرف القصر الإيراني الحفلات المبهرة ولا الاحتفالات الملكية التي شاهدتها في قصر عابدين أو قصر القبة عندما تقدم أخي لخطبة الأميرة فوزية، حتى إنني خجلت أنا وشقيقتي شمس من الأزياء التي كنا نلبسها رغم أنها كانت من سويسرا، أمام أزياء الملكتيْن نازلي وفريدة، أو أزياء الأميرتيْن فوزية وفايزة، لم يكن في القصر الإيراني برنامج للحفلات، فقد كان البلاط يكتفي باستضافة إحدى الفرق المحلية لعزف بعض المقطوعات في المناسبات المختلفة، لكن الحفلات في القصور المصرية كانت تعد وفقًا لجدول دقيق؛ حيث كانت أشهر فرق الأوركسترا الأوربية والعالمية تأتي للعزف في تلك الحفلات، وكانت الأميرات والأمراء يرقصون على أنغامها رقصات التانجو، لم يكن كل ذلك موجودًا لدينا ولم تكن الأميرة فوزية على استعداد لتقبل الأوضاع في إيران».

ويتبين من الفروق التي وصفتها الأميرة أشرف بهلوي في مذكراتها بين الدولتين إيران ومصر أن الأميرة فوزية عاشت في إيران في مناخ مختلف تمامًا عن الذي اعتادت عليه، حتى إنها طلبت من والدتها إرسال طباخين من مصر؛ لأنها كانت تعاني من حرارة الطعام الإيراني المليء بالبهارات والتوابل. إذن عاشت الأميرة فوزية في بلد يختلف تمامًا عن بلدها بعيدًا عن أهلها، بلد لا تعرف لغته (كانت الأميرة فوزية تتحدث مع زوجها باللغة الفرنسية)، ولا تفهم طبائعها فعاشت معزولة لا صديق لها ولا رفيق، يضاف إلى ذلك وجود ثلاث نساء من أقوى النساء حول الشاه؛ أمه الملكة تاج الملوك وكانت معروفة بحدة الطباع؛ وشقيقته شمس؛ والأخطر شقيقته التوأم أشرف التي كانوا يسمونها النمر الأسود أو The Black Panthe.

ونعود إلى الأيام الأولى لوصول العروسيْن إلى طهران، فقد وصلت الملكة نازلي إلى طهران بصحبة بناتها الأميرات فايزة وفايقة وفتحية ومعها عدد من سيدات الحاشية للإشراف على حفلات استقبال العروس، وكانت الملكة قد حملت معها ملابس ومجوهرات ابنتها والهدايا التي قدمها لها أمراء أسرة محمد علي بمناسبة الزفاف. وبعد ثلاثة أيام وصلت ابنتها من رحلة شهر العسل وأقيمت الاحتفالات على الطريقة الإيرانية؛ حيث وصفت الأميرة أشرف وصول العروسين في مذكراتها بأنهما كانا سعيديْن جدًّا وقريبيْن إلى بعضهما بعضًا كل منهما يمسك بيد الآخر.

بالطبع كانت الأميرة فوزية سعيدة في البداية، فقد كانت صغيرة السن لم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها، حتى عاشت وسط التقاليد الإيرانية الصارمة وواجهت الحقيقة المرة في قصر المرمر الإيراني.

عشرة أيام قضتها الملكة نازلي في طهران، وعندما شاهدت الأوضاع هناك أمرت سيدات الحاشية بجمع الهدايا والتحف التي تخص الأميرة فوزية والتي أحضرتها معها للعودة بها مرة أخرى إلى مصر، فقد كانت الملكة تعرف أن ابنتها لن تلتفت إلى تلك الهدايا الثمينة وأن القصر الإيراني هو الذي سيستولي عليها، كما عادت أيضًا بكل مصوغات الأميرة خوفًا من ضياعها. وعندما عرف والد العريس رضا بهلوي ذلك فيما بعد أمر بالتحفظ على شبكة الأميرة فوزية في خزينة القصر، وبالتالي لم تكن لدى الأميرة فوزية أي مجوهرات ترتديها في الاحتفالات الرسمية.

كانت الملكة نازلي من الشخصيات القوية العنيفة، لا تحب الهزيمة وأمام عنادها تحطمت أشياء كثيرة، فلم تستطع أن تقيم جسورًا من الود بينها وبين عائلة زوج ابنتها، بل كانت فظة إلى حد ما مع الملكة تاج الملوك حماة ابنتها؛ مبررة ذلك أن كليهما لا يستطيع الحديث بنفس اللغة، وكانت تصفهم بأنهم (نوفو ريش) أي أنهم محدثو نعمة، وكانت تتعمد أن تتحدث باللغة الفرنسية التي تفهمها بالطبع الأميرتان أشرف وشمس شقيقتا الشاه، فتنتقد البروتوكول الإيراني وتحاول لفت نظر من حولها بالأخطاء التي تقع أثناء تقديم الطعام أو أثناء حفلات الاستقبال، فقد كانت تحاول أن تشعر أم الشاه «الملكة تاج الملوك» وشقيقتيْه بأنهن أقل منها وأن ابنتها في مكانة أرقى.

على العموم مكثت الملكة نازلي وحاشيتها عشرة أيام في طهران، وعندما عادت إلى مصر كانت في شدة الإعياء والتعب والحزن على مصير أجمل بناتها وأكثرهن رقة وذكاء، وظلت حبيسة الفراش أكثر من شهر تبكي ليل نهار على حظ ابنتها العاثر، وتلوم ابنها الملك فاروق الذي قذف بشقيقته إلى التهلكة.

بعد الزواج بعام واحد أي في عام ١٩٤٠ أنجبت الأميرة فوزية ابنتها الأولى شاهيناز، وهو اسم إيراني معناه صفاء القمر، وبعد عام آخر أي ١٩٤١ أي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أرغمت قوات الحلفاء (إنجلترا وفرنسا وروسيا) الملك الأب رضا بهلوي على الرحيل عن العرش والتنازل لابنه محمد بهلوي ليعتلي عرش إيران، وتم نفي الأب رضا بهلوي إلى جوهانسبرج في جنوب إفريقيا، ورغم الأفراح التي

عمت القصر بتتويج محمد بهلوي ملكًا على إيران وتتويج زوجته الأميرة فوزية ملكة أيضًا، فإن نساء العائلة كن يعتبرن قدوم الأميرة فوزية إلى إيران شؤمًا عليهن.

وأمام مهام الحكم أصبح محمد رضا بهلوي مشغولًا بالسياسة متباعدًا عن زوجته التي ساءت حالتها مما استدعي عودتها إلى مصر عام ١٩٤٢ بعد ثلاث سنوات لأول مرة منذ زواجها بحجة العلاج ورؤية شقيقاتها.

ظلت الأميرة فوزية في مصر سبعة أشهر حتى استعادت صحتها، وكانت الملكة نازلي ترفض عودتها، ولكن إلحاح الشاه على ضرورة عودة زوجته، وأمام رغبة الأميرة في رؤية ابنتها عادت مرة أخرى إلى طهران، لكنها كانت تأتي إلى القاهرة مرتين أو ثلاثًا في العام، فقد كانت تريد الابتعاد عن طهران بقدر الإمكان، حتى منعها زوجها عام ١٩٤٤ من السفر بإيعاز من أمه تاج الملوك وشقيقتيْه، فظلت الأميرة حبيسة في جناحها أكثر من عشرة أشهر حتى ساءت حالتها الصحية بشكل ملحوظ وامتنعت عن تناول الطعام حتى كادت تموت؛ الأمر الذي دفع زوجها إلى أن يرسل برقية إلى الملك فاروق يطالبه بضرورة مجيء الملكة نازلي إلى طهران على وجه السرعة.

تقول الأميرة أشرف بهلوي في مذكراتها:

> «لقد حاولت التقرب من زوجة أخي لكنها كانت منطوية باردة لا تظهر أي مشاعر تجاه أحد، كما أنها رفضت من اللحظة الأولى أن تتعلم اللغة الفارسية فكنا نتكلم معها بالفرنسية، وكانت أمي لا تعرف الفرنسية وبالتالي كنا نتجنب الحديث مع فوزية في وجود أمي حتى لا تغضب مما جعل فوزية تبدو وكأنها غير مهتمة بأحد. والأغرب من ذلك أنها كانت ترفض أن تقوم بأي مهام اجتماعية أو الظهور في الاحتفالات العامة حتى بعد أن أصبحت ملكة على إيران».

وتصف أشرف الأميرة فوزية بعبارة She was aloof cold fish أي باردة ومنعزلة، وتضيف الأميرة أشرف: لا أنكر أنني أحببتها كما أحبها أخي تمامًا.

ولهذه العبارة أبعاد مخيفة، فمن المعروف أن الأميرة أشرف مثلية، أي أنها تمارس العلاقات الخاصة مع النساء، فهل كان اقترابها أكثر من اللازم من الأميرة فوزية أحد أسباب الانهيار العصبي الذي أصيبت به الأميرة والذي كاد يودي بحياتها قبل أن ترحل عن إيران؟

لا توجد إجابة بالطبع عن هذا التساؤل، ولا أحد يمكن أن يكون قد عرف الأسباب

الحقيقية التي دفعت الأميرة فوزية وهي في الثالثة والعشرين من عمرها إلى الانهيار العصبي الحاد الذي كاد يودي بحياتها.

غير أن الأخبار التي وصلت إلى القاهرة قد أكدت على أن الأميرة فوزية كانت قد عوملت بقسوة شديدة قبل مرضها، وتم عزل وصيفاتها المصريات وحرسها الخاص، كما تم تحديد إقامتها في جناح مع حاشية إيرانية حتى انهارت صحتها.

وصلت أخبار سوء الحالة الصحية للأميرة فوزية إلى الملكة نازلي عام ١٩٤٥ وكانت الملكة في ذلك الوقت وسط المشاكل والخلافات الحادة بينها وبين ابنها الملك فاروق، فقد ساءت العلاقات بينهما في ذلك العام إلى حد لا يتصوره أحد، فقد كان الملك فاروق مجروحًا من تصرفات أمه الملكة نازلي وكانت هي في شدة الألم سوء تعامله معها، حتى إنها لم تكن تستطيع السفر إلى خارج مصر إلا بتصريح منه، كما كانت حالتها الصحية في انهيار مستمر بسبب التهاب الكلى الذي كان يسبب لها آلامًا مبرحة ولم تعد المسكنات التي كانت تتناولها تؤثر في وقف حدة الألم، ووسط كل هذه المشاكل تسوء حالة ابنتها الأميرة فوزية، فتضطر إلى السفر إلى طهران على وجه السرعة ومعها لفيف من الأطباء المصريين وابنتها الصغرى الأميرة فتحية التي لا تفارقها.

وصلت الملكة نازلي إلى طهران حيث كانت الأميرة فوزية على وشك الموت، فقد كانت ممتنعة عن الطعام أكثر من خمسة أيام، لا تتحدث إلى أحد تنساب الدموع من عينيها بلا توقف، وقد شخص الأطباء المصريون الذين ذهبوا إلى طهران حالتها بأنها تعاني من انهيار عصبي حاد ناتج عن صدمة شديدة.

مكثت الملكة نازلي في طهران عشرة أيام لم يغفل لها جفن وهي جالسة مع ابنتها الأميرة فوزية لا تفارق حجرتها حتى استردت الأميرة فوزية عافيتها، واستطاعت بصعوبة أن تأكل وأن تتحرك في حجرتها.

كانت الملكة نازلي تفكر طوال الوقت في الطريقة التي ستقنع بها الشاه كي يوافق على سفر ابنتها إلى القاهرة، وكان لا بد أن تتبع أسلوبا هادئا مع الشاه كي يوافق على سفر الأميرة فوزية إلى مصر كي تسترد عافيتها وتستكمل علاجها. والحقيقة أن الملكة نازلي كانت شديدة الذكاء هذه المرة؛ فقد طلبت مقابلة الشاه محمد رضا بهلوي زوج ابنتها وشكرته بالطبع على كرم الضيافة، ثم قامت بدعوته لحضور حفل زفاف الأميرة فايزة شقيقة زوجته، وكانت الأميرة فايزة قد أعلنت خطبتها قبل ذلك

بشهور قليلة على النبيل محمد علي رءوف أحد أقرباء والدها الملك فؤاد، وبالطبع اعتذر الشاه عن عدم تمكنه من الحضور لانشغاله بأعباء الحكم، لكنه وعدها بأن تذهب زوجته الإمبراطورة فوزية بدلًا منه. وهنا طرحت الملكة نازلي فكرة سفر الإمبراطورة معها حتى تسترد صحتها قبل حفل الزفاف لكن الشاه رفض سفرها، لكنه وعد الملكة نازلي بأن الإمبراطورة ستحضر فرح شقيقتها الأميرة فايزة الذي تحدد بعد شهرين.

كان الشاه يعرف أن زوجته لو سافرت إلى القاهرة فلن تعود إلى طهران أبدًا، لم يستطع رفض سفر زوجته لحضور حفل زفاف شقيقتها، يضاف إلي ذلك أنه كان قلقًا بالفعل على صحة زوجته التي كادت تموت أمام عينيه.

بدأت الملكة ومن يرافقها الاستعداد للرحيل عن طهران وقلبها حزين على ابنتها التي تعيش في شبه عزلة في مجتمع لا تنتمي إليه مع زوج ترك كل شيء في يد أمه وشقيقتيْه اللاتي يسيطرن على كل شيء فعاشت في تعاسة كادت تقضي عليها، أسيرة في قصر المرمر بعيدًا عن وطنها ممنوعة من الاتصال بأحد أو السفر لأي مكان، حتى فقدت الكثير من تألقها وجمالها وسحرها، وانهارت صحتها النفسية والجسدية فلم تعد لها أي رغبة في الحياة.

تركت الملكة نازلي ابنتها في إيران وعادت إلى مصر محطمة بعد أن لمست بنفسها تعاسة ابنتها والعذاب الذي تعانيه في حياتها، وفور عودتها طلبت مقابلة ابنها الملك وحكت له عن المأساة التي تعيشها شقيقته بسبب أطماعه وسوء تقديره للأمور، فقد وضعت اللوم عليه وعلى اختياره السيئ لزوج شقيقته، وهددته بأن لو حدث شيء للأميرة فوزية فعليه أن يتحمل المسئولية وسيكون هو الذي قتلها.

كان حديث الملكة مع ابنها شديد اللهجة، وكان يعرف أن حياة شقيقته في خطر، وأنها تعيش بعيدًا عنهم لا يدري ما الذي يمكن أن يحدث لها، كان على الملك فاروق أن يفكر في طريقة يحضر بها شقيقته فوزية فورًا قبل أن يصيبها أي مكروه، وبعد أسبوع من عودة الملكة نازلي من طهران أجرى الملك فاروق مكالمة تلفونية مع زوج شقيقته شاه إيران وشعر أن حالة شقيقته الإمبراطورة فوزية لم تتحسن، وهنا طلب الملك فاروق من شاه إيران ضرورة عودة الإمبراطورة وابنتها إلى مصر لتكون تحت الإشراف الطبي حتى تسترد عافيتها، وتعود بعد ذلك إلى إيران. ووافق الشاه على سفر زوجته الإمبراطورة على شرط ألا تطول مدة إقامتها في مصر عن شهر

واحد، لكنه رفض سفر ابنتها معها، ووافق الملك فاروق الذي كان يريد عودة شقيقته بأي ثمن وبأسرع ما يمكن، وأرسل على الفور طائرة مجهزة بكل الاستعدادات الطبية إلى طهران كي تُقلَّ شقيقته إلى القاهرة.

وصلت الإمبراطورة فوزية إلى القاهرة عام ١٩٤٥ في حالة صحية ونفسية في غاية السوء وكان عمرها خمسة وعشرين عامًا فقط، حتى إن الملك فاروق كان قد تأثر جدًّا بالحال الذي وصلت إليه شقيقته، فأرسل إلى شاه إيران برقية شديدة اللهجة يلومه على سوء المعاملة التي لاقتها شقيقته، ويضع عليه المسئولية إذا ما تعرضت الأميرة لأي خطر، ولم يأتِ من إيران أي رد على تلك البرقية، وأمام انهيار الحالة الصحية للأميرة منع الملك فاروق الزيارة عنها حتى تسترد صحتها، وتم وضع الأميرة في أحد أجنحة قصر القبة ومعها فريق من الأطباء يباشرون حالتها.

وبعد شهر من وصول الأميرة فوزية إلى القاهرة، أرسل الشاه برقية إلى القصر المصري يطلب فيها سرعة عودة الإمبراطورة إلى إيران، وكان رد القصر المصري حاسما فقد اعتبر زواج الأميرة فوزية من شاه إيران منتهيًا وطالب القصر شاه إيران بأن تبدأ كل من الحكومة المصرية والحكومة الإيرانية في ترتيب إجراءات الطلاق، لكن الرد جاء من إيران بأن جلالة الشاه يرفض أولًا اللهجة التي خاطبه بها الملك فاروق، كما يرفض طرح موضوع الطلاق ويطالب بعودة زوجته جلالة الإمبراطورة فوزية إلى إيران في أسرع وقت ممكن.

وبقيت الأميرة فوزية في مصر ستة أشهر حتى استردت إلى حد ما عافيتها، وكان أشد ما يؤلمها أنها تركت ابنتها الصغيرة شاهيناز في طهران وكان عمرها خمس سنوات فقط، ومن يرَ صور الأميرة فوزية بعد أن استردت صحتها بعد عام من عودتها من إيران، والتي تم التقاطها بأشهر المصورين العالميين بوتشلي - فسيلاحظ تلك النظرة الحزينة التي ارتسمت على وجهها والتي لم تفارق عينيها قط.

كان الملك فاروق يعرف أن الطلاق لن يتم بسهولة وأن الحكومة المصرية لا تملك إلا أن تعلن عن بقاء الأميرة فوزية في مصر بسبب سوء صحتها، وبالتالي فقد كان الملك فاروق يشعر بالعجز أمام حل مشكلة الأميرة فوزية، وكان يعرف مدى تعاسة شقيقته بسبب فراقها عن ابنتها، لذا فقد كان يحيطها بكل عطفه ويقدم لها الهدايا الثمينة والمجوهرات، ويرسل لها مندوبي أشهر بيوت الأزياء إلى جناحها ويأمر بفتح بند المصروفات الخاص بها كي تحصل على كل ما تريد، لكن الأميرة

فوزية لم تكن تريد شيئًا، فقد زهدت حياة القصور وكرهت الأزياء والمجوهرات التي كانت تعشقها، لقد عادت من إيران إنسانًا محطمًا بعد أن فقدت بسبب زواجها من شاه إيران كل الأشياء الجميلة في حياتها، وكان أهم شيء فقدته هو ابنتها شاهيناز التي تركتها ولم ترها بعد ذلك إلا بعد عشر سنوات.

ظلت الحكومة المصرية تطالب شاه إيران رسميًّا بضرورة الموافقة على إجراءات طلاق الإمبراطورة فوزية نظرًا لتدهور حالتها الصحية واستحالة الحياة في إيران، وكان الرد يأتي في كل مرة بالرفض. كان شاه إيران محمد رضا بهلوي يحب زوجته فوزية حبًّا شديدًا رغم اختلاف الطباع واختلاف اللغة واختلاف العادات والتقاليد بينهما، لكن الأميرة فوزية لم تستطع التواصل معه ولا مع أعباء الحياة في إيران، فقد جفت مشاعرها أمام الصعوبات التي واجهتها في قصر المرمر، وأمام العلاقات المعقدة بين الشاه وشقيقته الأميرة أشرف، وأمام الإصرار على الطلاق كان الشاه يطالب الملك فاروق بضرورة عودة زوجته إلى طهران على اعتبار أنها ملكة إيرانية تحمل الجنسية الإيرانية وأم لولية العهد صاحبة الجلالة الأميرة شاهيناز.

بذلت الحكومة المصرية جهدًا كبيرًا كي يتم طلاق الأميرة فوزية تحت أي شروط، دون جدوى، حتى وقعت هذه الحادثة الشهيرة التي أجبرت الشاه على طلاق زوجته الأميرة فوزية.

فقد توفيَ والده رضا بهلوي في منفاه بجوهانسبرج، وكان مقررًا أن تهبط الطائرة التي تحمل الجثمان في مطار القاهرة لتستكمل رحلتها بعد ذلك إلى طهران، وعندما علمت الملكة نازلي بالأمر طلبت أن يتم التحفظ على الجثمان حتى يوافق الشاه على تنفيذ إجراءات طلاق الأميرة فوزية. وبالفعل تحفظت الحكومة المصرية على جثمان ملك إيران السابق في جامع الحنفي القريب من منطقة السيدة زينب؛ حتى توافق طهران على إجراءات الطلاق.

كان الأمر يتطلب جرأة شديدة كي يتم الضغط على إيران ويوافق الشاه على طلاق زوجته الأميرة فوزية، وكانت الملكة نازلي لديها هذه المقدرة وهذه الجرأة، ولم يستطع الملك فاروق إلا أن يوافق على خطتها للضغط على إيران؛ حيث أعلنت طهران عن رفضها للطلاق واعتبرت احتجاز جثة الملك رضا بهلوي اختراقًا للعلاقات المصرية الإيرانية وهددت إيران بقطع العلاقات مع مصر، ولم تعبأ مصر بذلك فقد كان أهم شيء هو إنقاذ الأميرة فوزية من المصير المؤلم الذي عانت منه

سنوات طويلة، ولم ترد مصر إلا ببرقية واحدة تحتوي على أربع كلمات فقط أرسلها الديوان الملكي (No Body No Settelement)، أي مفيش طلاق مفيش جثة.. (صحيفة النيويورك تايمز ـ مارس ١٩٤٨).

وأمام تشدد الحكومة المصرية لم يجد القصر الإيراني بُدًّا إلا أن يوافق على إجراءات الطلاق؛ حتى توافق مصر على الإفراج عن جثة الشاه الكبير كي يدفن في إيران.

وبدأت المباحثات بين مصر وإيران لتنفيذ إجراءات الطلاق؛ حيث وافق القصر الإيراني على الشروط المصرية التي تضمنتها إجراءات طلاق الشاه محمد رضا بهلوي والأميرة فوزية؛ حيث كان الشرط الأول هو إرسال صاحبة الجلالة الأميرة شاهيناز لتعيش مع أمها، وإرسال أمتعة ومجوهرات الإمبراطورة فوزية من طهران إلى القاهرة، ووافق القصر الإيراني على إرسال متعلقات الأميرة فوزية لكنه رفض سفر الأميرة شاهيناز للإقامة مع أمها في مصر؛ على اعتبار أنها أميرة إيرانية في حضانة والدها شاه إيران وليس من حق مصر المطالبة بها.

تم الطلاق بين الأميرة فوزية وشاه إيران محمد رضا بهلوي في نوفمبر عام ١٩٤٨ بعد أن أعلن القصر الإيراني أن الطلاق قد تم نظرًا للحالة الصحية لجلالة الإمبراطورة، وأن الطلاق لن يؤثر على حسن العلاقات بين البلدين مصر وإيران.

حصلت الأميرة فوزية على حريتها لكنها في المقابل حرمت من ابنتها الأميرة شاهيناز أكثر من عشر سنوات لا تراها ولا تعرف عنها شيئًا، وطوال تلك السنوات كانت الأميرة فوزية ترسل برقيات إلى الشاه تتوسل إليه ليسمح لها برؤية ابنتها، حتى وافق بعد عشر سنوات على أن تزورها في سويسرا، وكانت الأميرة شاهيناز تدرس في إحدى المدارس هناك؛ حيث سافرت الأميرة فوزية إلى سويسرا لترى ابنتها لأول مرة بعد عشر سنوات وكان عمر الأميرة شاهيناز وقتها ستة عشر عامًا. وقد نشرت الصحف الأجنبية خبر لقاء الأميرة فوزية بابنتها لأول مرة حيث بدت الأميرتان غريبتيْن تماما عن بعضهما بعضًا، فقد عانت كل منهما آلامًا شديدة بسبب فراقهما. وظلت الأميرة شاهيناز على علاقة سيئة بأبيها حيث كانت تلومه بشدة على حرمانها من أمها طوال تلك السنوات؛ حيث ظلت على خلاف دائم معه حتى إنه أبعدها فترة عن إيران وحدد إقامتها في سويسرا، فقد ترك موضوع حرمانها من أمها أثرًا حادًّا في نفسها؛ حيث عانت من الاضطرابات النفسية طوال مرحلة المراهقة.

أشرح كل هذه التفاصيل كي أحدد الملامح والظروف التي أحاطت بشخصية الملكة نازلي والعلاقات المعقدة التي أدت إلى انهيار العلاقة بينها وبين ابنها الملك فاروق. وإذا كان انهيار زواج الأميرة فوزية أحد الأسباب فما هو السبب الآخر الذي أدى إلى انهيار العلاقة بينهما؛ حيث تحول الخلاف إلى قطيعة وتحولت المشاعر الجميلة إلى كراهية شديدة، وتحول الاحترام والإجلال لمكانة كل منهما للآخر إلى درجة التراشق بالألفاظ وعدم المبالاة، بل والتجريح أحيانًا؛ بحيث أصبح الطرفان عدويْن لا يطيق أي منهما الآخر، ومن هم الأشخاص الذين ساهموا بالسلب أو الإيجاب في هذا الصراع الذي كان سببًا لانهيار حياة الملكة نازلي وانهيار عرش الملك فاروق؟

دعونا نتتبع الخيوط من بدايتها، وطالما أننا عرفنا السبب الأول وأن الملكة نازلي كان لديها كل الحق في لوم ابنها الملك فاروق على زواج أخته من شاه إيران، فلا بد أن نتتبع خيوط السبب الثاني وهو ما أشيع عن زواج الملكة نازلي من أحمد باشا حسنين، فهل حدث الزواج بالفعل، أم أن الأمر لم يكن غير إشاعة استثمرها أعداء الطرفين ليصلوا إلى أهدافهم ويحطموا العلاقة بين الملك وأمه؟ وما هي حقيقة العلاقة بين الملكة نازلي وأحمد باشا حسنين؟

أحمد باشا حسنين

بدأ الأمر عندما تطورت الأحداث السياسية بعد تولي الملك فاروق عرش مصر حيث بدأ الصراع بين القصر متمثلًا في الملك فاروق والمحيطين به وبين حزب الأغلبية حزب الوفد وزعيمه مصطفى النحاس، عام ١٩٣٨، ولم تنجح مساعي الملكة نازلي ذات الجذور الوفدية من تخفيف حدة الصدام بين ابنها الملك فاروق وبين النحاس باشا، فقد كان كل المحيطين بالملك بدءًا بعلي باشا ماهر وأحمد حسنين باشا، يشجعونه على إقالة النحاس باشا رئيس الوزراء؛ لفرض قوة الملك وشعبيته أمام قوة الكتلة الوفدية وشعبية النحاس باشا، وتصاعدت الخلافات بعد أن أظهر الملك تعنته عند تشكيل النحاس للوزارة وتمسك بصلاحياته في اختيار الوزراء كما نص الدستور مما أزعج حزب الوفد وزعيمه، وكان الصدام بين الرجلين صدامًا ناتجًا عن صراع القوى بينهما.

ويؤكد المؤرخون على أن زفاف الملك فاروق كان مقررًا له يوم عيد ميلاده في ١٢ فبراير عام ١٩٣٨، لكن إقالة الملك لوزارة النحاس باشا الأولى عجل بحفل الزفاف الذي أقيم في ١٩ يناير عقب إقالة الوزارة بأيام؛ حتى يضمن الملك عدم وجود ردود فعل سلبية تجاهه، فقد كان الجميع يخشون ردود فعل الشارع المصري نظرًا لشعبية حزب الوفد وزعيمه مصطفى النحاس.

ولم تكن الملكة نازلي في ذلك الوقت تفهم كثيرًا في السياسة ولم يكن مسموحًا لها بمناقشة ما يجري من أمور فيما يتعلق بالحكم والعلاقات بين القصر والأحزاب أيام الملك فؤاد، لذا كانت في غاية القلق من صدام ابنها الملك فاروق مع النحاس باشا؛ حتى شاءت الصدفة والتقت الملكة نازلي بأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكي، حيث عبرت له عن قلقها تجاه ما يحدث من صراع بين ابنها والوفد، وكانت وجهة نظر الملكة نازلي أن الملك لا بد أن يكسب النحاس باشا وحزب الأغلبية الوفد، حتى يضمن وهو في بداية حكمه قوة يستند عليها، لكن حسنين باشا مثله مثل غالبية المحيطين بالملك فاروق كان يرى عكس ذلك فقد كان القصر يخشى قوة

الوفد وسيطرته على الحكم، وأن هذه القوة من الممكن أن تضعف قوة القصر، لذا بدأ حسنين باشا في توضيح الموقف للملكة نازلي، فالملك صغير والنحاس باشا من الممكن أن يلتهمه فيقوي سلطته ويعزله عن شعبه، ومن ثم فإن الصراع يجب أن يحسم لصالح الملك فاروق من البداية حتى لا ينفرد الوفد بالحكم، واستمر أحمد حسنين باشا في تحليل الوضع السياسي للملكة نازلي حتى تأكد أنه غير وجهة نظرها.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تستمع فيها الملكة لشخص يشرح لها ما يدور في كواليس السياسة من خبايا، وفي نفس الوقت يخصها بكل هذا الاحترام والتقدير، ظل حسنين باشا يتحدث ويحلل للملكة كل الأبعاد السياسية التي لا تعرفها وهي منصتة إليه كأنها تراه للمرة الأولى.

بالطبع لم يكن أحمد حسنين باشا غريبًا عن الملكة نازلي فقد كانت تعرفه منذ أن ألحقه الملك فؤاد للعمل في الديوان الملكي، لكنه كان مثل كثيرين من رجال القصر لا تلتفت إليهم ولا تعيرهم أي اهتمام، لكن أحمد باشا حسنين كان رجلًا مختلفًا، فقد كان الملك فؤاد يكن له كثيرًا من الاحترام والتقدير ويصفه بأنه واحد من الأنتلجنسيا الجديدة أي النخبة المثقفة الجديدة، والسر في ذلك أن الملك فؤاد كان مولعًا بالموضوعات الجغرافية وهو الذي انشأ الجمعية الجغرافية الملكية قبل أن يكون ملكًا على مصر عام ١٩١٤، وأدخل مصر في مجتمع الناشيونال جيوجرافيك العالمي، وكان أحمد حسنين من أهم الشخصيات التي برزت في ذلك الوقت نظرًا لاكتشافاته العظيمة في الصحراء الغربية، فقد كان من الرحالة الأوائل الذين يعود لهم الفضل في اكتشاف واحة الجفرا وواحة العوينات، وكان أول من رسم خريطة جغرافية دقيقة للصحراء الغربية عندما قام برحلته الشهيرة إلى هناك والتي بدأها من بحر الرمال الأعظم جنوب مرسى مطروح وحتى الأبيض في السودان عام ١٩٢٣.

وعندما عاد من رحلته كتب عدة مقالات في الناشيونال جيوجرافيك، كما كتب كتابًا بعنوان «الواحة الضائعة» أو «ذي لوست أوزيس» يعتبر من أهم الكتب الجغرافية في العالم؛ حيث وصف رحلته التي قام بها على ظهر الجمال لمدة ثمانية أشهر لاكتشاف واحة «الجفرا»، كما وصف الصعوبات التي واجهته من سوء المناخ وحتى الضياع في الصحراء ليالي طويلة حتى وصل إليها، كان الكتاب مؤثرًا مليئًا بالمشاعر الدرامية إلى جانب النقاط العلمية بالطبع، وعندما قرأ الملك فؤاد كتاب «الواحة الضائعة»

لأحمد حسنين، أعجب به وأنعم عليه بلقب الباشوية وألحقه بديوان القصر، وكان الملك فؤاد يستدعيه بين الحين والآخر ليقضي معه ساعات طويلة في مكتبة قصر القبة ليعرض عليه أهم الكتب أو الأبحاث التي جاءته من الخارج حول الاكتشافات الجغرافية، وكان الملك فؤاد يرى في أحمد حسنين باشا رفيقًا جيدًا يجاريه في شغفه بالاكتشافات الجغرافية، وبلغ إعجاب الملك فؤاد بثقافته أن جعله رائدًا لابنه ولي العهد فاروق، وطلب منه أن يرافقه في رحلته التعليمية إلى إنجلترا عام ١٩٣٥.

لم يكن أحمد باشا حسنين منتميا إلى الطبقة الأرستقراطية، فهو ابن من أبناء الطبقة الوسطى، ولد في بولاق عام ١٨٨٩، أبوه هو الشيخ حسنين البولاقي أحد أساتذة الأزهر، وهو نفسه أحمد حسنين كان قد أنهى تعليمه الأزهري في علوم الشريعة، لكنه رفض العمل كمعلم بالأزهر كما رفض فتح مكتب كمحام لتطبيق الشريعة، وقرر السفر إلى إنجلترا لدراسة القانون في جامعة أكسفورد حيث تخرج فيها عام ١٩١٤، وعندما عاد إلى القاهرة عمل في مكتب الملحق العسكري البريطاني أثناء الحرب العالمية الأولى، لكنه كان في نفس الوقت بطلًا في لعب السيف «الشيش» ومثل مصر في دورة الألعاب الأوليمبية التي أقيمت في بلجيكا عام ١٩٢٠.

إذا كان شخصية أحمد حسنين باشا من الشخصيات النادرة ممن نطلق عليهم الآن الرجال الموسوعيين، الذين يتحدثون في كل شيء من الشريعة وعلوم القرآن إلى أشعار «ت. س إليوت»، ومن الحديث عن إفريقيا التي سافر في رحلات عديدة إليها إلى الحديث عن أغاني أم كلثوم، يضاف إلى ذلك رقته المتناهية في معاملة النساء وإلمامه الكبير بقواعد الإتيكيت والبروتوكول، كان رجلًا كما يسميه الإنجليز «سلف ميد» أي أنه صنع نفسه ليكون أميرًا غير متوج ورجلًا متمكنًا بكل معاني الرجولة والنبالة.

وأمام ذيوع شهرته داخل القصر، لم تجد الأميرة شويكار الزوجة الأولى للملك فؤاد أي غضاضة في أن تزوجه ابنتها الأولى «لطيفة هانم» والتي كانت قد أنجبتها من زواجها الأول، والتي هي في نفس الوقت شقيقة الأميرة «فوقية» الشقيقة الكبرى للملك فاروق من والده الملك فؤاد عندما كان متزوجًا من الأميرة شويكار.

كل هذه المعلومات كانت تعرفها جيدًا الملكة نازلي لكنها لم تكن تعرف عن قرب شخصية أحمد باشا حسنين. وعندما تحدثت معه رأت رجلًا جديدًا تمامًا أمامها، رجل أثر بأفكاره وآرائه فيها حتى إنها لم تفكر بعد ذلك لا في الوفد ولا في

النحاس باشا، بل كانت تفكر فيه وهو يتحدث إليها بلغة راقية جديدة تمامًا عليها، ويناقشها بهذا القدر من التفهم والرقة والاحترام لذكائها وشخصيتها، فقد ظلت طوال السنوات الماضية مطحونة في عجلة الأيام في ظل رجل يعاملها معاملة الحريم لا يلتفت إليها كإنسانة أو كامرأة.

هكذا أثر أحمد باشا حسنين في الملكة الأم، وعندما صعدت إلى جناحها الخاص في قصر القبة ونظرت إلى المرآة كانت علامات الإعجاب به ما تزال مرسومة على وجهها، وكان صوت أحمد باشا حسنين ما يزال يرن في أذنيها؛ حيث تحركت مشاعرها لأول مرة منذ زمن بعيد بعد أن كانت تعتقد أنها تعيش بلا مشاعر.

تكررت اللقاءات بين الملكة نازلي وأحمد حسنين باشا؛ حيث كانت تلجأ إليه لتستشيره في كل صغيرة وكبيرة، وقد توطدت العلاقة بينهما أكثر أثناء أزمة زواج ابنتها الكبرى الأميرة فوزية من شاه إيران، وبمرور الأيام اعتبرته الملكة صديقًا عزيزًا عليها، ولم لا، فقد كان الملك فؤاد يحترمه ويقدره، كذلك ابنها الملك فاروق الذي شب متأثرًا به أكثر من أبيه، فهل كانت الملكة نازلي قد أعجبت بالفعل بأحمد باشا حسنين؟ وهل فكرت في الزواج منه رغم كل العقبات والمحاذير التي اعترضت طريقهما؟

الحقيقة أن كل المصادر أكدت على وجود علاقة ما بين الملكة نازلي وحسنين باشا، بل أكدت على أنهما قد تزوجا في السر، ولا أدري من أين أتى المؤرخون بتلك المعلومة. فلا توجد قرائن أو وثائق تؤكد ذلك ولا نملك إلا أن نطرح التساؤلات وأن نتتبع الأحداث كي نستنتج بعض الملابسات.

صحيح أن الملكة نازلي كانت سيدة وحيدة، فهل امرأة مثلها حاربت في جميع الجبهات من أجل أن يعتلي ابنها العرش من الممكن أن تتهاون بسهولة وتفكر في الزواج من رجل متزوج فتعرض ابنها لحرج شديد وتهز مكانته وسط شعبه، أم أن الاحتياج إلى رجل مثل حسنين باشا يعينها على رحلة الأيام كان أقوى من عرش ابنها ومكانته؟ ويجب ألا ننسى أننا نتحدث هنا عن ملكة وأم لملك كان عمرها عام ١٩٤٣ (وقت شائعة الزواج) تسعة وأربعين عامًا، كما نتحدث عن رجل نبيل يكن له الجميع الاحترام والتقدير كان عمره وقتها أربعة وخمسين عامًا، فهل يمكن أن يندفع اثنان في مثل هذا العمر فيضربا عرض الحائط بكل القواعد والمثل كي يتزوجا لإشباع رغبة ما؟

وإذا أخذنا برأي المؤرخين وافترضنا أن هناك شعورًا ما تكنه الملكة نازلي لحسنين باشا، فهل الرجل من الممكن أن يستجيب بسهولة إلى ذلك فيحطم زواجه وعلاقته بالملك الذي وضعه على رأس ديوانه؟

فقد كان حسنين باشا رجلًا متزوجًا، وكانت الملكة نازلي على صداقة قوية بلطفية هانم زوجته التي كانت تكبرها ببضعة أعوام فقط، بالإضافة إلى أن لطفية هانم هي الشقيقة الكبرى للأميرة فوقية شقيقة الملك فاروق من والده الملك فؤاد، كما أن الملكة كانت تعلم جيدًا أن أحمد باشا حسنين يكن لزوجته لطفية هانم كل الاحترام والتقدير، فقد دام زواجهما أكثر من خمسة عشر عامًا أنجب فيها أربعة أبناء، فهل كانت الملكة نازلي على استعداد لتدمير كل تلك العلاقات من أجل مشاعر تحركت داخلها؟

يضاف إلى ذلك أن الرجل ووفقًا لكل المحيطين به في القصر كانوا يعلمون جيدًا شدة حرصه في كل التصرفات وأنه أنبل من أن يضع نفسه في موضع الشبهات، كما أنه كان ممتنًا جدًّا للملك الأب فؤاد والملك الابن ويدين لهما بالولاء والعرفان، فهل من الممكن أن يفكر في أي شيء يهز الثقة الغالية التي أولاها له الملك فاروق؟

فمن أين جاءت حكاية الملكة نازلي وحسنين باشا، وكيف انطلقت شائعة الزواج، ومن الذي روج لها؟ هل رجال القصر من المحيطين بالملك فاروق ممن يريدون إبعاد كل من أحمد حسنين والملكة نازلي، حتى لا يكون لأي منهما تأثير في سياسة القصر، أم أن الملكة نازلي هي التي أشاعت أسرار العلاقة بينها وبين حسنين باشا حتى يصل الأمر إلى مسمع لطفية هانم زوجة أحمد حسنين فتطلب الطلاق؟

وهل صحيح أن كلًّا من الملكة نازلي وحسنين باشا قد تبادلا الإعجاب؟ لا أحد يعلم الحقيقة على وجه اليقين، لكن من المعروف أن هذه الشائعة كانت سببًا في تحطيم كثير من العلاقات؛ كان أولها علاقة الملك فاروق بأمه الملكة نازلي؛ حيث شعر أنها تفرط في مسئولياتها ومكانتها كصاحبة الجلالة الملكة الأم وأنها تتعمد إيذاء مشاعره وإضعاف مكانته، ليس فقط داخل الأسرة العلوية، بل أيضًا في أنحاء البلاد، وكانت هي ترى أن أعداءها حاولوا الطعن في شرفها ولم يتخذ هو الإجراءات الحازمة ليقطع الألسنة أو يقف بحزم أمام ما قيل ليدافع عنها.

على الطرف الآخر انزعجت لطفية هانم مما وصل إليها من أخبار حول علاقة زوجها حسنين باشا بالملكة نازلي، وعندما وصل الأمر إلى أمها الأميرة شويكار

وشقيقتها الأميرة فوقية تم عمل اجتماع للعائلة حضره كبير العائلة وولي العهد الأمير محمد علي لمحاسبة زوجها أحمد باشا حسنين. وبالفعل عقد الاجتماع في قصر والدتها الأميرة شويكار (مكان مجلس الوزراء الحالي) ـ وحضر أحمد باشا حسنين دون أن يكون لديه أي فكرة عن سبب هذا الاجتماع، وعندما فتح الأمير محمد علي موضوع العلاقة بين حسنين باشا والملكة نازلي استاء جدًّا حسنين باشا ورفض مناقشة الموضوع، وهنا طلب منه الأمير محمد علي أن يترك القصر إذا كان حريصًا على زوجته وعائلته. وهنا ثار حسنين باشا لكرامته ونفى تمامًا وجود أي علاقة بينه وبين الملكة نازلي، واعتبر أن هذا الادعاء تشهير به وإهدار لكرامته وكرامة المرأة التي لا يكن لها سوى الاحترام والتقدير كملكة وأم لمليكه الذي يدين له بالولاء والطاعة.

خرج أحمد باشا حسنين من قصر حماته الأميرة شويكار وفي حلقه مرارة ومهانة لا يمكن أن يتصورها أحد، وعرف أن العلاقة بينه وبين زوجته لطفية هانم كانت قد تسممت ولن تعود كما كانت بسبب انعدام الثقة بينهما، وبالتالي لا بد أن ينهي هذه العلاقة وأن يثأر لكرامته في أسرع وقت ممكن، على الفور إلى أقرب مأذون بمنطقة قصر النيل وطلق زوجته لطفية هانم سري طلاقًا بائنا لا رجعة فيه، وعاد إلى منزله بالزمالك وأمر الخدم بجمع كل ما يتعلق بلطفية هانم وإرساله إلى قصر والدتها.

وأخذ الموضوع بعد ذلك أبعادًا درامية واشتعلت النيران في جميع الاتجاهات حيث انهارت علاقات عميقة وصلات مهمة، واعتبرت الأميرة شويكار أن طلاق ابنتها وخراب بيتها كان سببهما الملكة نازلي، فأخذت تروج الشائعات ضدها وتسيء إلى سمعتها كما حاولت بكل ما تملك من حيل وأساليب أن تدمر العلاقة بين الملك فاروق وأمه، وأن تضمه إلى صفها كي تبعد نازلي تمامًا عن قصر الحكم، كما وجد الأمير محمد علي ولي العهد في الموضوع فرصة كي ينتقم من الملكة نازلي التي حرمته من العرش عندما دعمت ابنها ونصبته ملكًا قبل أن يكمل سن الرشد، واستغل رجال القصر الفرصة وروجوا لموضوع الزواج كي يضمنوا عزل الملك تمامًا عن أكبر قوتين يستند إليهما: أمه وحسنين باشا.

كانت الملكة نازلي محاصرة تمامًا من جميع الجهات واعتبرت ما حدث ما هو إلا محاولة لتدمير سمعتها وإهانتها من قبل العائلة العلوية، وكانت تتوقع أن يثأر ابنها الملك فاروق لكرامتها فيقطع جميع الألسنة ويوقف كل شخص عند حده، لكنه وللأسف الشديد كان ينظر إليها نظرة شك فقد استطاع المحيطون به أن يسمموا

مسامعه بحكايات وقصص أكدتها بعض الشواهد، فقد شاهد الملك فاروق أحمد حسنين باشا في جناح أمه أكثر من مرة وقيل إن حسنين باشا يعلمها قراءة القرآن، كما أن التقارير التي كانت تأتيه حول اللقاءات التي تتم بين أمه وبعض الأشخاص من العاملين في السفارات الأجنبية في الأماكن العامة تسبب له ألمًا شديدًا، في الوقت الذي كان كل من في القصر يحفزه على فكرة إحياء الخلافة الإسلامية ليكون هو خليفة المسلمين. عمومًا كان عمر الملك فاروق وقت إثارة شائعة زواج الملكة نازلي بأحمد حسنين (عام ١٩٤٣) ثلاثة وعشرين عامًا فقط، ومن الطبيعي على شاب في هذه السن أن يشك في أي امرأة حتى ولو كانت أمه عندما يبدأ المحيطون به بترديد بعض الحكايات وتأكيدها بالأدلة الدامغة، يضاف إلى ذلك أن الملك فاروق كان يعرف جيدًا أن أمه تكن لحسنين باشا احتراما وتقديرًا يفوقان ما يمكن أن تكنه ملكة لموظف عندها، وبالتالي فقد كان الطريق ممهدًا أمام المحيطين بالملك فاروق ممن يهمهم إبعاد الملكة نازلي وإضعاف مكانتها حتى لا يكون لها أي تأثير.

هذا مجرد افتراض على أساس أن الملكة نازلي بريئة تمامًا من حكاية علاقتها بأحمد باشا حسنين، أما إذا كانت الحكاية حقيقية فمما لا شك فيه أن الملك فاروق كان قد قرر أن يصارح أمه بما يتردد في القصر، وقد أكد المؤرخون أن الملك فاروق عندما سأل أمه لم تنفِ، بل قالت له: إذا كنت تشك فيما بيني وبين أحمد حسنين فالأفضل أن تعلن زواجنا، وهنا ثار الملك واعتبر أن هذه العبارة اعتراف منها بالعلاقة.

ظل موضوع زواج الملكة نازلي بأحمد باشا حسنين موضوعًا مثيرًا للجدل لا أحد يستطيع أن يجزم به، ولا أحد يعرف على وجه اليقين إذا كان قد حدث بالفعل أم لا، لكن دعونا نضع جميع الاحتمالات في الاعتبار حول فكرة الزواج السري بين الملكة نازلي وحسنين باشا، وهل يمكن لرجل مثل حسنين باشا يملك كل هذا الاعتزاز الشديد بنفسه أن يفرط في ولائه للملك ويتزوج على غير إرادته فيعرض نفسه للمهانة وربما للهلاك؟ وهل رجل يحمل سمات الرجولة والنبالة من الممكن أن يتزوج من المرأة التي كانت طرفًا في الشائعات التي نفاها من قبل وكانت سببًا في طلاقه من زوجته والابتعاد عن أولاده؟

لقد حطمت تلك الشائعة حسنين باشا ووضعته في موقف حرج أمام الملك ورجال القصر، ولم يجد بدًّا إلا أن يمتنع تمامًا عن الاقتراب من جناح الملكة نازلي وأن يتجنب عدم الابتعاد عن مكتبه في القصر، وكما أشار الكثيرون إلى شخصية

حسنين باشا؛ حيث كانوا يصفونه بأنه رجل صعب المراس يستحيل أن تخضعه الظروف أو تلعب به الأقدار، وحتى لو كان يشعر بإعجاب الملكة نازلي له فإن ولاءه للملك فاروق كان فوق الاعتبار، وكان يمارس مهامه بكل دقة وحذر ويحاول أن يتجنب مصادر الشبهات.

لكن المؤرخين يؤكدون على أن الملكة نازلي قد اندفعت بمشاعرها تجاهه خاصة بعد أن طلق زوجته وعرضت عليه أن يتزوجها، فهل استجاب حسنين باشا وبادلها نفس المشاعر، وهل وافق على أن يتزوج الملكة نازلي ولكن سرًّا؟

تساؤلات عديدة ليس لها إجابات، والحقيقة أن المتتبع لخط سير الملكة نازلي منذ عام ١٩٤٣ (تاريخ طلاق أحمد حسنين لزوجته لطفية هانم) وحتى وفاة حسنين باشا عام ١٩٤٦، يجد أنه من المستحيل أن يكون هناك زواج لا سري ولا شرعي، فقد كانت الملكة في ذلك الوقت كثيرة الأسفار إلى إيران لزيارة ابنتها أو إلى أوربا بسبب سوء حالتها الصحية، وكانت في نفس الوقت كثيرة الصدام مع ابنها الملك فاروق، وبالتالي لو كان الملك فاروق قد وافق على زواجها من أحمد حسنين لكانت العلاقة بينهما قد استقرت، وإذا كان الزواج قد تم بدون علمه لكان قد طرد أحمد باشا حسنين من القصر واعتبره خائنًا لثقته، خاصة أن الملك فاروق كان معروفًا بعنفه الشديد أمام من لا يظهر الطاعة أو الولاء أمامه.

وهناك من يقول إن الملك فاروق ربما وافق على الزواج مرغمًا كي يتفادى جنوح والدته، وهل يمكن لرجل مثل حسنين باشا صعب المراس أن يرغمه أحد على الزواج لأي سبب ما حتى ولو كان إرضاءً للملك؟

تساؤلات عديدة لا توجد إجابات لها، ولا نملك إلا ما ردده المؤرخون وما كتبته قلة قليلة من القريبين من الملك فاروق، فقد كتب كريم ثابت في كتابه «عشر سنوات مع فاروق»، وكان خلال السنوات العشر يعمل المستشار الصحفي ومن أقرب الشخصيات للملك فاروق؛ حيث ذكر أن الملك كان قد صرح له عقب وفاة حسنين باشا بأنه ذهب بنفسه إلى مكتب حسنين باشا وجمع كل الأوراق المهمة وقام بنفسه بإعدامها، ومنها بالطبع وثيقة زواج الملكة نازلي منه، ويتساءل كريم ثابت: هل الملك فاروق قصد بهذه الرواية أن يؤكد على وجود علاقة شرعية بين أمه وحسنين باشا، حتى لا يفهم البعض أنها كانت علاقة سرية كما كانت تقول الشائعات، أم أن هناك زواجا كان قد تم بالفعل بموافقة الملك فاروق وحالت ظروف الحكم دون إعلانه؟

ومن خلال البحث عن أي شيء يكون قد نشر عن الملكة نازلي في الصحف الأجنبية عثرت على مقال كتبه أحد الصحفيين الأجانب من الذين كانوا يعيشون في مصر في فترة الأربعينيات واسمه «جوزيف ليفي» في صحيفة «النيويورك تايم» حول مصرع المطربة أسمهان، حيث رجح سبب موت المطربة أسمهان في حادثة انقلاب سيارتها في فرع دمياط وهي عائدة من رأس البر أوائل عام ١٩٤٦ إلى إعجاب أحمد باشا حسنين بها، ويتصور جوزيف ليفي أن الحادث قد يكون متعمدًا، خاصة أن أحمد باشا حسنين كان محور شائعات تؤكد علاقته بالملكة نازلي.

فهل كانت للملكة نازلي علاقة بالحادث؟ وهل كان يؤلمها أن حسنين باشا معجب بمطربة ولا يريد الزواج منها؟ وهل كان مقتل حسنين باشا نفسه بعد شهور قليلة من مصرع أسمهان وبهذه الطريقة الساخرة؛ حيث اعترضت طريقه سيارة محملة بالجنود البريطانيين عند كوبري قصر النيل فحطمت سيارته وقتلته هو وسائقه أمرًا دبرته المخابرات المصرية مع المخابرات البريطانية للتخلص منه أمام إصرار وعناد الملكة الأم على الزواج منه، أم بسبب أنه تزوج منها بالفعل، أم أن الأميرة شويكار التي استاءت جدًّا من طلاق ابنتها هي التي دبرت الحادث، خاصة أنها كانت على علاقة وثيقة بمسز لامبسون زوجة السفير الإنجليزي في مصر؟

الحقيقة لا أحد يعلمها، غير أنني قد عثرت على تصريح للملكة نازلي في جريدة «النيويورك تايمز» يوم ٨ مارس عام ١٩٤٩ تحت عنوان «أرملة الملك فؤاد تخرج من المستشفى بعد إتمام العلاج»؛ حيث نشرت الجريدة حوارًا مع الملكة نازلي عقب نجاح الجراحة التي أجريت لها في مستشفى مايو كلينك بأمريكا، وفي الحوار نفت الملكة تمامًا زواجها من أي شخص بعد وفاة الملك فؤاد، بعد أن سألتها إحدى الصحفيات واسمها «إليزابيث كاي» وكانت تعيش في مصر إذا ما كانت قد تزوجت من أحد رجال القصر بعد وفاة زوجها الملك فؤاد؛ حيث نفت الملكة ذلك بشدة، ولنا أن نعلم أنه في ذلك الوقت كان الخلاف بينها وبين الملك فاروق على أشده بعد أن سحب طبيبها الخاص بعد إجراء الجراحة ليرغمها على العودة إلى مصر، وبالتالي لو كانت قد تزوجت حسنين باشا بالفعل لكانت قد أعلنت ذلك كي لا تضع الملك في موقف حرج أمام الصحافة العالمية.

على العموم سواء تزوجت الملكة نازلي من حسنين باشا أم لا فقد كانت بسبب عدم تصرفاتها الحكيمة ومغالاتها في فرض آرائها وممارسة حريتها بدون حذر سببا

في وضعها في كثير من المشاكل والشائعات التي قد تكون صحيحة أو قد تكون خاطئة، فقد كانت تتصرف بغرور مبالغ فيه جعلها لا تصيب في كثير من المواقف، وكانت قد قطعت الصلة بكل أسرة محمد علي، فأصبحت بلا عون ولا نصير، فقد كانت لا تعبأ مطلقًا بما يتردد حولها، وكانت تتصور أن وراءها ابنًا وملكًا يحميانها ويناصرانها ظالمة أو مظلومة، بينما كان رأسه مشحونًا بحكايات وقصص خيالية عن سلوك أمه التي كانت قد جاوزت الخمسين ويراها تتصرف كالبنات الصغيرات لا تعبأ بمسئولياتها أو مكانتها، وهو في أشد الحاجة لأم حكيمة تدعم ملكه وتكون سندا له في مشاكله السياسية.

إذًا كان الطرفان الملك فاروق وأمه الملكة نازلي كل منهما يتوقع شيئًا من الآخر شيئًا لا يحدث.

واتسعت دائرة الشك بين الطرفين وأصبح الملك مشغولًا ليل نهار بمراقبة أمه الملكة، يضع وراءها الجواسيس أينما تحركت حتى إنها ضاقت بذلك وجمعت أمتعتها ورحلت عن قصر القبة إلى قصر عابدين، لكن الأمر لم يتغير فقررت الرحيل والإقامة في قصر والدها عبد الرحيم باشا صبري في منطقة الدقي بالقرب من ميدان فيني.

وأمام المراقبة المستمرة التي فرضها عليها الملك فاروق كانت الملكة نازلي تتعمد استفزازه بالذهاب إلى الأماكن العامة أو السفر بدون إذنه؛ مما يزيد من حدة اشتعال النيران بينهما؛ حيث كانت مناقشاتهما تنتهي دائمًا بتبادل الاتهامات والألفاظ الجارحة، فقد كانت الملكة نازلي تنعته بالجحود ونكران الجميل، وكان هو يتهمها بعدم مراعاة مكانتها أو سنها.

وكانت الملكة نازلي ترى أن الأميرة شويكار هي التي تسمم العلاقة بينهما فكان الملك فاروق يتعمد الذهاب إليها؛ حيث كانت الأميرة شويكار تتفنن في عمل الحفلات الصاخبة وإحضار صديقاته الأجنبيات ليقابلهن عندها، وكان يبرر ذهابه إليها على أنه يحاول أن يصلح العلاقات التي دمرتها الملكة نازلي بسبب حسنين باشا، وكان يمعن في جرح مشاعرها وهو يقول إنه يرى في الأميرة شويكار الأم الحكيمة التي يفتقدها.

هكذا انهارت العلاقة بين الملكة نازلي وأهم شيء في حياتها ابنها الوحيد الملك فاروق، ونجحت الأسرة العلوية وعلى رأسها الأميرة شويكار في تحطيمها وحرمانها من عطفه وحمايته بإفساد العلاقة بينهما، فقد استطاعت الأميرة شويكار أن تنتقم من

الملكة نازلي التي أصبحت سلطانة ثم ملكة على مصر وأم الملك، بينما هي لم تستطع أن تكون شيئًا رغم أنهما تزوجا نفس الرجل «الملك فؤاد»، كما نجحت في الانتقام أيضًا لابنتها لطفية التي تحطمت حياتها بسببها، واستطاعت الأميرة شويكار أن تحاصر الملكة نازلي وأن تشوه سمعتها ليس فقط بين كل الناس ولكن أيضًا بين صفحات التاريخ بعد أن سلبتها أهم شيئيْن لديها شرفها وحماية ابنها.

ومع انهيار العلاقة بينها وبين ابنها الملك فاروق انهارت صحتها وازدادت تعاستها واشتد حزنها على تعاسة ابنتها الأميرة فوزية، فشعرت أنها وحيدة بلا عون أو سند، لا رجل يقف إلى جانبها ولا ابن تثق به أو يثق بها، وشعرت الملكة نازلي أنها محاصرة من أعدائها وأن ألد عدو لديها هو أقرب الناس إلى قلبها ابنها الوحيد الملك فاروق، حتى توالت الكوارث على حياتها مع نهاية عام ١٩٤٦.

الرحيل

كان عام ١٩٤٥ من أكثر الأعوام اضطرابًا في القصر الملكي المصري؛ حيث خيمت على أجواء القصر سحابة من التعاسة والأحزان أرهقت كل المحيطين بالملك، فقد شهد هذا العام عدة أحداث درامية جعلت الحياة سواء في قصر عابدين أو قصر القبة أشبه بالجحيم.

كان الملك فاروق عام ١٩٤٥ يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا فقط، وكانت سماء الحياة السياسية في مصر ملبدة بالعواصف والغيوم، فقد كان الصراع بين القصر والحكومة الوفدية برئاسة النحاس باشا قد وصل إلى مرحلة الصدام، بعد وقوع حادث ٤ فبراير عام ١٩٤٢، عندما حاصرت الدبابات البريطانية قصر عابدين وأجبرت الملك فاروق على ضرورة الإبقاء على النحاس باشا على رأس الوزارة الوفدية ورد الإقالة التي أعلنها القصر، ولم يكن أمام الملك فاروق اختيار آخر إلا أن يتنازل عن الحكم، كما فعل ابن عمه عباس حليم ويرحل عن الحكم إلى أي منفى يختاره أو أن يعيد النحاس باشا، وكان لتلك الواقعة أثر سيئ في نفس الملك؛ حيث شعر لأول مرة أن عرشه مهدد في أي لحظة وأنه محاط بعداءات كثيرة داخل القصر وخارجه، وسيطر عليه الشعور بأن مصيره في الحكم مرتبط بولائه للإنجليز، وأن عليه الاستسلام التام حتى لا يخسر عرشه بعد أن وصل الصدام بينه وبين السفير الإنجليزي سير لامبسون إلى طريق مسدود.

أطاح الملك فاروق في ذلك العام بكل المقربين إليه من المخلصين له ولعرشه من رجال السياسة أو من أقرب الناس إليه زوجته وأمه، فقد ساءت علاقته بأحمد باشا حسنين بعد حكاية زواجه من أمه الملكة نازلي، كما ساءت علاقاته برجال السياسة من المحيطين به أمثال علي ماهر، وسيطر الشك على رأسه إلى حد أنه كان يشعر بمشاعر جارفة من العداء من كل المحيطين به، فقد فقد الثقة في جميع من حوله وبدأ يعاني من داء الشك، فقد كان يشك في كل المحيطين به ولم تسلم لا زوجته ولا أمه من نوبات الغضب الشديد التي كانت تجتاحه فتحولت الحياة في القصر إلى جحيم.

وأصبح الملك مهووسًا بضرورة إنجاب طفل يحمل العرش من بعده، خاصة أن زواجه من الملكة فريدة لم يثمر إلا عن ثلاث فتيات دون وجود ولد من صلبه يتولى ولاية العهد، الأمر الذي جعله أكثر عنفًا وعصبية مع زوجته الملكة فريدة حيث ساءت العلاقة بينهما وأصبح الطلاق وشيكًا في أي لحظة.

ووسط كل الضغوط السياسية المحيطة به ظهرت أيضًا بعض المشاكل الأسرية التي أفقدته القدرة على التفكير السليم؛ حيث كات صحة الأميرة فوزية معرضة بين لحظة وأخرى للانهيار، وهو عاجز عن حل مشاكلها وإجبار شاه إيران على طلاقها، وقد أدى ذلك إلى توتر العلاقة بينه وبين أمه الملكة نازلي إلى حد أن أصبح كل منهما يتجنب الآخر، وفي المرات القليلة التي كانا يلتقيان فيها بالصدفة في جناح الأميرة فوزية كانا يتبادلان الحديث أو التحية باقتضاب شديد حتى لا تشعر الأميرة بما يدور بينهما فيؤثر ذلك على صحتها.

وتحت كل هذه الضغوط النفسية ونوبات الشك التي كانت تسيطر على تفكيره، ظهرت وجوه جديدة في أرجاء القصر، أشخاص استطاعوا أن ينتهزوا فرص احتياجه لمن يظهر له الولاء والطاعة في كل شيء يفعله حتى ولو كان خطأً، أمثال كريم ثابت ويوسف رشاد وزوجته ناهد رشاد، فقد كان الملك في تلك الفترة صيدًا سهلًا يمكن السيطرة عليه بتنفيذ أي شيء يطلبه.

وأمام شعور الملك فاروق بالخوف على عرشه فكر في عمل فرق خاصة لحمايته فلم يكن يثق بدرجة كافية بالحرس الملكي؛ حيث استعان بطبيبه الخاص يوسف رشاد وزوجته ناهد في تكوين خلية سرية من بعض شباب الضباط أطلق عليها اسم «الحرس الحديدي»، وكان الهدف منها إرهاب المعادين لسياسته أو تصفيتهم والتخلص منهم جسديًا إذا لزم الأمر.

كانت الملكة نازلي تراقب ما يدور بين جدران القصر من بعيد وسط آلامها الجسدية والنفسية، تشعر بالخوف والشفقة على ابنها الوحيد الذي بدأ يتخبط يمينًا ويسارًا وهي عاجزة عن التواصل معه أو حتى الحديث معه، وكانت ترى أن الملك أصبح صيدًا سهلًا في يد مجموعة من الأشخاص نجحوا في السيطرة على عقله وعزلوه تمامًا عن أي نصائح مخلصة، وكانت تشعر بالقلق على العرش الذي بدأ يتهاوى من شدة العواصف السياسية التي عجز ابنها عن السيطرة عليها.

كانت الآلام تشتد عليها وكانت صحتها تزداد سوءًا بعد توقف إحدى الكليتين عن

العمل، حتى إنها فقدت الكثير من وزنها، وكانت الأحزان لا تفارق وجهها وهي ترى أحب اثنين إلى قلبها ابنها الملك وابنتها الإمبراطورة فوزية وقد خيمت التعاسة على حياتيْهما ولم يعد للمال أو الجاه قيمة أمام ما يعانيه الجميع من حزن وتعاسة.

حتى جاء يوم زفاف الأميرة فايزة، ونظرًا للظروف المحيطة بالعائلة؛ فقد قرر الجميع أن يتم الزفاف في حفل محدود يقتصر على أفراد العائلة فقط وليوم واحد بدلًا من ثلاثة أيام كما هي عادة الأفراح الملكية، ومن يشاهد صور زفاف الأميرة فايزة فسيلاحظ غياب الأميرة فوزية عن الحفل؛ فقد كانت حالتها الصحية لا تسمح بالحضور، كما سيلاحظ انخفاض وزن الملكة نازلي التي ظهرت في الصورة بحجم ابنتها الصغرى الأميرة فايقة.. (يمكن مشاهدة بعض الصورة النادرة للملكة نازلي على Youtoub عبر الإنترنت).

كانت الأميرة فايزة تبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، عندما تقدم للزواج منها محمد علي رءوف بك وكان يكبرها بست سنوات فقط، وهو أحد أقارب الملك فؤاد؛ حيث إن جدته هي الأميرة فاطمة بنت الخديو إسماعيل وأخت الملك فؤاد، وهي نفسها الأميرة التي وهبت جزءًا كبيرًا من أملاكها لبناء جامعة القاهرة. كانت الأميرة فايزة متحمسة للزواج ولم يعارض الملك فاروق ولا الملكة نازلي الفكرة، فقد قررا بعد تجربة زواج الأميرة فوزية أن يتركا قرار الزواج للأميرات تختار كل منهن ما تشاء.

كانت الأحزان في القصر أكبر حجمًا من فرح الأميرة فايزة، وبعد الزفاف كانت الملكة نازلي قد قررت أن ترحل من قصر القبة إلى قصر والدها عبد الرحيم باشا في الدقي لتعيش هناك، كذلك فعلت الملكة فريدة حيث قررت هي الأخرى أن تترك الملك وتعيش هي وبناتها في قصر الطاهرة، وأصبح الملك فاروق بمفرده يواجه العواصف بلا عون أو خبرة لا في السياسة ولا في الحياة.

وأمام تدهور الحالة الصحية للملكة نازلي أقنع الأطباء الملك فاروق بضرورة سفرها إلى أوربا للعلاج، وبالفعل تم الاتصال بإحدى المصحات المتخصصة في فرنسا، كما تم إرسال طبيب وسكرتير خاص إلى هناك لعمل الترتيبات اللازمة لعلاج الملكة. وبعد شهرين من الاستعدادات سافرت الملكة نازلي إلى فرنسا بعد أن أصرت على اصطحاب ابنتيْها الصغيرتيْن معها، فقد كان الملك فاروق يرفض في البداية سفر شقيقتيْه الأميرة فايقة والأميرة فتحية، ويحاول إقناع أمه ببقاء الأميرتيْن الصغيرتيْن

معه في القصر، غير أن الملكة رفضت بقاءهما في مصر وأصرت على اصطحابهما، وكانت الأميرة فايقة تبلغ من العمر تسعة عشر عامًا، بينما كانت فتحية تبلغ ستة عشر عامًا، حيث كان من الصعب تركهما في ظل كل تلك الظروف المضطربة في القصر.

وصلت الملكة نازلي إلى فرنسا في مايو عام ١٩٤٦ ولم تنشر الصحف إلا أخبارًا متفرقة عن حالتها الصحية، بعد أن كانت تلك الصحف تنشر أخبارها في أماكن السهر والترفيه وهي بصحبة أمراء وأميرات أوربا أثناء حفلاتهم الصاخبة، فقد كانت الملكة تعاني بالفعل آلامًا مبرحة نتيجة توقف إحدى الكليتين عن العمل، بالإضافة إلى الآلام النفسية التي كانت تعاني منها بعد وصول علاقتها بابنها الوحيد الملك فاروق إلى طريق مسدود، يضاف إلى ذلك حزنها الشديد على وفاة الرجل الوحيد الذي كان موضع ثقتها أحمد باشا حسنين.

كانت الآلام تشتد على الملكة نازلي ولم يستطع الأطباء الفرنسيون إيجاد حل لوقفها، كانت الملكة نازلي تشعر أنها تواجه الموت وأن الشيء الوحيد الذي يبقيها على قيد الحياة هما البنتان الصغيرتان التي أصرت على بقائهما معها. فهل فكرت الملكة نازلي أثناء رحلتها إلى أوربا للعلاج في الرحيل عن مصر بلا عودة، أم أن الظروف والملابسات هي التي صنعت الأحداث الخطيرة التي حولت حياتها وحياة ابنتيها عن مسارهما الطبيعيين مائة وثمانين درجة؟

مكثت الملكة في فرنسا عامًا كاملًا وكانت الحكومة المصرية تتكفل بمصروفات المستشفى والعلاج ومصروفات الأوتيل الذي تقيم فيه الأميرات والحاشية، مع صرف خمسمائة جنيه إسترليني يوميًّا كمصروفات نثرية، وبعد مرور ستة أشهر اضطرت الحكومة المصرية إلى تخفيض عدد المرافقين والاكتفاء بمربية واحدة ووصيفة واحدة للأميرات مع الاحتفاظ بالطبيب المرافق فقط، على أن يقوم أحد موظفي السفارة المصرية في باريس بمباشرة بقية الاختصاصات. وقد أزعج هذا القرار الملكة واعتبرت قرار تخفيض مصاريف علاجها ما هو إلا تفريط في حقوقها كصاحبة جلالة واستهانة بالغة بمكانتها الرفيعة، واعتبرت ذلك تعنتًا شديدًا من جانب ابنها الملك واستهانة بحالتها الصحية، كأنه يعرف أن لا فائدة من العلاج وأن حالة الملكة الأم تتدهور، وبالتالي فإنه من الأفضل أن تعود هي والأميرات إلى مصر، خاصة أن الجفاء بين الطرفين كان قد تصاعد إلى حد أن الملك فاروق كان لا يتصل

بها ويكتفي بمتابعة حالتها الصحية عبر التقارير الطبية التي كانت تصل إليه من خلال الطبيب المرافق لها.

لكن عناد الملكة نازلي وإصرارها على الحياة كانا أكبر مما يظن الملك فاروق؛ حيث وافقت على اقتراح بعض الأطباء الفرنسيين الذين أشاروا إلى وجود مصحة متخصصة في الولايات المتحدة الأمريكية لعلاج مثل هذه الحالات. وعلى الفور أصرت الملكة نازلي على السفر إلى أمريكا حتى لو لم يوافق الملك على ذلك وأمام ضغوط الأطباء المصريين وافق الملك فاروق على السفر، وأصرت الملكة على اصطحاب كل من كان معها في باريس، كما أصرت أيضًا على اصطحاب الموظف المصري الذي يعمل في السفارة المصرية في باريس والذي كان يتولى أعمالها هناك، ولا أحدى يدري لماذا أصرت الملكة على اصطحاب موظف صغير يعمل كمندوب للعلاقات العامة في السفارة المصرية لتعطيه هذا القدر من الاهتمام، وكان بإمكانها أن تختار من هو أكثر منه مكانة أو تعليمًا أو حتى ثقافة لتدبير شئونها في أمريكا، خاصة أن السفارة المصرية في واشنطن قد جهزت جميع الترتيبات لوصولها إلى هناك.

كان هذا الموظف هو رياض بيشاري مينا غالي من مواليد شبرا عام ١٩١٩، والده يعمل موظفًا في وزارة التعليم من أسرة قبطية متوسطة الحال. درس رياض غالي في مدرسة الفرير حتى المرحلة الابتدائية فقط ثم توسط له أحد تلامذة والده فألحقه بالعمل في السفارة المصرية بباريس كموظف استقبال لا يرقى إلى مرتبة السلك الدبلوماسي، وعندما وصلت الملكة نازلي إلى باريس كان رياض غالي أحد موظفي السفارة الذين كانوا في خدمتها وكان دوره يقتصر على متابعة تذاكر الطيران وضمان وصول الحقائب إلى الأوتيل.

وهنا تدور تساؤلات عديدة: لماذا سمحت الملكة لموظف صغير أن يتجاوز حدوده ويتقرب منها؟ ولماذا أصرت على أن تصحبه معها إلى الولايات المتحدة الأمريكية؟ وهل كانت الملكة تخطط لرحلة البقاء هناك وعدم العودة مرة أخرى إلى مصر، وبالتالي كانت في حاجة إلى من يدير لها شئونها في حالة سحب كل المرافقين لها؟ والسؤال الأكثر خطورة هو: كيف استطاع رياض غالي أن يتقرب من الملكة وأن يستحوذ على ثقتها إلى حد أنها كانت تعتمد عليه في كل صغيرة وكبيرة، فهل استغل رياض غالي الموقف بين الملكة وابنها الملك فاروق ورتب حياته على أنه سيكون الابن البديل لها؟

تساؤلات عديدة لا إجابة لها غير أن العناد الذي اشتعل بين الملكة نازلي والملك فاروق قد دفع كلًّا منهما إلى البحث عن أي شيء ينغص حياة الطرف الآخر، وكانت الضحية الفتاتين الصغيرتين اللتين أصبحتا صيدًا سهلًا لأطماع أي شخص متطلع للاستحواذ عليهما بعيدًا عن أجواء القصور المحكمة، ولِمَ لا وقد تهيأت الظروف كي يتخيل شخص مثل رياض غالي نفسه زوجًا لأميرة من الأسرة العلوية فيدخل التاريخ ويصبح ببساطة أميرًا حقيقيًّا ونسيبًا للملك فاروق شخصيًّا؟

لم تحسب الملكة نازلي حساباتها جيدًا، ولم تتوقع أن الشخص الذي عينته سكرتيرًا ومستشارًا شخصيًّا لها يدبر أمرًا ما، فكل الذي كان مسيطرًا عليها أن تعاند ابنها الملك فاروق، ويبدو أن إصرار الملكة على اصطحاب رياض غالي معها كان ردًّا على سحب بعض أفراد الحاشية ممن كانوا يرافقونها في رحلة العلاج ممن رفضوا تقديم تقارير عن تحركاتها هي والأميرتيْن في باريس، ولكن أيًّا ما كانت الأسباب فقد أعمى العناد الملكة نازلي ولم تستمع إلى تحذيرات الملك فاروق بضرورة الحذر وعدم التعامل مع أشخاص لا يعرفهم القصر.

والحقيقة أن الملك فاروق كان يخشى على شقيقتيْه من وجودهما في بلاد غريبة ومع أشخاص لا يعرفهم وغير موثوق بهم، لكن الملكة كانت للأسف الشديد لا تفكر في شيء إلا التصرف بردود أفعال غير محسوبة متصورة أن ابنها لا يفكر في مصلحتها وإنما يفكر في مضايقتها والتجسس عليها؛ حيث كانت تشعر طوال الوقت أنها محاصرة من أفراد يتبعون بالولاء للملك فاروق ويرسلون تقارير يومية عنها، وأن ابنها قد فرض عليها نفس أساليب المراقبة التي كان يفرضها عليها في مصر؛ مما أفقدها الثقة في كل من حولها وأتاح لرياض غالي الفرصة الذهبية للتقرب منها بإطاعة أوامرها بهدوء وفي سرية شديدة حيث كان رياض غالي موظفًا صغيرًا لا يلتفت إليه أحد ولا يعرف هو ألاعيب القصر ومؤامراته، وبالتالي فقد كانت تضمن أنه لن يتصل برجال فاروق ولن يسرب أسرارها، وكانت توكل إليه تنفيذ المهمات الشخصية التي لا تريد أن يعرفها أحد مثل مباشرة حساباتها البنكية أو مرافقة الأميرات إلى بعض الرحلات، أو شراء بعض المشتريات الخاصة بهم أو الاتصال ببعض الأشخاص في مصر أو في أوربا تنفيذًا لأوامر الملكة، وكانت كل هذه التحركات تقام في سرية بعيدًا عن أعين أفراد الحاشية، وبمرور الوقت اكتسب الموظف الصغير رياض غالي ثقة الملكة وأصبح موضع سرها فقربته أكثر إليها وتركت بنتيْها طوال إقامتها في

المستشفى في باريس معه، وعندما قررت السفر إلى الولايات المتحدة أصرت على أن تطلبه من وزارة الخارجية لمرافقتها، وسط دهشة كل أفراد الحاشية التي كانت تنظر إلى رياض غالي نظرة متدنية على اعتبار أنه مجرد موظف علاقات عامة، ولم يكن يتصور أحد أن هذا الموظف الصغير سيلعب دورًا داميًا في حياة ملكة مصر.

وصلت الملكة إلى الولايات المتحدة في شهر أغسطس عام ١٩٤٧ حيث أقامت عشرة أيام في نيويورك في أوتيل «أدولف أستوريا» أشهر فندق في المدينة، ثم انتقلت بعد ذلك إلى ولاية مينيسوتا لتدخل مستشفى مايو كلينك؛ حيث بدأت الاستعدادات لإزالة إحدى كليتيها وعمل جراحة لإزالة أحد الأورام من الكلية الأخرى.

ظلت الملكة في مستشفى مايو كلينك ثلاثة أشهر تصارع الموت، وكان أشد ما يؤلمها أن ابنها الملك فاروق لا يتصل بها شخصيًّا للاطمئنان عليها، بل كان يتابع حالتها عبر التقارير الطبية التي كانت ترسل إليه، كما كان لا يتصل بشقيقتيْه ويسأل عنهما، واعتبرت الملكة هذه التصرفات نوعًا من الجحود وعدم الوفاء، وبكت بشدة عندما علمت أنه يتصل ببعض الأشخاص لعمل استثمارات في الولايات المتحدة ولا يتصل بها؛ حيث كان من الأجدى وهي في شدة مرضها أن يأتي لزيارتها والاطمئنان عليها، لكن الملك لم يفعل ولم يكن يهتم إذا عاشت أمه الملكة نازلي أم ماتت، وكان همه الأساسي أن تعود شقيقتاه إلى مصر بأسرع وقت ممكن، فقد كان يلح على السفير المصري بشدة بضرورة إقناع الأميرتيْن للعودة إلى مصر بأسرع وقت ممكن، كما طلب منه مراقبة تحركاتهما أثناء إقامة الملكة في المستشفى، وقد حاول السفير المصري إقناع الأميرتيْن بضرورة العودة إلى مصر، غير أنه وجد من المستحيل تنفيذ الطلب حيث رفضت الأميرتان ترك أمهما المريضة وحيدة في أمريكا والعودة إلى مصر.

ويبدو أن الصراع على الأميرتيْن فايقة وفتحية كان قد بدأ بين الملكة وابنها الملك فاروق منذ وصول الملكة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فقد كان كل منهما يريد أن يضم الأميرات الصغيرات إلى صفه، خاصة أن التقارير التي كانت تصل إلى الملك فاروق تشير إلى الحالة النفسية السيئة للأميرتيْن بسبب مرض أمهما وبسبب طول الفترة التي قضياها بعيدًا عن مصر، يضاف إلى ذلك صعوبة الحياة في ولاية مثل مينيسوتا التي يغطي الثلج شوارعها طوال الشتاء، فقد عانت الأميرتان الكثير أثناء إقامة أمهما في المستشفى، وكانت حياتهما محصورة بين الفندق والمستشفى

فقد كانت التجربة قاسية عليهما في بلاد غريبة مع أم مريضة تصارع الحياة والموت، فشعرتا بالوحدة والخوف إذا ما جرى لأمهما شيء ولم يكن أمامها سوى بعض الموظفين المكلفين برعايتهما وعلى رأسهم رياض غالي.

وبعد نجاح الجراحة أعلن سكرتير السفارة المصرية في واشنطن القنصل أحمد علي أن الملكة ستغادر المستشفى في ٢١ ديسمبر عام ١٩٤٧ وستسافر إلى نيويورك لتبقى هناك لمدة أسبوعين حتى تسترد عافيتها تمامًا استعدادا للعودة إلى مصر، وحاول الملك أن يتصل بأمه ليهنئها على نجاح الجراحة غير أنها رفضت استقبال المكالمة بحجة أنها مجهدة، وردت عليه الأميرة فايقة لتشكره على المكالمة التي طال انتظارها أكثر من عام.

وقد نشرت الجريدة صورة للملكة نازلي بصحبة ابنتيها الأميرتين فايقة وفتحية عقب خروجها من مستشفى مايو كلينك؛ حيث وصفت الجريدة الملكة بأنها كانت ترتدي فستانًا أسود ومعطفًا طويلًا من المنك الأسود، وقد رفضت الملكة الإدلاء بأي حديث إلى الصحفيين، وبرر مستشارها الخاص رياض غالي أن حالتها الصحية لا تسمح بذلك.

إذا كانت الملكة ترتب للعودة إلى مصر بعد استرداد صحتها مع بداية عام ١٩٤٨ فما الذي دفعها إلى أن تغير رأيها وتغير وجهتها لتسافر إلى مدينة سان فرانسيسكو بدلًا من العودة إلى مصر؟

لا أحد يعرف الأسباب الحقيقية فلا توجد أي معلومات عن الملكة نازلي في تلك الفترة إلا ما نشرته الصحف حول أنشطتها الاجتماعية والحفلات التي بدأت تظهر فيها بعد أن استردت حالتها الصحية، فقد نشرت صحيفة «النيويورك تايمز» في عددها الصادر يوم يوم ٢١ مارس عام ١٩٤٩ أن الملكة والأميرتيْن كنَّ ضيوفًا في حفل أحد كبار رجال الأعمال الأمريكيين واسمه كلارنس سان روز وزوجته، وكانت في الحفل مدام محب باشا وصيفة الملكة وبالطبع مستشارها الخاص رياض غالي، كما كان من ضيوف الحفل عدد من الأمراء والأميرات من بعض الدول الأوربية مثل البارونة بيلا رودنافيسكي والكونتيسة هيلن مونروا وعدد من رجال الكونجرس الأمريكي ورجال وسيدات المجتمع الراقي في أمريكا.

فهل كان شكل وطعم الحياة في أمريكا بأجوائها الصاخبة ملائميْن للملكة نازلي بعيدًا عن منغصات ابنها الملك فاروق وأجواء القصر الكئيبة في مصر، أم أن

الخلافات بينها وبين ابنها الملك كانت قد وصلت إلى حد القطيعة، ففكرت الملكة في البقاء في الولايات المتحدة الأمريكية كي تتفادى الصدام معه؟

لا أحد يعرف التفاصيل غير أن ما حدث بعد ذلك لم يتوقعه أحد، فقد بدأت ملامح العلاقة العاطفية بين ابنتها الصغرى الأميرة فتحية وبين رياض غالي تتضح لكل المحيطين بالملكة. والغريب أن الملكة عندما علمت بالأمر لم تظهر استياءها ولم تستنكر رغبة ابنتها في الزواج من رجل من العامة على دين مخالف لدينها، بل وجدتها فرصة كي تنتقم من ابنها الملك فاروق الذي تعمد أن يتجاهلها طوال غيابها في رحلة العلاج.

وعندما استشعرت السفارة المصرية بوادر العلاقة بين الأميرة ورياض غالي حاولت إبعاده عن خط سير الملكة والأميرتيْن وإرساله للعمل في سفارة مصر في البرازيل، غير أن الملكة أصرت على عدم سفره وطلبت منه أن يقدم استقالته من الحكومة المصرية، وبدأت الدوائر السياسية المكلفة بمراقبة الموقف تستشعر الخطر؛ الأمر الذي دفع بالمخابرات المصرية إلى أن ترفع تقريرًا شاملًا للملك عن مجمل التصرفات التي رصدتها وعن تحركات الملكة والأميرتيْن مع رياض غالي وظهورهن في الأماكن العامة، وعندما وصل التقرير إلى الملك جن جنونه واتصل بأمه الملكة نازلي ليسألها سؤالًا محددًا: هل هي على علم بعلاقة شقيقته الصغرى فتحية بهذا الأفندي؟ وكان الرد غير متوقع من أم تعرف تمامًا عاقبة مثل هذا الموقف، فقد ردت بإيجاز: نعم. وعندما استشاط الملك غضبًا من ردها شعرت بالسعادة، فقد استطاعت أخيرًا إيلامه، وإمعانًا في مضايقته أكدت له أنها ستدعم هذه العلاقة بكل ما تملك وأن هذه العلاقة ستنتهي بالزواج قريبًا.

كانت هذه هي المكالمة الأولى بين الملك فاروق وأمه الملكة نازلي بعد عامين من رحيلها عن مصر في رحلة العلاج؛ حيث كان هو في البداية غاضبًا منها لا يتحدث إليها ويكتفي بمتابعة حالتها الصحية عبر طبيبها الخاص، وبعد سفرها إلى الولايات المتحدة ونجاح الجراحة كانت هي غاضبة منه ولا ترد على مكالماته، وبالتالي فقد كانت الملكة تعرف جيدًا الأثر الذي سيتركه خبر زواج الأميرة فتحية من رياض غالي على عقل وقلب الملك فاروق. وبالفعل أنهى الملك المحادثة التلفونية مع أمه الملكة نازلي وهو في شدة الغضب، وكان في ثورته يردد الشتائم للجميع بالفرنسية والإنجليزية وقد امتلأ رأسه بكل الهواجس الذي سيثيرها زواج أخته من رجل على

غير ملتها، وبدأ يفكر كيف سيكون لهذا الخبر ردود فعل على الرأي العام المصري خاصة أنه وفي نفس العام ١٩٤٩ تم الطلاق بينه وبين الملكة فريدة التي كان يحبها الشعب، يضاف إلى ذلك الأجواء السياسية المشحونة والضاغطة والتي تصاعدت بسبب اشتعال الشارع المصري إلى درجة الغليان بعد حرب فلسطين وانفجار قضية الأسلحة الفاسدة. كان الملك فاروق في موقف لا يحسد عليه، فقد شعر أن مشاعر الناس التي أحبته ووضعت عليه الآمال عند توليه الملك قد تلاشت، وأن وجود أمه الملكة نازلي وشقيقتيْه الصغيرتيْن في الولايات المتحدة يسبب أزمة كبيرة، فما بال أن تتزوج فتحية من رجل مسيحي من عامة الشعب؟ كانت كل الأمور في غاية التعقيد وكان الملك فاروق يريد أن تعود شقيقتاه إلى مصر بأي طريقة، على ألا يتم هذا الزواج الذي سيكون بمثابة كارثة له ولعرشه.

ووسط العلاقة المشتعلة بين الملك وأمه بدأت المساعي لإثناء جلالة الملكة عن عزمها على إتمام زواج الأميرة فتحية من رياض غالي؛ حيث أوفد الملك أحد أقاربه وهو إلهامي باشا حسين إلى الولايات المتحدة في محاولة لإقناع الملكة للعدول عن رأيها والعودة إلى مصر، كما اتصل وكيل مجلس البلاط أحمد كامل بالملكة أيضًا، وتدخل النحاس باشا شخصيًّا وأجرى مكالمة طويلة مع الملكة نازلي وأوضح لها عواقب زواج الأميرة فتحية من رجل مسيحي وبدون موافقة الملك أو مجلس البلاط، ولكن كل هذه المحاولات كانت قد باءت بالفشل، حتى إن الأميرة فوزية اتصلت بأمها وشقيقتها الصغرى فتحية واستحلفتها بروح أبيها الملك فؤاد حتى تعدل عن قرارها وتعود إلى مصر لتتزوج رجلًا يتناسب ومكانتها كأميرة من أسرة عريقة، لكن كل تلك المحاولات ذهبت دون جدوى، فقد كان رياض غالي قد أحكم السيطرة تمامًا على الأميرة فتحية التي تعلقت به أشد التعلق وكان هو مصدر الحنان الوحيد في غربتها أثناء إقامة أمها في المستشفى.

ولم تتوقف المحاولات على ذلك، بل بذلت الأوساط السياسية في القصر جهدًا كبيرًا بالاتصال برياض غالي لإثنائه عن الزواج من الأميرة فتحية؛ مرة بالتهديد بقتله ومرة بالتلويح ببعض الوعود الملكية إلى حد إغرائه بمنصب سفير لأي بلد يريده، لكنه كان يرفض، وفي كل مرة تزداد ضغوط القصر يزداد إصرار الملكة نازلي على مساندتها للاختيار الخاطئ الذي اختارته ابنتها، وكأن مصير ومستقبل ابنتها ورقة من أوراق الكوتشينة تقامر بها لمجرد إيلام ابنها الملك فاروق، غير عابئة بعواقب

ذلك الزواج غير المتكافئ على جميع الوجوه، فقد كان رياض غالي أكبر من الأميرة فتحية بأكثر من أحد عشر عامًا، يضاف إلى ذلك أنه غير مسلم وغير متعلم ولا يملك غير مرتبه الذي انقطع بعد إعلانه الزواج من الأميرة فتحية، وبالتالي أصبح عالة على الملكة والأميرات من اللحظة الأولى، لا يملك حتى ثمن الوجبة التي يتناولها.

وكان رياض غالي يتعمد نشر آرائه في الصحف الأمريكية التي كانت تتابع أخبار زواجه من الأميرة فتحية ابنة الملك فؤاد وشقيقة الملك فاروق من رجل عادي ليس من الأمراء كقصة مثيرة؛ حيث صورت الصحف رياض غالي بصورة روميو الشجاع الذي يضحي بكل الإغراءات المعروضة عليه في سبيل الفتاة التي يحبها، حتى لو كلفه ذلك حياته.

والسؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا جميعًا: هل أحب رياض غالي الأميرة فتحية فعلًا، أم أنه وجد الحياة مع ملكة وحيدة وفتاة صغيرة بلا خبرة وهذا الكم من الثروة أفضل من كل الإغراءات المعروضة عليه من الحكومة المصرية، والتي يمكن أن تلغى في أي لحظة، فيخرج من المولد بلا حمص؟ بالإضافة إلى: من يضمن الملك فاروق، فربما ينتقم منه فيما بعد ويقتله. بالطبع لم يفكر رياض غالي لحظة واحدة في أن يترك الأميرة فتحية، فقد كانت شديدة التعلق به وكان هو بالنسبة لها الرجل الوحيد الذي أحبته، والأب الذي لم تعرفه، والأخ الذي حرمتها الأقدار منه، فهل استمر الحب إلى النهاية؟

عمومًا لن نستبق الأحداث لنجيب عن تلك التساؤلات وأنا شخصيًّا لا أستبعد أن رياض غالي قد أحب بالفعل الأميرة فتحية، ولم لا، وهي فتاة بريئة من عائلة عريقة ذات شخصية جذابة ومسحة من جمال أوربي وبريق لا يمكن أن تصل إليه فتاة في سنها اكتسبته من تاريخ عائلتها العريق، بالإضافة إلى أن الزواج من أصغر أميرات العائلة العلوية التي حكمت مصر طوال قرنين من الزمان شيء مغرٍ لأي إنسان، فالزواج سيدخله التاريخ وسيضعه في مكانة عالية عندما يصبح نسيبًا لملك مصر؟

وإذا كان هذا هو تفكير شاب مصري طموح لديه أطماع في الجاه والثروة، فما هي وجهة نظر ملكة حملت تاج مصر أكثر من ثلاثين عامًا (تم تتويج نازلي كملكة عام ١٩١٩ حتى عام ١٩٥١ تاريخ خلع الألقاب عنها)؟ لماذا تصرفت الملكة نازلي بهذا القدر من اللامبالاة فتوافق على أن تزوج ابنتها من رجل غير مسلم لا أحد يعرفه ولا تعرف هي شيئًا عن تاريخه أو أصله أو ما يضمره في نفسه، فتحرم ابنتها من حقوقها

في الثروة واللقب، وقبل كل ذلك تحرمها من عطف أخيها وهيبة عائلتها لتعيش معها في الغربة وحيدة حتى آخر لحظة من عمرها؟

هل كانت الملكة نازلي امرأة غير حكيمة إلى هذه الدرجة، أم أنها كانت تريد بالفعل الابتعاد عن ضغوط الحياة السياسية المعقدة لتبدأ كما قالت بداية جديدة كامرأة عادية؟ ولكن ما ذنب فتاة صغيرة مثل الأميرة فتحية لا تعرف أي شيء عن الحياة؟ ولماذا لم تنصحها أمها الملكة وتبصرها بعواقب زواجها من رجل غير مسلم؟ ولماذا تحدت الملكة ابنها الملك فاروق ولم تستشره في زواج بناتها، هل كانت تريد بالفعل إيلامه، أم أنها فقدت الثقة به بعد أن زوَّج شقيقته فوزية زواجًا سياسيًّا تعيسًا؟

ربما عوامل عديدة هي التي دفعت الملكة نازلي لتزوج ابنتيها الصغيرتين بأشخاص عاديين، لكن كان الأهم بالنسبة إليها أن تنتقم من ابنها الملك فاروق الذي اعتبرت تجاهله لها أثناء مرضها ومعاداته لها نوعًا من الجحود يجب الرد عليه، ولو كان الضحيةَ بنتاها، فحكمت عليهما بالنفي من العائلة ومن الوطن وفتحت عليهما باب الجحيم لأقدار درامية أبعد من الخيال.

ولكن لماذا تعلقت الأميرة فتحية برياض غالي، رغم أنه لم يكن بالرجل الوسيم ولا صاحب الشخصية اللامعة؟

الحقيقة أن الأميرة فتحية كانت قد وقعت فريسة سهلة في يد رجل محنك مثل رياض غالي، انتهز فرصة مرض الملكة نازلي شهورًا طويلة في فرنسا وفي أمريكا ليوقع بتلك الفتاة الصغيرة التي لا تملك أي خبرة في الحياة. ودعونا نستعرض بإيجاز حياة الأميرة فتحية أصغر بنات الملكة نازلي والملك فؤاد.

فقد ولدت فتحية في قصر عابدين يوم ١٢ ديسمبر عام ١٩٣٠، وعندما مات أبوها الملك فؤاد الأول عام ١٩٣٦ كانت الأميرة فتحية تبلغ من العمر ست سنوات فقط، وكانت «آتي» كما كان يناديها والدها الملك فؤاد من أكثر بنات الملكة نازلي تدليلًا نظرًا لصغر سنها وملاطفتها المحببة لكل من حولها، كما كانت أقرب شقيقات الملك فاروق إلى قلبه نظرًا لحداثة سنها وروحها الجميلة ومداعباتها المسلية، وكانت الأميرة فتحية هي الوحيدة التي ترافق أمها في قصر رأس التين عندما تنتقل العائلة إلى الإسكندرية في أشهر الصيف، بينما كانت الأميرات فوزية وفايزة وفايقة يقمن مع شقيقهم ووالدهم الملك فؤاد في قصر المنتزه، فقد كانت الملكة لا تطيق فكرة أن

تفارقها، وعندما أصرت الملكة نازلي على مغادرة قصر عابدين بعد تصاعد خلافاتها مع الملك فاروق لتعيش في قصر أبيها عبد الرحيم باشا صبري في حي الدقي انتقلت الأميرة فتحية لتعيش معها وكان عمرها وقتها ستة عشر عامًا، وظلت مقيمة مع أمها في الدقي رافضة الإقامة في قصر القبة مع شقيقها وشقيقاتها حتى غادرت مصر مع أمها في رحلة العلاج عام ١٩٤٦، وكانت الأميرة فتحية تعلن دائمًا أنها لا تتصور يومًا لا ترى فيه جلالة الملكة، أو هكذا كانت تحب أن تناديها، فقد كان نادرًا أن يخاطب أحد من أبناء الملكة نازلي أمه بكلمة ماما أو مامي، حيث اعتاد الجميع بمن فيهم الملك فاروق مخاطبتها بكلمة ماجيستي.. (حديث الأميرة فتحية في جريدة لوس أنجلوس ١١ سبتمبر ١٩٧٦).

كانت الأميرة فتحية مثلها مثل بقية أبناء الأسرة الحاكمة تحصل على تعليمها على يد معلمين داخل القصر ليلقنوها أصول اللياقة والبروتوكول وآداب الحديث، بالإضافة إلى تعلم اللغات الأجنبية مثل اللغة التركية والإنجليزية والفرنسية التي تتقنها الملكة نازلي، إلى جانب بعض الدروس في اللغة العربية والدين الإسلامي وقواعد الحساب، وبالتالي فقد شبت فتحية كأميرة ليس لها أي خبرة في الحياة، ومن ثم كان سهلًا على رجل مثل رياض غالي أكبر منها بأحد عشر عامًا أن يوقع بها ويستولي على عقلها وعلى قلبها، وأن يجعلها عجينة لينة بين أصابعه.

كان الملك فاروق يعرف كل ذلك، كما كان يعرف أن «آتي» كانت ضحية الصراع بينه وبين أمه الملكة نازلي، ولولا هذا الصراع ما جرؤت على التعلق بهذا الشخص الذي لا يمكن أن تقبل به أي عائلة مصرية محترمة. كان الألم يمزق قلب وعقل الملك فاروق وكان يريد أن يعيد فتحية إلى مصر بأي وسيلة حتى يجنبها المصير المظلم مع رجل مثل رياض غالي، وعلى الفور استدعى الملك وزير خارجيته «أحمد خشبة» وطلب منه إيجاد حل سريع لعودة الأميرتين فتحية وفايقة إلى مصر بأسرع وقت ممكن. وفكر وزير الخارجية قليلًا ثم طلب من الملك الموافقة على إلغاء تأشيرتي الأميرتيْن إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وبالتالي يكون وضعهما هناك غير قانوني وبالتالي ستباشر السفارة المصرية في واشنطن أمر ترحيلهما إلى مصر فورًا. كان كلام وزير الخارجية مقنعًا وشعر الملك فاروق بالراحة وأمر وزير خارجيته بتنفيذ المهمة بأسرع وقت ممكن.

وفي ١١ أغسطس عام ١٩٤٩ نشرت صحيفة «النيويورك تايمز» أن الحكومة

المصرية قد ألغت تأشيرة دخول الملكة نازلي والأميرتين فايقة وفتحية إلى الولايات المتحدة؛ وبناءً عليه فقد طلبت الحكومة المصرية رسميًّا من الحكومة الأمريكية ضرورة ترحيل الملكة نازلي والأميرتين من الولايات المتحدة وعودتهما فورًا إلى مصر، كما نشرت الصحيفة أن الحكومة الأمريكية قد أحالت الأمر إلى قسم خدمة الهجرة لبحث الموقف.

وما إن علمت الملكة نازلي بالخبر حتى انخلع قلبها وطلبت على الفور صديقها السيناتور كلارنس سان روز تستشيره في الأمر وتطلب منه مساعدتها في وقف الترحيل من الولايات المتحدة. وعلى الفور أجرى السيناتور اتصالاته لمنح الملكة نازلي ومن معها فرصة لتحسين وضعهن وتقديم التماس بطلب الإقامة داخل الولايات المتحدة. وبالفعل قدمت الملكة نازلي التماسًا تعرض فيه الوضع الشائك بينها وبين ابنها الملك فاروق واستحالة عودتها إلى مصر حتى لا تعرض حياة ابنتيها للخطر، وقد طلبت الملكة في التماسها ضرورة منحها الإقامة في الولايات المتحدة على اعتبار أنها ستقوم باستثمار أموالها في مشاريع داخل الولايات المتحدة الأمريكية، وقد أرفقت التماسها بصورة من حساباتها البنكية التي قدرت وقتها بمبلغ عشرة ملايين دولار (نصف مليون جنيه مصري)، وقد تولى مكتب المحاماة الشهير «جاكوب بنتلي» تقديم الالتماس لمحكمة الهجرة استمرت أكثر من عشرة أيام حكم فيها القاضي للملكة نازلي بحق الإقامة المؤقتة داخل الولايات المتحدة لها ولابنتيها ومستشارها الخاص رياض غالي، ووقف جميع إجراءات الترحيل.

شعرت الملكة لأول مرة أن الحرب بينها وبين ابنها الملك فاروق قد بدأت في الاشتعال، وأن الملك لن يتورع عن فعل أي شيء حتى لا تتزوج الأميرة فتحية من رياض غالي، خاصة أن السفارة المصرية بدأت تشدد الرقابة عليهن أثناء إقامتهن في فندق «أدولف أستوريا» في نيويورك؛ حيث كانت ترى من شباك جناحها الخاص في فندق بعض الأشخاص الذين ينتظرون خارج بوابة الفندق طوال الأربع والعشرين ساعة، وخوفًا من أن يقوم الملك فاروق بعمل متهور ضد رياض غالي، قررت الملكة أن ترحل في سرية تامة إلى ولاية كاليفورنيا؛ حيث وصلت إلى مدينة سان فرانسيسكو في ١٤ نوفمبر عام ١٩٤٩ لتقيم في فندق فرمونت الشهير؛ حيث تم حجز الجناح الملكي لها وكان ثمن الليلة وقتها ٢٥٠ دولارًا.

ولم تهدأ الملكة بل كشفت للصحف عقب وصولها إلى مدينة سان فرانسيسكو

حقيقة الخلاف بينها وبين ابنها الملك فاروق الذي يميل إلى السيطرة ويريد أن يحطم قلب شقيقته الأميرة فتحية، من خلال حديث نشرته صحيفة سان فرانسيسكو كرونكل في ٢٥ نوفمبر عام ١٩٤٩ حيث عبرت الملكة نازلي عن دهشتها من غضب ابنها الملك فاروق ورفضه الشديد لزواج أخته من رجل عادي من عامة الشعب، وقالت إن رياض غالي أعلن إسلامه رسميًّا، وبالتالي فإن زواجه من ابنتها يعتبر شرعيًّا وغير مخالف لأحكام الدين الإسلامي الذي يمنع زواج المسلمة من غير المسلم، وأضافت أنها ستساند ابنتها في الزواج بمن تحب، وأن سعادة ابنتها أهم من كل التقاليد البالية، وأشارت الملكة إلى أنه ليس من حق الملك ولا الحكومة المصرية فرض الوصاية على ابنتيها الأميرة فايقة والأميرة فتحية لأن كلًّا منهما قد تجاوزت سن الرشد (تقصد سن الثماني عشرة سنة)، على الرغم من أنها تعرف أن سن الرشد في مصر هي واحد وعشرون عامًا.

ولم تنتهِ مفاجآت الملكة نازلي؛ حيث أعلنت وسط كل هذه العواصف انتماءها إلى الكنيسة الكاثوليكية لتتحول إلى الديانة المسيحية بعد أن أطلقت على نفسها اسم «ماري إليزابيث»، وقالت إنها عاهدت نفسها وهي تصارع الموت في مستشفى مايو كلينك إن نجت ستبدأ بداية جديدة وستعود إلى دين أجدادها. وبالطبع كانت تشير إلى جدها سليمان باشا الفرنساوي الذي كان يعتنق الديانة المسيحية الكاثوليكية قبل قدومه إلى مصر واعتناقه الديانة الإسلامية.

كانت الحكومة المصرية تدفع مبلغًا قدره خمسة آلاف دولار شهريًّا للملكة وألفان وخمسمائة للأميرة فتحية، ومثلهما للأميرة فايقة، كما كانت تتكفل بدفع جميع فواتير الإقامة في الفنادق. أما المشتريات والأمتعة الشخصية فقد كانت تصرف من حساب الخاصة الملكية التي كات تتولى إدارة الممتلكات الشخصية للعائلة المالكة.

وأمام تصاعد الأحداث وعناد الملكة نازلي وإصرارها على عدم الالتزام بقرار الحكومة المصرية بضرورة عودة الأميرتين فايقة وفتحية، تم قطع المبالغ المالية التي كانت تصرف لها وللأميرتيْن، كما قررت الحكومة سحب كل الحاشية التي كانت ترافقهن وإعادتها إلى مصر على اعتبار أنهم موظفون في الحكومة المصرية.

وقد علقت الملكة على تلك القرارات في إحدى الصحف بلغة ساخرة؛ حيث قالت باللغة الإنجليزية تعليقًا على قرار الحكومة المصرية بقطع المساعدات المالية: «إذًا يجب عليَّ الآن أن أبحث عن عمل». وقد تعمدت الصحيفة أن تشير إلى أن

الملكة لا تحتاج إلى أموال الحكومة المصرية وأنها تملك ثروة كبيرة ومجموعة من المجوهرات تقدر بأكثر من خمسة ملايين دولار؛ حيث إن الملكة نازلي تعتبر من القليلات اللاتي يمتلكن مجموعات رائعة ونادرة من المجوهرات، وأشارت الصحيفة إلى أن الملكة لا تحتاج إلا أن تبدأ بداية جديدة في بلاد الحرية.

هكذا ظهرت الملكة نازلي أمام الرأي العام الأمريكي بصورة الملكة المتحضرة التي تضرب عرض الحائط بكل التقاليد والأعراف الملكية من أجل سعادة ابنتها؛ حيث غازلت من اللحظة الأولى المجتمع الأمريكي الذي يؤمن بالحرية ويرحب بالثورة على التقاليد البالية.

عن أي بداية كانت تتحدث الملكة نازلي؟ نحن نتحدث هنا عن ملكة وأم ملك لدولة عريقة مثل مصر كان عمرها عام ١٩٥٠ ستة وخمسين عامًا، فأي بداية يمكن لامرأة في سنها ومكانتها أن تبدأها؟ ولماذا كل هذا الإصرار على التخبط والرغبة في تدمير الذات وتدمير كل من حولها دون حساب لعواقب الأمور؟

لا أحد يعرف طبيعة شخصية الملكة نازلي، ولا أحد يستطيع التعاطف معها حتى ولو اعتبرنا أنها سيدة غير متعلمة تتصرف دائمًا بردود الأفعال بدون حكمة أو روية، ولكن هل عمى الحقد على ابنها الملك فاروق قلبها إلى هذا الحد بحيث تصر على إحراجه وجرح مشاعره وتشويه صورته وزلزلة عرشه، أم أن ما فعلته لا ينم إلا عن امرأة أنانية غير مبالية لا يهمها عواقب أفعالها حتى لو كان الثمن أبناءها؟

لا توجد إجابة وافية عن كل تلك التساؤلات ولا نملك إلّا أن نرصد تحركات الملكة نازلي وابنتيها الأميرتين فايقة وفتحية من خلال ما نشرته الصحف والمجلات الأمريكية، وأيضًا نتتبع بعض التفاصيل التي وردت في الأوراق الحكومية، مثل حسابات وأرصدة الملكة نازلي والتي كانت تقدر بحوالي عشرة ملايين دولار، هذا بخلاف ثروتها من المجوهرات، فمن أين جاءت الملكة نازلي بكل هذه الأموال؟ وهل كانت بالفعل تخطط لعدم العودة إلى مصر مرة أخرى؟

يقال إن الملكة نازلي عندما غادرت مصر إلى باريس للعلاج كان الأطباء غير متأكدين من شفائها، وكانت تعلم أنها لو ماتت فلن يترك الملك فاروق شيئًا من إرثها لشقيقاته، فقد كان الملك معروفًا بعادته السيئة في الاستيلاء على ممتلكات الغير، وكانت هي شاهدًا على ما حدث بينه وبين شقيقته الكبرى فوقية «ابنة الأميرة شويكار» من والده الملك فؤاد، فقد انتهز فرصة إقامتها في باريس مع زوجها السفير

محمود فخري واستولى على كل إرثها في مصر؛ حيث ماطلها عدة سنوات حتى رضيت بمبلغ من المال نظير خروجها من التركة، وبالتالي فقد كانت كل الشواهد تؤكد على عدم ثقة الملكة بابنها الملك فاروق، وربما كان ذلك هو سبب إصرارها على اصطحاب ابنتيها الصغيرتين فايقة وفتحية وأخذ كل مجوهراتها ومجوهراتهما معها إلى أوربا، يضاف إلى ذلك أن الملكة نازلي كانت قد اتفقت مع شقيقها شريف صبري على شراء نصيبها من إرث أمها توفيقة هانم، وكان هذا الإرث يقدر بمائتيْن وخمسين فدانًا إلى جانب بعض العقارات في مدينة الإسكندرية، وعندما اشتد عليها المرض وقررت السفر إلى الولايات المتحدة، طلبت من شقيقها تحويل ثمن البيع إلى أمريكا، يضاف إلى ذلك أن زوجها الملك فؤاد كان قد وضع بعض الأرصدة المالية في أحد بنوك سويسرا باسمها، وقد تم تحويل تلك الأرصدة أيضًا إلى حسابها في بنك أوف أمريكا.

هكذا كتبت الصحف الأمريكية عن ثراء الملكة وعن اختيارها للإقامة داخل الولايات المتحدة الأمريكية، وعن الأشخاص المهمين من المجتمع الأمريكي ممن يؤيدون موقف الملكة، التي كانت تظهر أمام الرأي العام الأمريكي بمظهر المرأة الشجاعة الثائرة على العادات والتقاليد البالية، وعن قوتها وتحديها لابنها الملك الذي يريد أن يحبس شقيقاته في عصر الحريم.

كانت الملكة نازلي تملك من المال والشجاعة ما يكفيها كي تنفذ ما تصر عليه ضاربة عرض الحائط بكل الأعراف والتقاليد الملكية، ففي شهر مايو عام ١٩٥٠ نشرت الصحف خبر زواج الأميرة فايقة من أحد موظفي القنصلية المصرية في سان فرانسيسكو واسمه محمد فؤاد صادق، وكانت الأميرة فايقة تبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا؛ حيث تم الزواج على الطريقة المدنية أي أمام قاضي المحكمة المدنية في الستي هول في مدينة سان فرانسيسكو دون إجراء المراسم الإسلامية، ولم تعلق الحكومة المصرية على الزواج على اعتبار أن فؤاد صادق مصري مسلم، لكن الصحف الأمريكية أشارت إلى حالة الغضب التي اعترت الملك فاروق لعدم الرجوع إليه وأخذ موافقته المسبقة على ذلك الزواج، ولم تعبأ بالطبع الملكة نازلي بما نشرته الصحف، واعتبرت عدم وجود رد فعل عنيف تجاه زواج ابنتها فايقة بداية مطمئنة كي تتم زواج ابنتها الصغرى فتحية، وبعد أسابيع قليلة وفي ٢٥ مايو من نفس العام نشرت الصحف الأمريكية صورًا للعروسين الأميرة فتحية بنت الملك فؤاد

وكان عمرها تسعة عشر عامًا وأربعة أشهر، ورياض غالي الذي يبلغ من العمر واحدًا وثلاثين عامًا بعد أن تم الزواج المدني أيضًا في السيتي هول بمدينة سان فرانسيسكو، وقد نشرت الصحف صورة للعروسين كتب تحتها: «إن الحب انتصر وكان أقوى من إرادة الملوك والتقاليد الكاذبة».

وفي صباح اليوم التالي تم عقد القران على الطريقة الإسلامية حيث عقد القران شيخ باكستاني مسلم، وبدأ حديثه باللغة الإنجليزية أمام عدد من الصحفيين حيث قال: «إن قوة الحب لا يعلمها إلا الله، وفتحية بنت فؤاد لها عظيم الأجر لأنها أدخلت رجلًا إلى دينها الحنيف».

وأمام فرحة الملكة بابنتيها أقامت حفلًا كبيرًا دعت إليه أهم الشخصيات الأمريكية من رجال الأعمال وأعضاء الكونجرس الأمريكي وصفوة المجتمع، في أوتيل فيرمونت الذي تقيم فيه في مدينة سان فرانسيسكو، وكانت الصحف الأمريكية مفتونة بالأجواء الأسطورية التي تضمنها الحفل فنشرت في الصباح التالي صور الأميرات ووصفت حجم المجوهرات التي كانت ترتديها الملكة والأميرات، كما وصفت فستان زفاف الأميرة فتحية الذي صممته خصيصًا كوكو شانيل في باريس، وظهرت صورة الأميرة فتحية وزوجها رياض غالي في الصفحة الأولى من جريدة إل إيه تايمز في لوس أنجلوس يوم ٢٦ مايو عام ١٩٥٠، كما نشرت الجريدة صورة للأميرة فايقة وزوجها محمد فؤاد صادق.

وأمام هذا التحدي السافر لإرادة الملك فاروق والأسرة الملكية المصرية، اجتمع مجلس البلاط الملكي المصري في ٢٦ يوليو عام ١٩٥٠ برئاسة ولي العهد الأمير محمد علي وبحضور أعضاء المجلس؛ حيث تمت الموافقة على خلع جميع الألقاب عن الملكة نازلي والأميرة فتحية ومصادرة جميع أموالهما وممتلكاتهما في مصر، واعتبر المجلس الملكي زواج الأميرة فتحية زواجًا غير شرعي لأن الزوج ليس على نفس ملة العروس وهذا مخالف لأحكام الدين الإسلامي الذي يمنع زواج المسلمة من غير المسلم، وبالتالي وجب التفريق بينهما، كما أمر المجلس أيضًا بضرورة عودة الأميرة فايقة لإقامة مراسم زواجها على الطريقة الإسلامية وإلا اعتبر الزواج باطلًا.

لم تعبأ الملكة بهذه القرارات، بل أعلنت في الصحف أن ما حدث كان أمرًا متوقعًا، أما الأميرتان فقد شعرتا بغضب شقيقهما الملك فاروق الذي لن يغفر لهما ما حدث وأن زواج كل منهما بدون موافقته أو الرجوع إليه كان خطأً فادحًا، كما

شعرتا أن أمهما الملكة نازلي كان همها الوحيد هو إيلامه وكان بإمكانها التفاهم معه حتى لا تتفاقم الأمور إلى هذا الحد، وقد نشرت صحيفة «سان فرانسيسكو كرونيكل» موضوعًا بعنوان «دموع أميرة» في عددها الصادر يوم ٥ أغسطس عام ١٩٥٠ حيث صرحت الأميرة فتحية بأن سعادتها ناقصة بسبب غضب شقيقها الملك فاروق، وأنها كانت تتمنى أن يوافق على زواجها ممن تحب، كما صرحت بأن شقيقتها فايقة ترتب للعودة إلى مصر بعد أن ساءت حالتها النفسية بسبب غضبه الشديد عليهما، وأضافت الأميرة فتحية أن والدها الملك فؤاد قد مات وهي في السادسة من عمرها، وأن شقيقها الملك فاروق الذي يكبرها بأحد عشر عامًا كان بمثابة الأب بالنسبة إليها ويؤسفها غضبه الشديد منها.

كانت فتحية لا تملك الشجاعة للتراجع والعودة إلى مصر، وكانت تعرف أن الملك فاروق لن يبارك زواجها من رجل مسيحي حتى ولو أعلن إسلامه، لكن الوضع كان مختلفًا مع الأميرة فايقة التي كانت تريد العودة إلى مصر لتسترد أموالها ولقبها أفضل من الحياة عالة هي وزوجها على أمها الملكة، خاصة أن زوجها فؤاد صادق أصبح بلا عمل بعد أن فصل من عمله في القنصلية المصرية بسان فرانسيسكو عقابًا له على زواجه من الأميرة فايقة دون الرجوع إلى جلالة الملك أو أخذ إذنه.

ولم تعارض الملكة نازلي قرار ابنتها فايقة، بل تركت لها حرية الاختيار في الحياة معها في أمريكا أو الرجوع إلى مصر؛ حيث اتصلت فايقة بشقيقتها الكبرى الأميرة فوزية وأبدت لها رغبتها في العودة إلى مصر إذا ما ضمنت الأميرة فوزية عفو الملك عنها، وقد وعدتها الأميرة فوزية بتسوية الأمور مع شقيقهما الملك كي يمنحها عفوه ويوافق على زواجها بالطريقة الإسلامية؛ لذا قررت الأميرة فايقة العودة إلى مصر بعد أن أرهقتها الغربة والصراع الضاري بين أمها وشقيقها طوال السنوات الأربع التي قضتها بصحبة أمها في رحلة العلاج؛ حيث عاشت غريبة وسط صقيع أوربا وأمريكا مع أم لا يشغل بالها إلا أن تعاند ابنها الملك بردود أفعال لا ينتج عنها غير الثورة والغضب ومزيد من الصراعات التي لا تحتمل.

وبعد عودة الأميرة فايقة أصبحت فتحية وزوجها رياض غالي هما كل ما تبقى للملكة نازلي، فقد انقطع الاتصال بينها وبين كل من تعرفهم في مصر، حتى إن شقيقها شريف باشا كان قد أصيب بذبحة صدرية كادت تودي بحياته بعد قرار مجلس البلاط برفع الألقاب عنها وحرمانها من ممتلكاتها، ولم تجرؤ الملكة نازلي على الاتصال

به للاطمئنان عليه، فقد كان ثمن زواج الأميرة فتحية من رياض غالي أكبر بكثير مما تصورت الملكة نازلي التي أعطت لأصدقائها قبل أعدائها الفرصة للحكم عليها بأقسى الأحكام دون أي فرصة للدفاع عنها، ولم يجرؤ أحد بعد ذلك على الاتصال بها فقد فضل الجميع القطيعة إما عن اقتناع بأن ما فعلته كان من أكبر الأخطاء وإما إرضاءً للملك.

وانقطعت أخبار الملكة نازلي وابنتها فتحية عن مصر وانشغل الملك بحياته وصراعاته السياسية وبدأ يفكر في الزواج مرة أخرى لإنجاب ولي للعهد، وكان سعيدًا أنه تخلص أخيرا من أمه الملكة التي كانت أخبارها تؤرق حياته وتسبب له الكثير من العصبية والإرهاق النفسي، كما كانت سعادته بالغة لاستيلائه على ممتلكاتها هي وشقيقته فتحية؛ حيث اعتبر أن الاثنتيْن قد ماتتا في حادث طائرة (هكذا كان يردد الملك فاروق أمام الكثيرين ـ صلاح الشاهد).

لكن امرأة بعناد الملكة نازلي لم تعبأ بكل ذلك وقررت أن تعيش حياتها بالطريقة التي اختارتها ولا تنظر وراءها أبدًا؛ حتى لا تشعر لحظة واحدة بالخوف من المجهول الذي ينتظرها، وكانت تتصور أن صلابتها وجرأتها وما لديها من أموال سيحميها من غدر الدنيا ومن السؤال، غير أن الأيام كانت تحمل لها كثيرًا من المفاجآت التي لم تخطر على بالها.

الحياة في لوس أنجلوس

لم تكن الحياة في سان فرانسيسكو داخل أوتيل تناسب الملكة وعائلتها الجديدة، خاصة أن الخارجية البريطانية كانت قد أخطرت الخارجية الأمريكية بأن محاولة اغتيال رياض غالي على يد أحد أفراد الجماعات الإسلامية المتشددة أمر وارد، فقررت الملكة شراء منزل في مدينة لوس أنجلوس للإقامة فيه دون أن تعلن ذلك لا للصحافة ولا للمصريين المقربين منها وقررت أن تعيش فترة في هدوء دون أي نشاط يذكر.

انتقلت الملكة في أغسطس عام ١٩٥٠ للإقامة في مدينة لوس أنجلوس وقد اختارت قصرًا صغيرًا في حي المشاهير والأثرياء في منطقة بيفرلي هيلز، في أغلى منطقة فيه وهي منطقة «رود تاور» أو طريق البرجس، مساحته ١٨٠٠ متر مربع، يحتوي على خمسة أجنحة للنوم وحمام سباحة وملعب للتنس، كما اشترت الملكة أيضًا منزلًا في منطقة قريبة من البحر في حي «سانت مونيكا» في لوس أنجلوس، وشاليه في جزيرة هاواي، وكانت الملكة قد احتفظت بسيارتها «الرولز رويس» التي كانت قد اشترتها أثناء إقامتها في نيويورك واشترت لفتحية ورياض غالي عربة مرسيدس هدية زواجهما.

كانت الحياة في البداية امتدادًا لحياة الثراء التي اعتادت عليها كل من الملكة نازلي والأميرة فتحية؛ حيث تم تأسيس منزل بيفرلي هيلز بأفخر أنواع الأثاث وتم تعيين عدد من الخادمات؛ اثنتين لخدمة الملكة وواحدة للأميرة فتحية، بالإضافة إلى اثنين من الطباخين الإسبان واثنيْن من السفرجية، هذا بخلاف الكوافير الخاص ومدرب للكلاب والجنايني ومنظف حمام السباحة؛ حيث كانت تكلفة هذا الحشد من الخدم تقدر بعشرة آلاف وخمسمائة دولار شهريًّا.

عاشت الملكة نازلي وابنتها الأميرة فتحية وزوجها رياض غالي في لوس أنجلوس؛ حيث شهد قصر بيفرلي هيلز في البداية لحظات الهناء والسعادة التي حلمت بها الملكة نازلي، بعيدًا عن مؤامرات القصر وجحيمه، وكانت الملكة نازلي

تتعامل مع الطبقة الأرستقراطية الأمريكية في مجتمع بيفرلي هيلز ببساطة شديدة؛ حيث كان يناديها الجميع باسم مسز «ماري إليزابيث»، وكانت الأميرة فتحية تلقب باسم مسز «جالي»، وكان المقربون لها من الأصدقاء ينادونها باسم «آتي» اسم الدلع لفتحية بدون ألقاب أيضًا، فقد كانت الملكة نازلي تستمتع بالحياة مثل أي امرأة ثرية عادية بلا التزامات ولا ضغوط سياسية، وكان المصريون فقط بمن فيهم رياض غالي هم الذين يظهرون أمامها مظاهر الولاء ويبدءون الحديث معها بكلمة «يور ماجيستي» أو جلالتك وكانت هي سعيدة بذلك.

وفي قصر بيفرلي هيلز الصغير كانت تقام الحفلات الفاخرة التي يحضرها صفوة المجتمع الأمريكي من أثرياء بيفرلي هيلز وبعض نجوم السينما وبعض المصريين الأثرياء المقيمين في أمريكا أمثال المليونير السكندري «أنتونيادس» وفاطمة هانم شيرين حرم حسن طوسون، وشقيقتها أمينة طوسون، وكانت الأولى قد تزوجت من أحد الأثرياء البرازيليين وتعيش أيضًا في بيفرلي هيلز، وفي هذه الحفلات كان يتم تقديم أفخر أنواع الأطعمة والخمور وإحضار أشهر الفرق الموسيقية للعزف، ويقال إن الملكة نازلي قد دعت في إحدى هذه الحفلات المغني الأمريكي الشهير فرانك سيناترا حيث استمتع الحاضرون بغنائه طوال الحفل.

كانت الأمور تدار ببساطة طالما أن المال متوفر ولا شيء يعكر صفو الحياة وطالما أن الملكة سعيدة لا ينغص أحد حياتها، وطالما أن أحب بناتها إلى قلبها تعيش مع من تحب في سعادة وهناء، وقد أنجبت فتحية ابنها الأول رفيق عام ١٩٥٢ وأصرت الملكة على استحضار مربية سويسرية لرعايته، ثم أنجبت بعد ذلك ابنها الثاني رائد عام ١٩٥٤ ثم ابنتها رانيا عام ١٩٥٦.

عاشت فتحية مع رياض غالي في البداية حياة هانئة وكان هو يدير لهم الحياة بالطريقة التي يرغبونها وكانت الملكة تثق به ثقة عمياء فتركت له إدارة أموالها وسحب ما يشاء لتسديد الفواتير والمصروفات التي كانت تصل أحيانًا إلى أكثر من ثلاثين ألف دولار في الشهر، ولم يكن رياض غالي الذي تزوج الأميرة ليصبح أميرًا ولو بأسلوب الحياة على استعداد لأن يعمل أو أن يتحمل حتى أعباء أسرته، فقد تزوج من الأميرة ليستمتع بحياة الثراء ينفق ما يشاء بدون حساب، وكان يردد دائمًا (I'm not a man from 8 to 5) أي أنه ليس بالرجل الذي يعمل في مواعيد منتظمة من الثامنة إلى الخامسة. كانت الحياة بهذه الطريقة غريبة على المجتمع الأمريكي الذي يعمل كل

فرد فيه لمواجهة ظروف الحياة، ولكن من الذي كان من الممكن أن يعمل؟ الملكة التي عاشت حياتها تؤمر فتطاع، أم الأميرة التي كانت تأتيها الملابس من أكبر بيوت الأزياء العالمية فتختار ما تشاء دون أن تسأل عن الثمن، أم رياض غالي الذي يقوم بتنظيم السهرات والحفلات يوميًّا للملكة والسهر حتى مطلع النهار؟

كان شكل الحياة بهذه الطريقة الصاخبة وبحجم الإنفاق الكبير قد جعل العائلة مطمعًا للكثيرين، بدءًا من محترفي تزوير الفواتير التي لا يراجعها أحد، إلى الخدم الذين كانوا يستولون على أي شيء أمامهم، وعند اكتشاف سرقاتهم كانوا يفتعلون الخلافات للحصول على تعويضات باهظة، وقد نشرت صحيفة (LA. Times) في عددها الصادر في مارس عام ١٩٥٤، أن إحدى المربيات الأمريكيات واسمها «جوليا أندرسون» قد أقامت دعوى تطالب الملكة نازلي بتعويض قدره مليون دولار بسبب ما أصابها من أضرار بعد أن عضها كلب الملكة وأصابها بعاهة مستديمة، ومن المضحك أن كلب الملكة كان من النوع الجريفون الصغير الذي لا يستطيع أن يؤذي ذبابة، كما أشارت الصحيفة، وهناك دعوى أخرى من أحد العاملين في الحديقة والذي يطالب بتعويض عن الأضرار التي لحقت به بعد أن جرحت قدمه جرحًا غائرًا بسبب شظايا زجاج كانت متناثرة على الأرض إثر سقوط أحد الأكواب.

وسواء كانت هذه الادعاءات حقيقية أم كاذبة، فكلها تشير إلى أن الملكة نازلي لم تفرق بين الحياة داخل القصور الملكية المصرية؛ حيث كان هناك مئات من الخدم والشمشرجية والوصيفات يتابعون الحياة ويشرفون على كل صغيرة وكبيرة في نظام محكم حتى لا تظهر أي أخطاء، وبين الحياة العادية التي تحتاج إلى من يتابعها ويديرها ويشرف على نظامها، فلم تكن لا الملكة نازلي ولا الأميرة فتحية لديهما لا الخبرة ولا الوقت لعمل ذلك فقد تركا كل شيء في يد مجموعة من الخدم استغل بعضهم الفرصة أسوأ استغلال إما بالنصب عليهم وإما بسرقتهم وإما ببيع تفاصيل حياتهم للصحف والمجلات التي اعتادت أن تشتري النميمة عن تفاصيل حياة الأثرياء لتعيد نشرها من جديد؛ حيث كانت تلك الصحف تنشر تفاصيل الحفلات التي تقام كل ليلة وأسماء الذين حضروا الأمر الذي جعل الكثيرين يترددون قبل قبول أي دعوة لحضور حفلات الملكة نازلي، فقد أظهرت الصحف الحياة التي تعيشها الملكة نازلي بصورة أثارت في نفوس الأمريكيين مشاعر الحقد والغضب؛ نظرًا لحجم الأموال التي تصرف كل يوم على تلك الحياة الفارغة، التي أتاحت

الفرصة لبعض المغامرين والأفاكين والانتهازيين للحصول على أي مبالغ مرة عن طريق المساومة ومرات عن طريق رفع القضايا ضدهم والحصول على تعويضات مالية بأي شكل من الأشكال.

تقول الأميرة فتحية في آخر حديث لها في جريدة (LA. Times) في أغسطس عام ١٩٧٦، أي قبل وفاتها بثلاثة أشهر بمناسبة إعلان إفلاس الملكة وبيع ممتلكاتهما في مزاد علني:

> «الكلام عن حياة الثراء واللامبالاة التي كنا نعيشها، فيه شيء من المبالغة. فقد كنا نعيش مثل الناس العادية في مجتمع الأرستقراطية الأمريكي في بيفرلي هيلز وكنا محاطين بدائرة صغيرة من الأصدقاء، ولم يكن لدينا سوى خادمتين؛ واحدة لأمي المريضة وواحدة تشرف على أمور المنزل والأولاد».

وعندما سألها المحرر عن شائعة إنفاق عشرين ألف دولار على إحدى الحفلات قالت:

> «مثل هذا الكلام لم يحدث فقد كنا نستقبل قلة قليلة من الأصدقاء وكنا نقيم بعض حفلات العشاء البسيطة التي كنت أشرف بنفسي على إعداد الطعام فيها والذي يعتبر من أهم هواياتي، وبعد أن أنجبت أبنائي رائد ورفيق ورانيا أصبحت أكثر التصاقًا بهم وعكفت على رعايتهم وتوقفت عن السفر والسهر وعشت مثل أي سيدة مصرية تترك كل المسئوليات لزوجها وتكتفي هي برعاية أسرتها وأمها المريضة. وأما ما أثير حول الحفلات الصاخبة ومظاهر البذخ الذي كنا نعيش فيه فليس له أي أساس من الصحة، ولا يخرج عن كونه إشاعات مغرضة حاولت تصويرنا بصورة غير لائقة».

كان هذا كلام الأميرة فتحية، لكن الحقيقة أن الملكة اضطرت أن تدفع مبالغ كبيرة من المال على سبيل التعويضات كي تسكت ألسنة الصحافة، وكان أكبر مبلغ دفعته مليونًا وثلاثمائة ألف دولار قيمة التعويض المدفوع لدار النشر «بوتنام» بعد أن تراجعت الملكة عن تنفيذ العقد المبرم معها لنشر مذكراتها.

وكانت الملكة قد وقعت في ديسمبر عام ١٩٥٢ أي بعد تنازل الملك فاروق عن عرشه، عقدًا لنشر مذكراتها مقابل مليون دولار، بعد أن أقنعتها صديقتها الكاتبة الأمريكية «كيت هوليداي» مؤلفة كتاب Troop Ship أو سفينة المحاربين، أن حياتها المثيرة كملكة وأم لآخر ملوك مصر يجب أن تكتب؛ حيث إن المذكرات لن تسرد

فقط حياة الملكة نازلي بين أروقة القصور وما كان يجري فيها منذ أن أصبحت ملكة على مصر وحتى خرجت لتعيش حياتها كامرأة عادية، ولكنها أيضًا ستكشف النقاب عن علاقتها بابنها الملك فاروق وما حدث في مصر من صراعات سياسية قبل قيام الثورة، وقد وقعت الملكة بالفعل العقد مع دار النشر وتم نشر الخبر في جريدة «نيويورك تايمز» في عددها الصادر يوم ٢٣ ديسمبر عام ١٩٥٢.

ولكن لماذا تراجعت الملكة نازلي عن كتابة مذكراتها، وأخلت بالعقد المبرم بينها وبين دار النشر، وتحملت تبعًا لذلك قيمة الشرط الجزائي الكبير كتعويض لدار النشر بهذه البساطة؟

كان سبب تراجع الملكة عن كتابة مذكراتها، كما ذكرت الصحف الأمريكية، أن الظروف السياسية التي أعقبت رحيل الملك فاروق عن عرش مصر تعقدت أكثر مما كانت الملكة نازلي تتصور؛ حيث إن ضباط الثورة كانوا قد أقاموا محكمة أطلقوا عليها اسم «محكمة الثورة» برئاسة أحد أهم أعضاء مجلس الثورة وهو الصاغ «عبد اللطيف البغدادي»، وكانت هذه المحكمة توجه الاتهامات لكل أفراد العائلة المالكة والمحيطين بهم وتصدر أحكامًا قاسية على المتورطين في فساد الحكم قبل الثورة، وكان من ضحاياها الأمير عباس حليم والأميرة فاطمة طوسون وغيرهما من أفراد العائلة، وبناءً على ذلك وجدت الملكة أن كتابة مذكراتها في الوقت الحالي من الممكن أن تعرض حياة الكثيرين للخطر.

والحقيقة أن الملكة تراجعت عن كتابة مذكراتها بعد أن اتصل بها إسماعيل شيرين زوج ابنتها الكبرى الأميرة فوزية فور نشر خبر تعاقدها مع دار النشر، وقال لها باقتضاب: نرجو أن تراجع جلالتك هذا القرار لأن محكمة الثورة ستستغل هذه المذكرات، أو أي شيء ينشر عن الملك أو الحياة قبل عام ١٩٥٢ كدليل على فساد الحكم يدين الكثيرين ويعرضهم للخطر وعلى رأسهم بناتها وابنها الملك فاروق الذي يمكن أن تصدر محكمة الثورة ضده حكما بإعدامه.

كانت المكالمة مقتضبة وسريعة لكن وقعها كان خطيرًا في نفس الملكة، فقد تداركت الموقف بسرعة وتراجعت عن نشر مذكراتها، وعرفت أن الأمور في مصر أصبحت أكثر تعقيدًا بعد ثورة يوليو، ولم يعد الأمر لعبة أو صراعًا بينها وبين ابنها الملك فاروق يحاول كل منهما أن يغيظ الآخر كما كان في السابق، بل إن هناك أعداء حقيقيين يتربصون بالعائلة كلها.

لذا تراجعت الملكة فورًا عن قرارها بنشر مذكراتها الشخصية، وما كان على دار النشر إلا أن ترفع عليها دعوى تطالبها بالشرط الجزائي الموجود في العقد، وقد حاول محاميها «جي بنتلي» أن يرد الدعوى التي أقامتها دار النشر على الملكة بكل الأسانيد التي تثبت مدى خطورة نشر هذه المذكرات في الوقت الحالي (عام ١٩٥٣)، مؤيدًا موقف الملكة في التراجع عن الاتفاق بسبب الحالة السياسية في مصر، لكن القاضي لم يعبأ بكل تلك الحجج وأصدر حكمه لصالح دار النشر وألزم الملكة نازلي بدفع قيمة التعويض.

هذا نموذج صغير لضريبة الحياة في مجتمع لا يسمح لك بالتلاعب في أي شيء، ولا يسمح باتخاذ قرارات غير مدروسة فالقانون في الولايات المتحدة حاد وصريح لا يفرق بين ملك وصعلوك ولا بين غني وفقير، وسنرى فيما بعد كيف استهانت الملكة نازلي ورياض غالي بتلك القوانين فدفعا الثمن فادحًا.

استمرت الحياة داخل قصر بيفرلي هيلز الصغير كامتداد للحياة في القصور الملكية في مصر؛ حيث البذخ والإسراف الجنوني مما ضاعف حجم الفواتير التي يجب أن تسدد، وكانت الملكة والأميرة لا تعبآن في البداية بحجم الإنفاق، فقد اعتادت كل منهما على ذلك، وكانت بعض الصحف قد أشارت إلى أن محل «نيمن ماركس» الشهير يطالب الملكة بخمسين ألف دولار قيمة فواتير الملابس والهدايا التي اشترتها الملكة لأحفادها أولاد الأميرة فتحية قبل أعياد الكريسماس، أو أن الملكة قد استوردت أثاث حجرة نومها من إيطاليا، وأن الجمارك الأمريكية تحفظت عليها حتى يتم دفع الرسوم المطلوبة، يضاف إلى ذلك حجم ما كان ينفق يوميًّا على الحفلات والسهوات التي كان يتولى ترتيبها رياض غالي؛ حيث كان الطعام يأتي من أفخر محلات أو فنادق لوس أنجلوس.

كانت الملكة لا تعرف غير هذه الطريقة في الحياة وكأنها ما تزال تعيش في قصر القبة أو قصر عابدين، وكانت تغضب أشد الغضب عندما تفاجأ بأن عليها أن تراجع تلك الفواتير وتوقع عليها حتى يتم تسديدها، فقد اعتادت الملكة أن تنفق ما تشاء بغير حساب؛ حيث كان هناك آخرون يقومون بمهمة السداد من حساب الخاصة الملكية دون أن يحاسبها أحد أو يراجعها في الأموال التي تنفقها.

ووسط هذه الحياة الصاخبة كانت الملكة تتابع بين الحين والآخر أخبار مصر عبر الصحف والمجلات، وكانت تشتاق أحيانًا إلى سماع صوت ابنها الملك فاروق،

فكانت تنتهز الفرص للاتصال به، فعندما علمت أنه سيتزوج من ناريمان وشاهدت صورهما في مجلة «التايمز» تملكتها الشجاعة وطلبت قصر القبة لتهنئته؛ حيث كانت مفاجأة للجميع، عندما سمع موظف الاتصالات صوتها وهي تقول: أنا الملكة نازلي؛ حيث أعطى الإشارة على الفور إلى الشمشرجي المناوب محمد حسن، الذي ترك الملكة على الخط وعاد بعد عشر دقائق للرد عليها؛ حيث قال بأدب شديد: إن مولانا غير موجود في الوقت الحالي وعند وصوله سيتم تبليغ جلالته بالاتصال. وشعرت الملكة نازلي بأن خنجرًا قد اخترق قلبها، لهذا الحد كان الملك فاروق قاسيًا متحجر القلب لم تنسه الأيام ما حدث بينهما. كانت الملكة نازلي تتعذب كلما شعرت أنها فقدت ابنها الوحيد وهو على قيد الحياة، لكنها لم تيأس وكانت تصر على أداء الواجب وإرسال برقيات تهنئة في المناسبات المختلفة، فقد أرسلت بعد زواجه من ناريمان برقية تهنئة بالزواج لكنه رفض أن يتسلمها، وعندما أنجب ابنه أحمد فؤاد الثاني أرسلت له برقية تقول فيها: «أحمد الله على أن أمنيتك الغالية قد تحققت»، وقد قرأ الملك البرقية لكنه لم يرد عليها، وعندما قامت الثورة أرسلت له برقية تواسيه فيها، لكنه رفض أن يتسلمها.

محاولات عديدة قامت بها الملكة لاستعادة علاقتها بابنها دون جدوى حتى قامت الثورة وتنازل الملك عن عرشه، ولم تيأس من المحاولة فقد كانت ترسل له برقية تهنئة كل عام بيوم عيد ميلاده وهو في منفاه في روما، لكن الملك لم يرد ولا مرة على تلك البرقيات فقد كان يعتبر أمه الملكة نازلي هي السبب في كل ما حدث له بعنادها وعدم حكمتها وتهورها في اتخاذ القرارات، ولم يكن تحديها له في موضوع زواج الأميرة فتحية السبب الوحيد للقطيعة، ولكن ألمه الشديد منها كان بسبب أنها تخلت عنه وكان هو في أشد الحاجة إليها وسط أعاصير وضغوط الحياة السياسية.

وامتدت القطيعة بين الملكة نازلي وابنها الملك فاروق سنوات طويلة كل منهما كان في منفاه يلعن الآخر ويعتبره سبب حسرته وتعاسته، ولم يحدث أن جمعت الاثنيْن مناسبة واحدة وكأن الفراق كتب عليهما حتى انتهى العمر.

بعد قيام ثورة يوليو، كانت الصدمة شديدة ولم يتصور أحد أن يرحل الملك فاروق عن عرشه بهذه البساطة، وبعد سقوط الملكية في مصر أصابت اللعنة الجميع، وتشتتت العائلة واتسعت الهوة أكثر بين الملكة نازلي وأبنائها؛ حيث خرجت الأميرتان فايزة وفايقة من مصر مع شقيقهم الملك فاروق بعد الثورة، لكنهما اختارا

الإقامة في سويسرا، بينما اختارت الأميرة فوزية الإقامة في مصر مع زوجها إسماعيل شيرين متحملة نصيبها من الأقدار حيث تمت مصادرة مجوهراتها، كما تم طردها من منزلها الذي كانت تحبه في حي المعادي، لتقيم في منزل يمتلكه زوجها على أطراف مدينة الإسكندرية في حي سموحة وارتضت أن تعيش معه هي وولداها نادية وحسين على معاشه الضئيل من الجيش، وقدره ستة عشر جنيهًا مصريًّا فقط، وانقطعت الصلة بين الجميع، وارتضى كل شخص بمنفاه، فلم يعد أحد يريد الاتصال بالآخر حتى لا يذكره لا بأيام المجد ولا بأيام الهوان والتعاسة، وواجهت الملكة نازلي ولأول مرة الحقيقة التي هربت منها طويلا عندما نظرت عبر المرآة المحطمة، فشاهدت وجوه أبنائها متناثرة في كل أرجاء الدنيا يعتصرها الألم وتدميها مرارة السقوط.

لكن امرأة بجسارة الملكة نازلي صعب أن تعترف بأنها كانت من أهم أسباب سقوط عرش ابنها الملك فاروق، ورغم حزنها الشديد على ما حدث لأبنائها بعد ثورة يوليو، فإنها نشرت في صحيفة «النيويورك تايمز» في نوفمبر عام ١٩٥٢ تعليقا يؤكد أن الحياة السياسية في مصر كانت في شدة التعقيد للدرجة التي سهلت قيام الثورة، وكان تعليقها هذا يتناقض تمامًا مع محاولاتها المستمرة للاتصال بالملك فاروق، الذي لم يعر لتصريحاتها أي اهتمام وعاش في منفاه في روما دون أن يفكر في التصالح معها.

واستمرت حياة الملكة نازلي طوال الخمسينيات على نفس النمط السابق، وكانت بعض الصحف تنشر أخبار الملكة وحفلاتها الصاخبة التي كانت تدعو فيها صفوة المجتمع الأمريكي أو تنشر أخبار الحفلات التي كانت تذهب إليها، فقد نشرت صحيفة «LA. Times» في ٧ يناير عام ١٩٥٥ صورة للملكة والأميرة فتحية ورياض غالي في حفل رجل البترول الأمريكي «آرثر كاميرونز» الذي استضاف شاه إيران محمد رضا بهلوي وزوجته الإمبراطورة ثريا وابنته الأميرة شاهيناز (خمسة عشر عامًا) أثناء زيارتهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكان الحفل مقاما على شرف الشاه وحضره عدد كبير من صفوة المجتمع الأمريكي، كما أشارت الصحيفة إلى أن الملكة نازلي ارتدت أفخر الثياب وعقدًا فريدًا من الألماظ والروبي الأحمر يقدر ثمنه بربع مليون دولار، وفي هذا الحفل التقت الملكة نازلي بحفيدتها الأميرة شاهيناز لأول مرة بعد عشر سنوات، فقد رأتها آخر مرة وعمرها خمس سنوات عام ١٩٤٥ عندما كانت الملكة في زيارة إلى طهران لإعادة أمها الأميرة فوزية إلى مصر.

وقد نشرت الصحيفة في اليوم التالي أخبار الحفل الذي أقامته الملكة نازلي لحفيدتها شاهيناز في منزلها في بيفرلي هيلز، وكانت الملكة قد دعت أيضًا الشاه وزوجته لكنهما اعتذرا عن الحضور.

كانت الملكة تتعمد أن تظهر في حفلات المجتمع الراقي الأمريكي بأفخر الثياب والحلي، وكانت الصحف الأمريكية تشير إلى حجم المجوهرات التي تملكها الملكة، بل كان بعض محترفي الثروات يقومون برصد وتصوير تلك المجوهرات كلما ارتدتها الملكة في الأماكن العامة؛ حيث علقت إحدى الصحف على أن الملكة تملك أكثر من خمسين قطعة نادرة من المجوهرات، وبالتالي فقد كان المجتمع الأمريكي يتصور أن الملكة من أغنى الأغنياء دون أن يكون لذلك أي قدر من الحقيقة.

ولكن كيف تلاشت الثروة، وكيف استطاع رياض غالي أن يبدد آخر أحلام الملكة والأميرة؟

بداية الانهيار

بدأت قصة الانهيار عندما وضعت الملكة نازلي ثقتها الكاملة في يد رجل جاهل مثل رياض غالي وأولته إدارة شئون حياتها هي وابنتها، وكانت تتصور أن لديه من الخبرة والدراية ما يمكنه من إدارة الأمور واستثمار بعض الأموال، لكن المشاريع التي قام بها غالي كانت معظمها مشاريع فاشلة، فقد استثمر بعض الأموال في مزرعة للخيول العربية نفق معظمها، وبدأ في المضاربة في بورصة الأوراق المالية فخسر الكثير، ونظرًا لجهله بطبيعة وقوانين المجتمع الأمريكي فقد دخل في مشاريع استثمارية غير مدروسة بمبالغ طائلة مثل استثماره نصف مليون دولار في شركة للتنقيب عن البترول في ولاية نيفادا، وبالطبع اتضح أن الشركة وهمية بالإضافة إلى أن ولاية نيفادا لا يوجد فيها بترول أصلًا.

وتتابعت الخسارات خسارة وراء أخرى، ومع نهاية عام ١٩٥٧ أي بعد ست سنوات من زواج رياض غالي من الأميرة فتحية بدأت الحياة تنكمش قليلًا؛ حيث اضطرت الأسرة إلى الاستغناء عن عدد كبير من الخدم وتم الاكتفاء بخادمة واحدة وسفرجي واحد، ولأن الأميرة فتحية كانت لا تجيد الطهو فقد اقترح رياض غالي أن يأتي بأمه «جليلة مينا» من مصر لتعيش معهم حتى تشرف على المنزل والخدم، ووافقت الملكة، كما وافقت على تقليص المشتريات والمصروفات والاكتفاء بفاتورة واحدة للملابس يتم دفعها مع بداية كل عام.

وبمرور الزمن ضاقت الحياة أكثر وارتفعت تكاليف الحياة ومتطلبات الأبناء الثلاثة رائد ورفيق ورانيا، وزاد السحب من حساب الملكة دون وجود دخل يعوض المصروفات والخسائر التي جناها غالي من مشاريعه الفاشلة، واضطرت الأسرة أن تبتعد قليلًا عن النمط الراقي في الحياة الذي أصبح من الصعب تسديد فواتيره، وتضاعفت المصاريف أكثر عندما وصلت الأميرة فايزة إلى لوس أنجلوس بعد وفاة زوجها في سويسرا، لتقيم مع والدتها، فقد قررت الأميرة فايزة أن تعيش مثل أختها فتحية مع أمها في أمريكا بعد أن نفدت أموالها القليلة التي خرجت بها من مصر، لكن

الحياة في منزل يعيش فيه رياض غالي وأمه جليلة لم يكن بالأمر الهين، ولا الحياة التي ترضى أن تعيشها الأميرة فايزة، فقد اشتعلت الخلافات بين الجميع، وساءت العلاقة بين الأمير فايزة ورياض غالي إلى حد التراشق بالألفاظ، فقد كانت الأميرة فايزة حادة الطباع ووجدت أن رياض غالي يعيش عالة عليهن ويستغل أمها وشقيقتها أسوأ استغلال، كما كانت تعتبره سبب كل المشكلات التي عانت منها الأسرة وسبب القطيعة التي حدثت بين أمها وشقيقها الملك فاروق، وحتى لا تزداد الخلافات بين الشقيقتين فايزة وفتحية كانت الملكة تتكفل بكل مصروفات الأميرة فايزة التي كانت ترفض أن تتواجد في نفس المكان الذي يتواجد فيه رياض غالي، واضطرت الملكة في النهاية أن تعطيها مبلغًا من المال لتشتري شقة في إحدى البنايات الفاخرة في شارع ولشر بوليفار وسط لوس أنجلوس لتعيش فيها.

كانت الملكة نازلي هي مصدر الرزق الوحيد لهذه العائلة ومهما كان لديها من أموال فلا بد أمام كل تلك المصاريف أن تتبخر، وكما يقول المثل الشعبي: «لو كان تل كان اختل» هكذا كان حال رصيد الملكة الذي بدأ يتهاوى مع مرور السنين، وبدأت هي تمل من مراجعة الحسابات والمصاريف، وأمام التفاصيل الكثيرة لتسير الحياة اليومية لم تستطع الملكة نازلي أن تتابع وتراقب إدارة الحياة، ولم يكن أمامها سوى رياض غالي كي تعطيه الحق في سحب أي مبالغ مالية من حسابها للإنفاق على الأسرة ودفع الفواتير الخاصة بموجب توكيل عام لإدارة أموالها.

ومع ضيق الحياة بدأت المشكلات تفرض سطوتها على الجميع وبدأت الأحلام تتسرب من بين أيديهم، واتسعت الفجوة شيئًا فشيئًا بين العاشقين (الأميرة والصعلوك) وتبددت الثقة أمام الأكاذيب التي كان يبرر بها رياض غالي خسارته سواء في لعب القمار أو في الدخول في مشاريع فاشلة، وأمام حجم الأموال المسحوبة من الحسابات البنكية ازداد غضب الملكة وقلت ثقتها برياض غالي الذي كان قد اعتاد المقامرة مثلما اعتاد المغامرة في الدخول في مشاريع غير مدروسة على أمل الحصول بأي شكل من الأشكال على أموال كي لا يظهر أمام زوجته الأميرة وأمها الملكة بمظهر الرجل الفاشل أو العاجز عن تدبير شئون أسرته.

والغريب أن كل المشاريع التي دخل فيها رياض غالي مستخدمًا أموال الملكة كانت باسمه ولم يظهر اسم الملكة على أي أوراق رسمية داخل الولايات المتحدة؛

حيث كان اسم رياض غالي على جميع المبالغ التي تم سحبها من حساب الملكة وعلى أوراق المشاريع التي دخل فيها.

والسؤال الذي يفرض نفسه الآن: لماذا أعطت الملكة نازلي كل هذا الحق وكل هذه الثقة لرياض غالي، وكان بإمكانها أن توكل مهمة استثمار أموالها لإحدى الشركات المتخصصة؟

ولكي نجيب عن هذا السؤال يجب أن نعود إلى عام ١٩٥١، عندما حاولت الملكة أن تحسن صورة رياض غالي وتظهره بمظهر رجل الأعمال الناجح وليس الموظف الصغير الطامع في ثروتها حتى يليق بابنتها الأميرة؛ حيث أقرضته مبلغًا كبيرًا من المال ليستثمره مع أحد أصدقائها من رجال الأعمال الأمريكيين في حقول البترول المكسيكية، ولحسن الحظ نجحت الفكرة واستطاع رياض غالي أن يضاعف من المبلغ الذي اقترضه من الملكة كما استطاع أن يحصل على ربح سنوي مكنه من اكتساب ثقة الجميع، وتصور رياض غالي أنه بذلك قد أصبح من رجال الأعمال، وبدأ في الدخول في مشاريع غير مدروسة فلم يحالفه الحظ بعد ذلك مرة واحدة، ولم يكن رياض غالي ملمًّا بالقوانين الأمريكية ولم يكن على دراية بألاعيب الاستثمارات في الولايات المتحدة، يضاف إلى ذلك عدم متابعته للأعمال التي كان يدخل فيها فقد كان نمط الحياة الذي يعيشه لا يمكنه من فهم ما يدور حوله حيث كان يطيل السهر في الليل والنوم طوال النهار فكان فريسة سهلة لكثير من النصابين ومحترفي سرقة الثروات.

ولكن كيف كان الوضع القانوني لإقامة الملكة نازلي والأميرة فتحية وطبعًا رياض غالي في الولايات المتحدة؟ وهل كانوا يحملون الجنسية الأمريكية؟ وهل كانوا ملتزمين بدفع الضرائب المستحقة عليهم؟ وكيف سمحت لهم الحكومة الأمريكية بالإقامة واستثمار الأموال طوال هذه الفترة؟

تساؤلات عديدة كانت تدور في رأسي وأنا أبحث عن بقايا حياة هؤلاء البشر، وكانت الإجابة عن تلك التساؤلات تمثل بالنسبة لي مفاتيح الصناديق التي ظلت مغلقة على أسرارها أكثر من ثلاثين عامًا، فقد كنت أحاول أن أستكشف شكل الحياة التي كانت تعيشها الملكة وابنتها الأميرة فتحية داخل المجتمع الأمريكي وأوضاعهم القانونية حتى أصل إلى الأسباب التي أدت إلى إعلان إفلاس ملكة مصر عام ١٩٧٣.

والحقيقة أنني بدأت رحلة البحث عن الإجابات الحقيقية لكل التساؤلات السابقة

عام ١٩٩٨؛ حيث بدأت الرحلة بين أروقة مؤسسات عديدة داخل مدينة لوس أنجلوس؛ الأمر الذي استغرق مني أكثر من عام كامل، كنت أقطع المسافة من منزلي في منطقة «أورانج كونتي» حتى مدينة لوس أنجلوس التي تبعد مسافة ١٢٠ كيلو أي ساعة ونصف ساعة، كنت أقطعها مرة بالقطار ومرة بالسيارة حتى أصل إلى وسط المدينة لأستخرج بعض الأوراق الرسمية الخاصة بالضرائب أو الإقامة أو أوراق التفليسة كما أعلنتها المحكمة، وأتذكر أن ابنتي الصغرى رضوى كانت في المرحلة الثانوية وكانت هي الأخرى مفتونة بقصة الملكة نازلي ودراما حياتها، فكانت تأتي معي أحيانًا وتشجعني على الاستمرار في البحث في المرات القليلة التي كنت أفقد فيها الأمل وينتابني اليأس عندما أبحث أيامًا عن إحدى الأوراق وأكتشف بعد أسبوع من البحث أن الملف كله كان قد اختفى ولا أحد يعرف أين هو، وكنت أحيانًا أواجه نظرات الشك من الموظفين المسئولين عن بعض الأوراق الرسمية والذين لا يقتنعون بحجتي في أنني أكتب عن حياة هذه المرأة التي كانت يومًا ما ملكة على بلادي.

تفاصيل كثيرة عانيت منها أثناء بحثي عن الأوراق الرسمية المتعلقة بحياة الملكة نازلي منذ عام ١٩٥٠ وحتى وفاتها عام ١٩٧٨، وقد بدأت البحث في أكثر من مكان داخل أروقة الحكومة الأمريكية، ومصلحة الجوازات والهجرة ومصلحة الضرائب ووزارة العدل، وأعترف أن الرحلة قد أرهقتني كثيرًا لسببين: أولهما أن معظم الوثائق الخاصة بالملكة نازلي قد تم إعدامها أو إخفاؤها بشكل أو بآخر، فقد كنت أتتبع الخيوط وقبل أن أصل إلى نهايتها أجد أن كل المعلومات قد اختفت ولا أحد يملك إجابة عن سر اختفائها؛ ثانيًا كانت الأوراق والملفات التي كنت أبحث عنها يعود تاريخها إلى ثلاثين عامًا حيث لم يكن هناك كمبيوتر يحفظ تلك الأوراق، وبالتالي فإن معظم الملفات قد تم حفظها في أماكن غير معروفة أو أنها أُعدمت لتقادم الفترة الزمنية، وبالتالي فإن حصولي على ورقة واحدة رسمية كان يمثل بالنسبة لي إنجازًا كبيرًا، فأحيانًا تكشف لي تلك الورقة عن تفاصيل أستطيع منها أن أكمل النصف الآخر من المعلومة التي وصلت إليها، وهكذا استمر الحال عامًا كاملًا جمعت فيه الكثير من المعلومات وحفظتها جميعًا مع شهادات بعض المصريين الذين عاصروا وجود الملكة وابنتها فتحية، حتى استطعت وبصعوبة أن أجمع قطع الزجاج المتناثرة لأضع الوجوه أمام المرآة.

وقد حصلت أثناء بحثي داخل ملفات مصلحة الضرائب الأمريكية على وثيقة

مهمة احتوت على تفاصيل الحكم الصادر ضد رياض غالي من مصلحة الضرائب الأمريكية، والتي تطالبه بمبلغ ستة آلاف وأربعمائة وستة وخمسين دولارًا قيمة الضرائب المستحقة عليه لعام ١٩٥٧ نظير أرباحه من تأجير آبار البترول التي يملكها في المكسيك، وهذا يعني أن صافي الأرباح التي حصل عليها غالي في ذلك العام لم يتجاوز الخمسين ألف دولار.

وقد تضمنت الوثيقة الالتماس الذي قدمه غالي للمحكمة والذي يبرر فيه عدم سداده للضرائب المستحقة عليه على اعتبار أنه لم يكن مواطنًا أمريكيًّا في تلك الفترة، فقد كان مقيمًا بشكل مؤقت داخل الولايات المتحدة الأمريكية، وبالتالي لا يحق له دفع ضرائب على أرباح حصل عليها من خارج الولايات المتحدة.

وقد كشفت الوثيقة عن المعلومات الخاصة بإقامة كل من رياض غالي وزوجته فتحية والملكة نازلي في أمريكا بدءًا من عام ١٩٤٧ وحتى تاريخ الدعوى المرفوعة عليه عام ١٩٦٥، والتي أراد غالي أن يبرر للمحكمة أسباب عدم التزامه بدفع الضرائب المستحقة عليه، على اعتبار أنه لم يكن قد حصل على الجنسية الأمريكية، غير أن قوانين ولاية كاليفورنيا تلزم من يقيم فيها بدفع ضرائب على الدخل حتى ولو كانوا من غير الأمريكيين، فقد أثبتت المحكمة أن رياض غالي يمتلك منزلًا في بيفرلي هيلز وأولاده يتعلمون في المدارس ويتمتعون بالرعاية الصحية، وبالتالي فإن قوانين الولاية يجب أن تطبق عليهم حتى وإن لم يحملوا الجنسية الأمريكية، وقد ألزمت المحكمة رياض غالي بدفع المبالغ المستحقة عليه.

ولكن أخطر ما جاء في الوثيقة أنها كشفت الوضع القانوني لإقامة كل من الملكة نازلي والأميرة فتحية ورياض غالي طوال فترة إقامتهم في الولايات المتحدة، فقد كانوا يقيمون بشكل مؤقت ولم يتقدم أي منهم بطلب للحصول على الجنسية الأمريكية طوال تلك الأعوام، فقد حصلت الملكة نازلي ـ كما ذكرت سابقًا ـ على حق الإقامة المؤقت بعد إسقاط الجنسية المصرية عنها وإلغاء جواز سفرها الدبلوماسي من قبل الحكومة المصرية، لحين تسوية وضعها القانوني داخل الولايات المتحدة الأمريكية لاكتساب حق الإقامة الدائم «Permenant Resident»؛ تمهيدًا لحصولهم على الجنسية الأمريكية، لكن الملكة اكتفت بتصريح الإقامة المؤقت طالما أن القوانين الأمريكية كانت تسمح بذلك، حتى صدر قانون الهجرة عام ١٩٦٦ وألزمت الحكومة الأمريكية كل المقيمين فيها بوضع مؤقت أن يتقدموا للحصول

على الجنسية الأمريكية، والثابت في الأوراق الرسمية أن رياض غالي تقدم بالفعل وحصل على الجنسية الأمريكية في نفس العام.

والغريب أن حق الإقامة المؤقت يعتبر في جميع دول العالم وخاصة في أمريكا من الأوضاع الشائكة؛ حيث إن الدولة المضيفة تفرض على المقيم فيها بشكل مؤقت بعض الشروط القاسية ومنها عدم قدرته على السفر إلى أي بلد أو حتى إلى أي ولاية إلا بتصريح من مصلحة الجوازات، كما أن الدولة في هذه الحالة لا تمنح المقيم فيها أي وثيقة يمكن أن يثبت بها هويته، وكان السؤال الذي يتبادر إلى ذهني: لماذا لم يتقدم رياض غالي بطلب منحه الجنسية الأمريكية وهو يعلم أن الجنسية المصرية قد سقطت عنه مدى الحياة؟ ولماذا اكتفت الملكة بهذا الوضع الشائك دون أي محاولة منها لتحسين وضعها القانوني واكتسابها الجنسية الأمريكية؟

لا أحد يعرف الأسباب الحقيقية التي جعلتهم يعيشون في هذا الوضع المؤقت بدون جوازات سفر تحمل لا الجنسية المصرية ولا الجنسية الأمريكية، وكانوا في كل مرة يرغبون في السفر يتقدمون إلى مصلحة الجوازات كي تعطيهم إذنًا بالخروج والعودة، وهذا ما حدث عندما مات الملك فاروق عام ١٩٦٥؛ حيث حصلت الملكة وابنتها فتحية ورياض غالي على إذن للسفر إلى إيطاليا، وكان الإذن مشروطًا بضرورة العودة إلى الولايات المتحدة قبل مرور شهر من تاريخ المغادرة.

ولك أن تتخيل أنك تعيش في بلد بدون هوية فإذا سألك أحد عن هويتك أو جنسيتك فلا تستطيع الإجابة، أو أن تشعر في كل لحظة أنك مهدد داخل البلد الذي تعيش فيه وأن تصريح إقامتك من الممكن أن ينتهي في أي لحظة دون أن تدري إلى أي بلد يمكن أن تذهب. شعور مؤلم وحياة باردة لها طعم الملح خارج أسوار الوطن في المنفى، لكن لا الملكة ولا رياض غالي كان يهمه كل هذه التفاصيل، فقد كانت الحياة في الولايات المتحدة وبالذات في بيفرلي هيلز وسط أجواء الحياة الأرستقراطية وأضواء الحفلات وفلاشات المصورين الذين يلهثون وراء أخبارهم كفيلة بأن تنسيهم طعم الغربة ورائحة الوطن.

لكن هذه الحياة كان قد تغير لونها وطعمها بعد وفاة الملك فاروق عام ١٩٦٥، فقد كانت الصدمة شديدة على الملكة نازلي التي لم ترَ ابنها منذ عام ١٩٤٦؛ أكثر من عشرين عامًا لم ترَ الملكة نازلي ابنها الملك فاروق وعندما حانت اللحظة كان جثة هامدة.

كان موت الملك فاروق أول صدمة حقيقية في حياة الملكة نازلي، فقد شعرت فجأة أن اللعبة قد انتهت، وأن العمر بأيامه القادمة لا يساوي شيئًا؛ لذا أصرت على السفر إلى إيطاليا لحضور جنازته رغم مرضها الشديد فقد كانت صحتها في انهيار مستمر، وكانت تبلغ من العمر وقت وفاة ابنها واحدًا وسبعين عامًا، ورغم ذلك أصرت على أن تراه للمرة الأخيرة وقطعت المسافة من لوس أنجلوس إلى روما في أكثر من عشرين ساعة كي تودعه إلى مثواه الأخير.

وعندما وصلت الملكة نازلي إلى روما كانت معها ابنتاها فتحية وفايزة وطبعًا رياض غالي، وكانت المرة الأولى التي ترى الملكة حفيدها أحمد فؤاد الذي كان يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، حيث ضمته إلى صدرها وأجهشت في البكاء، فقد كان صورة طبق الأصل من والده الملك فاروق وهو في سنه، كما شاهدت بنات الملك فاروق الأميرات فريال وفوزية وفادية، وكانت فادية قد تزوجت قبل شهور من أمير روسي كاثوليكي.

جلست الملكة نازلي لأول مرة مع بناتها وأحفادها وبكت كثيرًا، فقد كانت تتمنى أن تعيش هذه اللحظة في وجود ابنها الوحيد الملك فاروق. والحقيقة أن شهود العيان أكدوا أن الملكة نازلي كان لها حضور طاغٍ على كل أفراد الأسرة وأن الجميع قدم لها فروض الولاء والطاعة؛ حيث تقدمت كل واحدة من بنات الملك فاروق وقبلت يدها كذلك فعلت الملكة فريدة التي أتت من باريس لتحضر جنازة زوجها السابق وأبي بناتها، وكانت الملكة تجلس طوال الوقت وهي محتضنة حفيدها أحمد فؤاد، وعندما وصلت الأميرة فوزية شقيقة الملك فاروق دخلت على الملكة نازلي وقبلت يدها ثم انخرطت الاثنتان في بكاء حار؛ فقد أحبت فوزية شقيقها الملك فاروق حبًّا جمًّا وكان بالنسبة إليها الرجل الوحيد الذي كانت تثق به، وكانت ترى أن الدنيا قد تخلت عنه في اللحظة التي تخلت فيها الملكة نازلي عنه، وقد كتبت الأميرة فوزية رسائل عديدة إلى أمها ترجوها ألا تعاند الملك وأن تحاول أن تتفهم الضغوط الملقاة على عاتقه، لكن الملكة نازلي كانت تشعر بألم شديد من سوء معاملة ابنها ولم تكن تفكر وقتها إلا في عقابه وإيلامه ردًّا على سوء معاملته؛ الأمر الذي انتهى بأن أخذت الأميرة فوزية جانب شقيقها الملك فاروق، وقاطعت أمها الملكة نازلي سنوات طويلة لم ترَ أي منهما الأخرى ولم يتبادلا أي رسائل أو مكالمات تلفونية.

كانت أول مرة منذ عشرين عامًا تجتمع العائلة، فقد كانت آخر مرة اجتمعوا فيها كان يوم عيد ميلاد الملك فاروق عام ١٩٤٤. جلس الجميع في صمت في انتظار وصول الجثمان بعد أن أقيمت الصلاة عليه بمعرفة عدد قليل من المصريين والعرب في أحد الجوامع على أطراف مدينة روما، وعندما وصل الجثمان طلبت الملكة نازلي الدخول بمفردها معه حيث جلست إلى جواره على ركبتيها تبكي أكثر من ساعة، حتى دخلت ابنتاها الأميرة فايزة والأميرة فتحية ليأخذاها إلى الخارج، وأصرت الملكة نازلي رغم سوء حالتها الصحية والنفسية أن تسير خلف الجثمان.

سارت الملكة نازلي في جنازة ابنها محملة بكل عذابات الدنيا، يعتصرها الألم والندم، كأن أعوامها السبعين قد سقطت فجأة فوق رأسها، وكانت آلامها النفسية تفوق بكثير ما تعانيه من الآلام الجسدية، حتى ودعت ابنها إلى مثواه الأخير؛ حيث أقلته طائرة إلى مصر كي يدفن إلى جوار أبيه الملك فؤاد في جامع الرفاعي بعد أن وافق الرئيس جمال عبد الناصر على ذلك.

كان يومًا مؤلمًا للجميع، وأصرت الملكة على العودة إلى لوس أنجلوس بعد انتهاء مراسم الجنازة، فقد شعرت أن العمر قد انتهى كما انتهت الذكريات ومات الكلام فلم يعد هناك شيء يمكن أن يتشارك فيه أحد غير الصمت الذي ساد الجميع؛ كأنهم اتفقوا جميعًا على دفن كل الذكريات المؤلمة والسعيدة إلى الأبد.

عادت الملكة نازلي إلى بيتها في بيفرلي هيلز وصعدت إلى حجرتها لا تريد أن تتحدث مع أحد، فقد شعرت فجأة أن شكل ولون وطعم الحياة قد تغير، كما شعرت ولأول مرة بالهزيمة أمام الحياة التي صارعتها طويلًا في عناد وقوة لا يملكها أحد فقد عادت من رحلة الحياة بيد فارغة، كما شعرت أن لا شيء يهم فقد تساوت كل الأشياء لا فرق بين الحياة الصاخبة مع الجاه والسلطة وبين الحياة بين ظلمات القبر، فقد ضاع أهم شيء وأجمل شيء في حياتها، ابنها الملك فاروق، ولم يكن حزنها على موته هو الذي كان يمزق قلبها بقدر ألمها الشديد على سنوات القطيعة التي حرمتها من لقائه أو سماع صوته.

كان الألم يعتصر قلبها وشريط ذكرياتها يمر أمام عينيها. انسابت دموعها عندما طاف بخيالها وجهه وهو طفل جميل يلهو بين أروقة القصر، وصورته وهو شاب يافع عندما اعتلى العرش، وأب حانٍ وضحكاته تجلجل وهو يداعب بناته. كانت الملكة

نازلي تبكي بحرقة وتضم صورته إلى صدرها عندما تذكرت كل العناد الذي تسبب في حرمانها منه، وشعرت لأول مرة بالذنب عندما تخيلت وجهه الحزين وقلبه ينزف من الأسى وهو راحل عن مصر منفيًّا عن عرشه، همهمت الملكة باسمه ونادت عليه وهي تنتحب ثم سقطت في غيبوبة استمرت أكثر من عشرة أيام.

وعندما أفاقت كانت قد قررت أن تعتكف في حجرتها لا تريد أن ترى أحدًا سوى آتي أو فتحية، التي كانت لا تدخل حجرتها إلا إذا نادت عليها.

سنوات الهوان

آثرت الملكة نازلي العزلة بعد موت الملك فاروق، وتركت كل شيء لابنتها فتحية وزوجها رياض غالي.

ولأن فتحية كانت تثق ثقة عمياء بزوجها فقد فتحت حسابا مشتركا بكل الأموال المتبقية لدى الملكة في حساب مشترك باسميهما وتركته يدير الحياة، بينما تفرغت هي لتربية الأولاد ورعاية أمها المريضة. والغريب أن موت الملك فاروق كان يمثل علامة فارقة في حياة الجميع، فقد كان وجوده رغم القطيعة التي بينهم يحميهم من أشياء كثيرة؛ أولها رياض غالي الذي تغير سلوكه تغيرًا جذريًّا بعد وفاته، فلم يعد يعبأ لا بالأميرة ولا بأمها الملكة، وكان يتغيب عن المنزل أيامًا طويلة مع سحب مبالغ كبيرة من حسابهما المشترك دون إبداء الأسباب، وأمام تصرفاته الغريبة تصاعدت المشاكل بينه وبين زوجته الأميرة فتحية وكان يبرر غيابه بحجة البحث عن فرص للاستثمار، بينما هو يسافر إلى لاس فيجاس (مدينة القمار) ويخسر على موائد القمار مبالغ طائلة، في الوقت الذي زادت فيه مصاريف الأولاد ولم تعد المبالغ المتبقية تكفي لسد احتياجات الأسرة ودفع فواتير الأطباء والأدوية الخاصة بالملكة نازلي، وكثر الكلام عن سوء سلوك رياض غالي بين أوساط المجتمع المحيط بهم وجرأته على الاستدانة من أي شخص يعرفه. ومع تصاعد الخلافات بينهما يوما بعد يوم، تحول رياض غالي إلى شخص آخر لا يفيق من الخمر ويثور على أتفه الأشياء وفي أي مناقشة مع زوجته كان يحطم كل شيء أمامه، وتحولت الحياة إلى جحيم، وتحول هو إلى وحش إثر إدمانه للخمر وبعض العقاقير المهدئة، وأصبح من الصعب التفاهم معه إلى درجة أنه في إحدى المناقشات احتد على زوجته واعتدى عليها بالضرب، وعندما تدخلت أمها الملكة نازلي أسقطها على الأرض وهو يسبها بأفظع الشتائم. ولم تكن تلك هي الواقعة الوحيدة من سلسلة الإهانات التي كانت تتعرض لها الأميرة فتحية وأمها الملكة نازلي أمام أعين المصريين المقربين للعائلة الذين كانوا عاجزين عن حماية الأميرة والملكة من اعتداءات غالي المتكررة.

وأمام تفاقم المشاكل بين الطرفين واستحالة الحياة بينهما، لم يكن أمام الأميرة فتحية إلا أن تطلب الطلاق في نهاية عام ١٩٦٥، لكن رياض غالي رفض بشدة وهددها إذا ما تقدمت بأوراق الطلاق إلى المحكمة، كما رفض استكمال الحياة بالطريقة التي فرضتها الأيام عليه عندما كانت هي أميرة وهو صعلوكًا، وعندما تدخل بعض الأصدقاء لإصلاح ما بينهما وضع غالي شروطا قاسية على الأميرة وطالبها بالبحث عن عمل.

ولم يكن أمام الأميرة فتحية حل إلا أن ترتب أمر الهروب من جحيم الحياة مع رياض غالي، فقامت بإلغاء الحساب البنكي المشترك بينهما وسحبت ما تبقى من حساب أمها الملكة نازلي وقررت السفر إلى جزيرة هاواي بأولادها وأمها بدون علم غالي؛ حيث كانت الملكة تمتلك بيتا صغيرا على شاطئ البحر هناك، وكانت هذه خطة الملكة نازلي التي قررت أن تنفي رياض غالي تماما من حياتهن، لتنقذ ابنتها من جحيم الحياة مع رجل دمر حياتها وحطم قلبها ولم يعبأ بكل التضحيات التي فعلتها من أجله، ولم تتخذ الأميرة فتحية قرار الهروب إلى هاواي إلا في عام ١٩٦٨، أي بعد ثلاث سنوات من تصاعد المشاكل بينها وبين رياض غالي، وقد تلك السنوات حاولت كثيرا إصلاح الأمور بينهما وتحملت كثيرًا قسوة رياض غالي ومعاملته السيئة لها، لا لشيء إلا لأنها لم تكن تصدق أن الحلم الذي عاشت فيه سنوات طويلة كان حلما كاذبا، وأن الرجل الوحيد الذي أحبته وضحت بكل شيء من أجله تحول إلى وحش ينهش في سمعتها ويهين كرامتها أمام الجميع.

استقرت العائلة في منزل الملكة على شاطئ «كايلوا» في جزيرة هاواي خمس سنوات، بعيدًا عن صخب الحياة في لوس أنجلوس، وجحيم الحياة مع رجل مقامر مدمن لا يتورع عن فعل أي شيء مثل رياض غالي، واستردت كل من الملكة والأميرة فتحية أنفاسهما وعاشتا في هدوء بالمبالغ القليلة التي تبقت من ثروة الملكة.

وفي هاواي واجهت الأميرة فتحية الحياة بكل مسئولياتها لأول مرة، فلم تعد الأميرة المدللة التي تشير إلى الأشياء فتأتي إليها، فقد علمتها التجربة أن بإمكانها إدارة الحياة دون الاعتماد على أحد، والأهم من كل ذلك أنها استطاعت أن تبتعد عن تأثير رياض غالي الطاغي عليها بعد أن داست على مشاعرها وأزاحت الغشاوة عن عينيْها لتراه على حقيقته؛ إنسان أناني ناكر للجميل غير مسئول لا يعبأ إلا بنزواته ومصالحه.

مرت السنوات الخمس دون أن يكون لاسم رياض غالي وجود في حياتهن، وفي المرات القليلة التي كان يحاول الاتصال بهن كانت الملكة نازلي ترفض تمامًا أن ترد عليه الأميرة فتحية أو الأولاد، فقد قررت نفيه من حياتهم إلى الأبد حتى لا تعود ابنتها مرة أخرى تحت سيطرته، وفي المرة الوحيدة التي استطاع فيها غالي السفر إلى هاواي لرؤية أولاده رفضت فتحية مقابلته وأرسلت له الأولاد في أحد الأماكن العامة ليراهم، فتأكد أن زوجته التي كانت لا تقوى على فراقه قد تغيرت وأنها جادة في طلب الطلاق.

عاش غالي في لوس أنجلوس في منزل بيفرلي هيلز مع أمه جليلة وحيدًا لا يدري ماذا يفعل، فقد فَقَدَ الزوجة والثروة والأولاد، ولم يكن أمامه شيء يفعله إلا الاستدانة من كل شخص يعرفه، وانتشرت أخبار انهياره وخساراته المتواصلة على موائد القمار وتراكمت ديونه فلم يعد أحد يقرضه دولارًا واحدًا، وأمام حالة الانهيار التي وصل إليها أصرت فتحية على الطلاق دون أن تعلم أن القدر قد يرتب لها صدمة جديدة على يد رياض غالي؛ صدمة لم تتوقعها ولم يتوقعها أحد، فقد أنهى رياض غالي اللعبة معها بالضربة القاضية وبالورقة الأخيرة التي كانت معه فدفع بالجميع إلى الهاوية.

وكانت هذه الورقة هي التوكيل الذي منحته الملكة نازلي له لتصريف شئونهم منذ عشر سنوات، ولم يكن لهذا التوكيل قيمة إلا لسحب الأموال من حساب الملكة لتسديد المصروفات فقط، دون أن تمتد صلاحيته للتصرف في الممتلكات الأخرى كالمنزل أو المجوهرات، وعندما أغلقت الملكة نازلي حساباتها البنكية وسافرت إلى هاواي تصورت أن هذا التوكيل ليس له أي أهمية بعد أن أغلق الحساب، دون أن تفطن إلى أن صلاحية هذا التوكيل تمتد إلى الحصول على قروض بنكية أيضًا. لا أحد يعرف من صاحب هذه الفكرة الشيطانية التي دفعت غالي إلى استخدام التوكيل الذي معه لاقتراض مبلغ كبير من المال من أحد البنوك الأمريكية بضمان مجوهرات الملكة، هل هو الذي فكر في ذلك كي ينتقم من الجميع أمام تعنت الملكة وإصرار الأميرة فتحية على الطلاق، أم أن هناك آخرين ممن تربصوا بمجوهرات الملكة من محترفي سرقة الثروات استطاعوا أن يستغلوا الحالة النفسية والمالية لرياض غالي وأن يخططوا معه للاستيلاء على آخر شيء تمتلكه الملكة؟

لا أحد يعرف ما الذي جعل رياض غالي يتقدم إلى البنك ليطلب قرضًا بمبلغ

مليوني دولار بضمان مجوهرات الملكة وبشروط قاسية؛ حيث كانت فوائد القرض وحدها تبلغ مائة ألف دولار في العام؛ ليقضي في النهاية على كل شيء تمتلكه الأسرة.

وقد نشرت بعض الصحف خبر حصول غالي على القرض كما نشرت خبر توقيعه عقدًا مع إحدى الشركات الأمريكية التي تنقب عن البترول في ولاية نيفادا، فهل كان حلم استرداد الأموال التي خسرها في المشاريع السابقة يتراقص أمام عينيه، أم أنه تصرف بعقلية المقامر الذي يندفع بلا تفكير وراء المكاسب الكاذبة دون النظر لعواقب الأمور؟

لا أحد يعرف غير أن غالي أخذ الجزء الأكبر من المبلغ ليستثمره مع بعض الأشخاص الذين رتبوا له الصفقة، وسدد بالجزء الباقي ديونه المتراكمة وبدأ يعيش من جديد في رفاهية حيث كان يسرف ببذخ ويقيم الحفلات الصاخبة التي لا يحضرها إلا النصابون ومحترفو سرقة الثروات من الذين وجدوا فيه صيدًا سهلًا للاستيلاء على آخر قرش معه، وأخذ غالي يشيع لكل معارفه أنه نجح أخيرًا في استثمار بعض الأموال في آبار البترول وأنه ليس في حاجة لا إلى الملكة ولا إلى أموالها.

وصلت أخبار القرض الذي حصل عليه غالي بضمان مجوهرات الملكة إلى هاواي؛ حيث انهارت الأميرة فتحية من شدة الصدمة فقد كانت مجوهرات الملكة نازلي هي آخر خطوط الدفاع التي تمتلكها الأسرة أمام تقلبات الزمن. وعلى الفور جمعت الأميرة فتحية متعلقاتها هي وأسرتها وعادت من هاواي إلى لوس أنجلوس لتواجه أصعب كابوس يمكن أن يتخيله أحد، فقد كانت تعرف أن القرض الذي حصل عليه غالي سيدفعهم إن عاجلًا أو آجلًا إلى كارثة مالية ستنتهي بالإفلاس. كانت الصدمة شديدة ولم تتوقع الأميرة فتحية أن يستغل غالي ثقتهم ويلعب بآخر الأوراق التي في يده ليقذف بهم إلى الحضيض.

ألم تتمنَّ الملكة نازلي أن تكون امرأة عادية مثل جميع النساء بعيدًا عن ضغوط الحكم وسلطان السياسة؟ إذن هذه هي حياة النساء العاديات حيث يطمع فيهن النصابون ويستغل ضعفهن الجبناء فلا تاج يحميهم ولا نفوذ يرد لهم كرامتهم، ولا قانون يقف في صالحهن بحجة جهلهن به.

عادت الملكة والأميرة من هاواي لتواجها معًا مصيرًا غامضًا مع رجل انتهازي نصف نصاب ونصف مغامر لا يتورع عن عمل أي شيء حتى التزوير، رجل جاهل طوح بكل شيء ليثبت لنفسه أنه لا يقل عنهن قامة أو مكانة، ولم يكن أمام الأميرة إلا

أن ترمى قلبها تحت قدميها وتلم شتات نفسها لتبدأ الطريق الشاق لتقاوم السقوط؛ حيث قامت برفع دعوى قضائية تطعن فيها بصلاحية التوكيل الذي استخدمه غالي في طلب القروض، وأن غالي قام بخيانة الأمانة على اعتبار أن القرض كان قد تم بدون علم الملكة نفسها؛ حيث قام المحامي جوزيف برنفيلد محامي الأميرة فتحية وأمها نازلي بإثبات مسئولية رياض غالي وحده عن القروض حيث أكد المحامي أن غالي لا يحتفظ بسجلات تجارية توضح كيفية إنفاقه مبلغ القرض وأن المبالغ المقترضة لم يتم إنفاقها على الأسرة، فقد كان الزوجان منفصليْن منذ خمس سنوات وطوال هذه الفترة كانت فتحية مقيمة مع أمها في هاواي ولا تعلم شيئًا عما يفعله.

لكن القانون لا يحمي المغفلين، فقد أقرت المحكمة صلاحية التوكيل الذي يتيح لحامله حرية التصرف في جميع الأحوال دون أخذ موافقة مسبقة، لكن كل ذلك لم يعفِ الملكة ولا الأميرة من المسئولية، فقد كانت القروض تقدم باسميْهما وبضمان ممتلكاتهما؛ الأمر الذي انتهى بتحديد جلسة علنية لبيع كل شيء في المزاد لتسديد الديون المتراكمة عليهما.

وبعد عدة جلسات حكم القاضي على الملكة نازلي بالمسئولية التضامنية مع رياض غالي في القرض وألزمها بالسداد وفقًا للشروط المتفق عليها، وإلا سيتم إعلان إفلاس الملكة وبيع ممتلكاتها في مزاد علني.

كانت الصدمة قاسية على امرأة لم تعرف أي شيء في الحياة سوى أن تكون أميرة، لكن قسوة الحياة صنعت منها امرأة جديدة تحاول بكل قوتها أن تقاوم السقوط، وكان قرارها الأول هو التخلص من الرجل الذي لم يجلب عليها سوى التعاسة والعار، فقامت برفع دعوى لطلب الطلاق رسميًّا أمام محكمة لوس أنجلوس، كما طلبت من المحكمة استخراج أمر بعدم تعرض رياض غالي لها ولأولادها والرحيل عن محل إقامتها في منزل بيفرلي هيلز.

حاول رياض غالي استعطافها بكل الطرق وأعترف بأنه وقع فريسة في يد عدد من النصابين الذين استولوا على أموال القرض؛ حيث اتضح أن الشركة التي استثمر فيها الأموال للكشف عن البترول في نيفادا كانت شركة وهمية، وأنه قام برفع دعوى قضائية عليهم لاسترداد المبلغ الذي استثمره معهم، لكن إصرار فتحية على الانفصال كان أكبر من كل محاولاته الفاشلة، ولم يجد رياض غالي بُدًّا إلا أن يحمل حقائبه أمام الخدم وأمام أولاده ويسحب أمه العجوز ليخرج من بوابة القصر ذليلًا كما جاء

أول مرة، ربما التفت وراءه فوجد في الشرفة الملكة نازلي وهي جالسة على كرسيها المتحرك تبتسم في تشفٍّ بعد أن طوت بيدها الصفحة السوداء التي قضت على ماضيها وحاضرها.

لقد عاش رياض غالي حياته مع زوجة كانت أميرة وحماة كانت ملكة وهو يعرف أنه سيظل بالنسبة لهم الرجل الذي يقوم على خدمتهم. ورغم أن ادعاء الملكة الدائم بأنها تركت الجاه والنفوذ والسلطة وجاءت إلى أمريكا لتعيش كامرأة عادية ادعاء خاطئ، فقد كانت الملكة نازلي تعشق من يتظاهر أمامها بالولاء والطاعة وكان غالي يجيد أداء هذا الدور جيدًا؛ حيث كان لا يردد أمامها سوى عبارة واحدة هي «سمعا وطاعة يا مولاتي»، وكان ينفذ كل أوامرها ولا يستطيع الكلام أمامها في أي شيء إلا لو طلبت منه إبداء الرأي، فقد حرصت الملكة نازلي منذ اللحظة الأولى على أن تُبقي رياض غالي على مسافة منها حتى بعد أن أصبح زوج ابنتها؛ كي تضمن ولاءه وطاعته إلى الأبد، وحتى لا يتصور أن زواجه من ابنتها قد أزال الفوارق بينهما.

هكذا عاش غالي مع الأميرة والملكة، يطيع الأوامر وينفذها، يدفع الفواتير ويدير المنزل ويشرف على الخدم وينظم الحفلات اليومية ويجري الاتصالات مع الشخصيات التي تود الملكة الاتصال بهم، ويدلل الأميرة وينجب منها الأبناء، زوج تفصيل كما أرادت الملكة، فلماذا ثار غالي على هذه الحياة؟ ولماذا قطع الحبل الذي وضعته الملكة في رقبته؟ هل ضعف الملكة بعد أن اقتربت من السبعين وشدة مرضها أغرياه بالتحدي، أم موت الملك فاروق منحه قدرًا من الشجاعة لم يكن يجرؤ عليه وهو على قيد الحياة؟ عوامل عديدة وعواصف كثيرة طوحت بحلم الأميرة والصعلوك.

وعلى مدى ثلاث سنوات أي منذ عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٧٣، جاهدت الأميرة بكل قوتها لوقف نزيف الديون المتراكمة دون جدوى؛ فقد كانت فوائد القرض تتراكم سنويًّا عليها وبسرعة مذهلة، فقامت ببيع بيت هاواي الذي سدد فوائد القرض لمدة عام واحد، كما باعت بعض متعلقات الأسرة من تحف وأثاث لتحول دون إعلان إفلاس أمها، لكن حجم الديون كان يبتلع كل شيء.

قاومت فتحية الواقع بمفردها بكل ما تملك من إرادة وهي مثقلة بحمل أسرة بها ثلاثة أبناء وأم مريضة تحتاج لكل دقيقة من اهتمامها، وأخيرًا فكرت في العمل، وكيف تعمل وليس لديها أي مؤهلات تؤهلها لعمل إداري أو مكتبي؟ ماذا تعمل؟ حاولت

مرارًا الالتحاق بأي عمل دون جدوى، ولأن متطلبات الحياة ضاغطة وفاتورة علاج الأم باهظة، لم يكن أمام الأميرة سوى أن تقبل الالتحاق بشركة لأعمال النظافة. التحقت الأميرة فتحية بالشركة وهي تخفي اسمها الحقيقي، دون أن تخبر أبناءها أو أمها عن طبيعة عملها، بل أوهمتهم أنها تعمل في أعمال إدارية، بينما هي تعمل عاملة نظافة في قصور بيفرلي هيلز، تلك القصور التي لم تكن تتصور أنها ستدخلها من الباب الخلفي، نفس القصور التي دخلتها من قبل من أوسع أبوابها كأميرة وراءها الخدم والحشم.

كانت الأميرة فتحية تبدأ العمل من السادسة صباحًا وحتى السابعة مساءً، ثم تعود لتنظف أمها المريضة وتطعمها وتشرف على طعام أولادها، لم يكن اليوم بما فيه من ساعات يكفي لكل ما تقوم به الأميرة فتحية في صمت تام، وكأنها تعاقب نفسها على كل السنوات التي عاشتها دون أن تدرك قسوة الحياة.

فهل فكرت الملكة نازلي لحظة في دين الزمن الذي غدر بها دون أن تدري؟وهل ستكفي المجوهرات أو أموال الدنيا في استرداد لحظة من التاريخ لمحو العار وستر الفضيحة؟

كان السقوط مدويًا وكانت رياح الخراب تجتاح كل شيء وتقذف بالجميع إلى الهاوية، وفي فبراير عام ١٩٧٣ أعلن البنك الفيدرالي الأمريكي عن إفلاس الملكة نازلي وتمت جدولة ديونها التي تبلغ مليوني دولار وثلاثمائة وستين ألف دولار، قيمة القرض وفوائد الديون المتراكمة عليه.

وتم حصر ممتلكات الملكة كالآتي: بيت بيفرلي هيلز وثلاث سيارات مرسيدس ومجوهرات الملكة التي في حوزة البنك، وتم تحديد جلسة لبيع الممتلكات في لمزاد العلني، كما تم تحديد قيمة الضمان لفتح المزاد بمبلغ مائة وثمانين ألف دولار فقط، وهي قيمة ضعيفة جدًّا إذا ما قورنت بحجم الممتلكات بما فيها مجوهرات الملكة، وقد حاولت الأميرة فتحية زيادة قيمة الضمان إلى خمسمائة ألف دولار دون جدوى.

وقد حددت محكمة لوس أنجلوس جلسة المزاد العلني في ١٤ مارس عام ١٩٧٣، بعد أن أعلن القاضي «جيمس موريارتي» الحكم بإفلاس الملكة نازلي، وحملت قضية التفليسة رقم (١٤٦ ـ ١١٩٧٣) وتم تقدير الديون المستحقة على الملكة نازلي بقيمة مليونين وسبعمائة ألف دولار؛ حيث قدرت ممتلكاتها كالآتي:

قيمة المجوهرات بخمسمائة ألف دولار، كما تم تقدير الممتلكات الأخرى بما فيها منزل بيفرلي هيلز وثلاث سيارات مرسيدس بمبلغ ٩٢٥ ألف دولار.

وقبل جلسة المزاد سرت شائعة بأن خزينة المجوهرات التي في حوزة البنك تحتوي على تاج مصر؛ مما لفت نظر الرأي العام الأمريكي للمزاد خاصة أن بعض الصحف كانت قد نشرت تفاصيل كثيرة عن حياة الملكة نازلي وقيمة المجوهرات التي اعتبرتها بعض الصحف لا تقل قيمتها التاريخية عن مجوهرات ملكة إنجلترا.

كل ذلك كان قد أكسب المزاد حجمًا أكبر من حجمه، فقد كانت الدعاية التي أحيطت بجلسة المزاد تفوق بكثير قيمة الممتلكات نفسها، وعندما تم عرض المجوهرات ولم يكن فيها تاج مصر، أحدث ذلك صدمة لجميع الحاضرين وأفقد بقية المجوهرات قيمتها الحقيقية، فقد كانت الخزينة تحتوي على طقمين أحدهما من الماس والآخر من الروبي الأحمر يرجح أنه جزء من الطقم الشهير الذي صممه بيت المجوهرات «كارتييه» مع التاج الملكي، وكان كل طقم من الأطقم يحتوي على حلق وعقد وخاتم وأسورة، كما احتوت الخزينة أيضًا على خاتم يزن خمسة قراريط وأسورة من الماس والزمرد يرجح أنهما للأميرة فتحية، وقد حجب القاضي كلمة مجوهرات تاريخية حيث أقرت المحكمة أن المجوهرات الموجودة ممتلكات شخصية، وقد علقت جريدة إل إيه تايمز في ١٧ مارس ١٩٧٣ أن التاج لم يخرج قط من مصر، على اعتبار أن التاج لا تملكه الملكة أو الأميرات لكنه يبقى في خزانة القصر ويعتبر من ممتلكات الدولة.

كان يومًا عصيبًا ليس فقط على الأميرة والملكة ولكن على كل المصريين الذين شاهدوا المزاد وشاهدوا اللحظات الأخيرة لبيع آخر ممتلكات الأسرة العلوية؛ حيث علق أحد المصريين قائلًا: كل قطعة من هذه المجوهرات هي قطعة من دم كل مصري.

وقفت الأميرة فتحية تراقب من بعيد مجوهرات أمها الملكة وهي تباع بالمزاد العلني؛ حيث كان لكل قطعة تاريخ وذكريات وأيام شهدت المجد والزهو والبريق، انسابت الدموع من عينيها وملأت وجهها وكأنها تشاهد بيع آخر قطعة من حياتها.

خرجت الأميرة وأولادها الثلاثة وأمها المريضة التي تجاوزت الثمانين من منزل بيفرلي هيلز إلى منزل صغير على أطراف ويست هوليوود، وقد أثار نشر خبر تدهور الحالة المالية للأسرة وعمل الأميرة فتحية كعاملة نظافة في الصحف الأمريكية استياء كل المصريين في أمريكا ومصر، الأمر الذي دفع البعض إلى جمع بعض الأموال

لمساعدة الأسرة، وترك ابنا فتحية رائد ورفيق الجامعة للعمل في أحد المطاعم بضاحية سنتا مونيكا، وعندما جاءت الأميرة شمس شقيقة شاه إيران إلى أمريكا وقابلت الأميرة فتحية، عطفت عليها وقامت بشراء منزل صغير كي تعيش فيه هي وأمها، كما أرسلت الأميرة شاهيناز حفيدة الملكة نازلي من الأميرة فوزية وشاه إيران مبلغا من المال كي تتوقف خالتها الأميرة فتحية عن العمل كعاملة نظافة، واستطاع بعض الأصدقاء من المصريين أن يتوسطوا للأميرة فتحية لدى الرئيس السادات كي يوافق على استخراج جواز سفر مصري لكل من الأميرة فتحية وأمها الملكة نازلي كي تعودا إلى مصر في أي وقت تشاء، بعد أن كانت قد حرمت من وطنها. وقد وافق الرئيس السادات على طلبها وأصدر أوامره إلى القنصل المصري في مدينة سان فرانسيسكو كي يستخرج لهما جوازات السفر المصرية، وقد كتبت الأميرة فتحية خطابًا رقيقًا باسمها وباسم الملكة إلى الرئيس السادات تعربان فيه عن مدى شكرهما الجزيل أمام كرمه وعطفه الكريم عليهما ووعدته بأنها ستعود في أقرب وقت إلى القاهرة.

وقد تأثر الرئيس السادات بالخطاب وأمر باسترجاع بعض المستحقات والممتلكات الخاصة بالأميرة والملكة، لتعيش هي وأولادها وأمها حياة كريمة في وطنهم بعد عودتها.

عاد الأمل مرة أخرى إلى الأميرة فتحية وشعرت أنها يمكن أن تبدأ مرة بداية جديدة، بداية هي التي ستحدد خطوطها وتحسب نتائجها، وشعرت أن الكابوس الذي جثم على صدرها طوال السنوات الماضية على وشك الانتهاء، وبدأت تحلم بالمستقبل في مصر التي لم ترها منذ أن خرجت منها وهي في الخامسة عشرة من عمرها، ومر شريط حياتها أمام عينيها وسط دموعها المنهمرة عندما أمسكت لأول مرة بجواز سفرها المصري، فقد اختارت المنفى دون أن تعي بآلامه، واختارت الزوج دون أن تعرف قدرها، وتحملت الكثير وهي تحاول أن تنسى أنها كانت يومًا ما أميرة وابنة لملك، دون أن تملك القدرة على محاسبة القدر الذي وضعها في أرفع الدرجات ثم قذف بها إلى الحضيض.

لكنها استعادت شيئًا من الأمل واستردت أخيرًا هويتها التي حرمت منها، وبدأت تفكر في المستقبل وتتطلع إلى العودة إلى مصر بعد غياب في المنفى استمر أكثر من ثلاثين عامًا في المنفى. وفي الحديث الذي أجرته معها صحيفة إل أيه تايمز والذي نشر في سبتمبر عام ١٩٧٦ لم تتهم الأميرة فتحية رياض غالي بأي اتهامات وتجاهلت

تمامًا الأسئلة التي كانت الصحيفة تحاول بها تفسير إفلاس الأسرة، وقالت بشكل صريح: الحقيقة أنا لا أعرف. لكنها أعلنت عن فرحتها بحصولها على جواز السفر المصري وأكدت أنها ترتب للعودة إلى مصر هي وأمها مع نهاية العام، وأنها ستقوم بفتح مكتب للرحلات السياحية في القاهرة لتعيش هناك.

كانت الصلة قد انقطعت تمامًا بين فتحية وزوجها رياض غالي من تاريخ جلسة إعلان إفلاس الملكة عام ١٩٧٣؛ حيث كان غالي يقيم مع أمه في أحد الأحياء الفقيرة في منطقة ويست هوليوود، ولم يكن أحد من أولاده يريد أن يتصل به فقد قاطعه أبناؤه الثلاثة بعد كل ما تكبدته الأسرة من معاناة بسببه، فعاش وحيدًا محطمًا يعاني من مرض السكر وضغط الدم ويصاب بين الحين والآخر بحالة من الاكتئاب الحاد، يعيش على المعونات الاجتماعية من «الويل فير» حيث كانت تصرف له كوبونات لشراء الطعام ومستلزمات الحياة، وفي عام ١٩٧٦ أصيب غالي بأزمة قلبية حادة كادت تؤدي بحياته انتقل على أثرها إلى مستشفى نورث هوليوود؛ حيث مكث في المستشفى أكثر من شهرين، الأمر الذي دفع الأبناء إلى زيارته، وكان أثناء مرضه يطلب منهم أن يرى فتحية ولو مرة واحدة قبل أن يموت. وبالفعل طلب الأبناء من أمهم أن تزوره للمرة الأخيرة، وتحت ضغط الأولاد قامت فتحية بزيارته وكانت حالته الصحية والنفسية في غاية التدهور، وعندما رآها بكى بشدة وطلب منها أن تسامحه، فرق قلبها وشعرت تجاهه بالرثاء.

وعندما تحسنت صحته وخرج من المستشفى كانت الأميرة فتحية قد واظبت على الاتصال به بين الحين والآخر لتسأل عن صحته، أو أن تزوره زيارات سريعة، خاصة عندما مرضت أمه، وكانت الملكة نازلي تغضب أشد الغضب كلما علمت أن ابنتها تتصل به، لكن فتحية كانت تسأل عليه بدافع الشفقة ففي النهاية هو أبو أبنائها، وكانت هي الإنسان الوحيد الذي يتحدث معه ويسأل عنه، ويبدو أن غالي كان له تأثير كبير على الأميرة فتحية حتى بعد كل ما حدث فقد كانت تتصل به بشكل يومي من وراء أمها وتحكي له كل شيء كأنه ما يزال يعيش معها. فكان غالي يعرف تفاصيل حصولها على جواز السفر المصري والترتيبات الخاصة بسفرها إلى مصر ويشعر بالاختناق كلما تصور أنه لن يراها أو يسمع صوتها، وطوال الوقت كان يفكر في أي طريقة تحول دون سفرها؛ حتى لا يعيش وحيدًا مهزومًا من الحياة.

النهاية

بدأت الأميرة فتحية تستعد للسفر إلى القاهرة بعد قضاء أعياد الكريسماس مع أولادها، وبدأت في تجهيز كل شيء لهده الرحلة المرتقبة، فقامت بشراء الأدوية ومستلزمات العلاج اللازمة لأمها وبعض الهدايا البسيطة لأقاربها وحجزت تذاكر الطيران إلى مصر بتاريخ ١٥ يناير ١٩٧٦.

كانت الأميرة فتحية مشغولة بترتيبات سفرها، عندما اتصل بها رياض غالي ليبلغها نبأ وفاة أمه، وكان في شدة الانهيار لأنه سيعيش وحيدًا إذا ما سافرت هي إلى مصر، وشعرت فتحية بأن غالي لا يريدها أن تسافر وانتابها الشك في أنه يخطط لشيء ما كي يمنعها من السفر، فقللت من الاتصال به ولم تفكر في زيارته رغم عصبيته الشديدة وإلحاحه على أن يراها، وأمام تدهور الحالة النفسية والصحية لرياض غالي اجتمعت فتحية مع أبنائها رفيق ورائد ورانيا، وحاولت أن توصيهم على أبيهم أثناء سفرها إلى مصر. والغريب أن رائد ورفيق كانا من أشد المعارضين لعودة العلاقات بينها وبين أبيهم، فقد كان أبوهما يعاني من اضطرابات نفسية نتيجة امتناعه عن شرب الخمور بعد مرضه الأخير، وأكدا لها أن الأدوية المضادة للاكتئاب تصيبه أحيانًا بنوبات عنف لا يستطيع أحد السيطرة عليها، خاصة أنه كان قد حاول الانتحار أكثر من مرة وتم إنقاذه في اللحظات الأخيرة، وكان رائد بالتحديد لا يحب أباه مطلقًا ويرفض التواجد معه في أي مكان يتواجد فيه، لكن فتحية بذلت جهدًا كبيرًا كي لا يتعامل أبناؤها بهذا الجحود مع أبيهم ورجتهم أن يتابعوا حالته الصحية والسؤال عليه أثناء غيابها بدون جدوى.

والغريب أن ابنها الأكبر رفيق هو الذي كان يحذرها بألا تحاول الاتصال به قبل سفرها، فقد كان رفيق يعرف عقلية أبيه جيدًا ويعرف أنه لن يتورع عن فعل أي شيء يعوق سفرها إلى مصر، وأمام تعنت الأبناء كانت فتحية تشعر بالذنب وكانت تتمنى أن يظل أبناؤها على علاقة طيبة مع أبيهم، ولم تفكر لحظة في أن أبناءها عاشوا وعانوا وكانوا شهود عيان على سنوات الهوان التي عانى منها الجميع بسببه.

والغريب أن غالي كان دائم الشكوى لكل معارفه من المصريين في لوس أنجلوس،

من جحود أبنائه، وأنهم لا يسألون عنه بسبب أن جدتهم الملكة نازلي كانت قد ملأتهم كراهية وسممت قلوبهم بالحقد عليه، وأنه خسر صحته وكرامته وأولاده بسببها، فهي التي دمرت حياته ودفعته إلى الانهيار بسبب مطالبها التي كان يستحيل تلبيتها.

وأمام تعقد العلاقات بين الجميع كانت فتحية تحاول تخفيف الأمر بالسؤال عليه وتلبية بعض احتياجاته من وراء أمها وأبنائها، لكنها في نفس الوقت بدأت تشعر بعدم الاطمئنان لردود أفعاله في الفترة التي سبقت سفرها إلى مصر ليس بسبب تحذير أبنائها فقط ولكن لأن غالي بدأت تظهر عليه انفعالات مبالغة وعاد إلى شرب الخمور وتناول الحبوب المهدئة بعدما عرف أنها مصرة على السفر إلى مصر، فكان يلح عليها بزيارته وهو يبكي بشدة، أو أن يتصل بها في ساعات متأخرة من الليل، وكانت كل هذه الأشياء تزيد من مخاوفها فأخذت تتهرب منه ولا ترد على مكالماته، لكن رجلًا بعقليته لا أحد يضمن ردود أفعاله ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بالخطوة التي سيقوم بها، من الممكن أن تكون الأميرة فتحية قد انتابها الشك أو كانت خائفة من أي تصرف أحمق يمكن أن يرتكبه غالي، لكنها في نفس الوقت كانت ضعيفة تمامًا أمامه ولا تستطيع أن ترفض له طلبًا، وكان غالي يعرف جيدًا كل نقاط ضعفها ويعرف كيف يعيدها مهما تباعدت إلى قبضته، حتى حدث ما حدث فلا أحد يعرف كيف أقنع غالي زوجته كي تأتي لزيارته، وكيف خطط لقتلها بهذه الصورة البشعة دون أن يفكر لحظة واحدة في كل التضحيات التي قدمتها من أجله.

الجريمة

الزمن.. ٩ ديسمبر عام ١٩٧٦

كان شارع «باري أفينو» من الشوارع الهادئة في حي «وست هوليوود»؛ حيث اصطفت المنازل الصغيرة ذات الشكل المتواضع إلى جوار بعضها، كل منزل يحتوي على شقتين صغيرتين شقة في الدور السفلي وأخرى في الدور العلوي، كانت الساعة تقترب من الثامنة مساءً؛ حيث انخفضت الأضواء وهدأت حركة الشارع حين اقتربت عربة بيضاء صغيرة من المنزل ودخلت الممر الخلفي في مكان وقوف السيارات، توقف محرك السيارة ونزلت منها سيدة جميلة عمرها خمسة وأربعون عامًا، عكست الأضواء الخافتة ملامحها على زجاج السيارة فبدت مثل نساء الأساطير الإغريقية بجسدها الفارع وبشرتها البيضاء وشعرها الكستنائي الأحمر. نزلت المرأة من السيارة

بحرص شديد وضمت معطفها الأزرق على جسدها وصعدت إلى الدور الثاني حيث الشقة رقم ١٢٨٢ . كان الضوء خافتا في الشقة الصغيرة التي لا تحتوي إلا على حجرة واحدة ملحق بها ركن للمطبخ وباب صغير يؤدي إلى حمام صغير أيضًا، ولم تمضِ غير عشر دقائق حتى انطلقت ست رصاصات مكتومة سقطت بعدها السيدة الجميلة في بركة من الدماء، بينما جلس الرجل الذي أطلق النار هادئًا تمامًا يراقب الشارع عبر النافذة الصغيرة.

مر الليل بكل ساعاته والرجل جالس إلى جوار النافذة لا يتحرك، ربما مر شريط ذكرياته أمام عينيه لحظة أن رآها لأول مرة عام ١٩٤٧، أميرة جميلة مثل الحلم ضحكاتها ترن في كل مكان، عيناها الخضراوان تلمعان ببريق ينفذ إلى القلب، كانت تضحك في براءة كأنها لا تعرف أي شيء عن شرور الحياة فتضحك كل خلجة من خلجات وجهها، وكان هو صعلوكًا لا يحلم بأن يقترب حتى منها، كان هو الموظف المكلف بنقل الحقائب التي كانت بصحبة الملكة وبناتها إلى الأوتيل ولم يكن مسموحًا له بتجاوز المكان الذي كانت تتواجد فيه الملكة وبناتها حيث إن أفرادًا من الحاشية تقف حولهم وتمنع أي شخص من الاقتراب. كانت الأميرة الصغيرة لا تتجاوز سن السابعة عشرة في ذلك الوقت (عام ١٩٤٧) لكنها كانت تمتلئ صخبا وأنوثة لم يرها في أي امرأة من قبل. حمل الحقائب في صمت وصوت ضحكاتها يرن في أذنه ولم يتصور وقتها أن هذه الفتاة التي تشبه الحلم ستصبح في يوم ما زوجته وأم أولاده الثلاثة ولم يتصور أحد أن حياتها ستنتهي على يديه بهذه الطريقة المأساوية.

جلس رياض غالي ساعات الليل في مقعده وكان جرس التلفون يرن منذ العاشرة مساءً بشكل لا ينقطع فقام بهدوء وفصل السلك حتى لا يسمع صوته، وجلس مرة أخرى في الظلام وحيدًا وشريط الذكريات يمر أمام عينيه، عندما عرض عليه الملك فاروق منصب سفير في إحدى دول أمريكا اللاتينية بشرط أن يتراجع عن الزواج من أخته، وعندما هدده أحد رجال المخابرات المصرية في نيويورك بالقتل حتى يتراجع عن الزواج، ولحظة أن أجهشت أميرته الجميلة بالبكاء بعد زواجهما، عندما أوقف شقيقها الملك فاروق جواز سفرها وحرمها من لقبها كصاحبة جلالة وأميرة كما حرمها من كل ممتلكاتها، فأخذها في صدره كي يعوضها حنان الأخ وغربة الوطن، ذكريات سعيدة امتدت ثلاثين عامًا لم يكن هناك شيء يحسمها غير الموت.

انتبه فجأة على جرس الباب فقام بسرعة وجمع أكبر كمية من الملابس الموجودة

في ثلاث حقائب قديمة كانت مركونة إلى جوار الباب حيث فتحها بسرعة وألقى بما فيها على الجثة حتى اختفت تمامًا، كان جرس الباب يرن بعنف ولم يملك غالي غير أن يفتح الباب ليجد أمامه ابنته رانيا. وقف بجسده ليسد عليها الطريق حتى لا تدخل، سألته: هل جاءت مامي إلى هنا؟ نظر إليها ولم يجب. أزاحته الفتاة ودخلت ففوجئت بأكوام الملابس الملقاة على الأرض، نظرت إليه في دهشة وسألته: ما كل هذه الملابس القديمة؟ أجابها: هذه ملابس أمي، وكررت سؤالها: ألم تجئ أمي إلى هنا؟ لقد قالت لي إنها ستأتي لتأخذ ملابس جدتي.

تمتم غالي ببعض الكلمات ثم قال: نعم جاءت، لكنها ذهبت لتأتي بحقيبة كبيرة ولم تعد. ظهر اليأس على ملامح الفتاة وهي تتساءل: أين ذهبت؟ لم تعتد التأخير إلى هذا الوقت، كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة مساء، وكانت رانيا قد بدأت رحلة البحث عن أمها عندما سألتها جدتها نازلي عنها وهي تعطيها الدواء قبل أن تنام في العاشرة مساءً، وبعد أن اطمأنت إلى أن جدتها قد نامت بدأت تتصل بكل معارفهم لتسأل عن أمها، وعندما اتصلت بأبيها ولم يرد تصورت أن أمها موجودة عنده وأنهما لم يسمعا التلفون، فجاءت إليه لتبحث عنها. كان الخوف مسيطرًا على رانيا ورأسها يمتلئ بالهواجس المقلقة، وقبل أن تترك أباها نظرت إليه وقالت: أرجوك إذا جاءت مرة أخرى إليك فقل لها أن تطلبني فورًا.

ترك غالي ابنته تذهب بدون إجابات وسط حيرتها وقلقها على أمها التي كانت جثتها ملقاة على بعد سنتيمترات من مكان وقوفها، تركها تبحث عن أمها عند الأصدقاء والمعارف وقلبه ميت لم يهتز لحظة أمام حيرة ابنته التي كانت لا تعرف أين تذهب أو أين تجد أمها، فاتصلت بشقيقيها رائد ورفيق اللذيْن يعيشان في منزل منفصل في ضاحية سانتا مونيكا لتخبرهما أن والدتها خرجت الساعة السادسة مساءً ولم تعد حتى الآن، لكنها لم تذكر أي شيء عن ذهاب أمها لزيارة والدها. وعلى الفور بدأ رفيق ورائد في الاتصال بكل معارفهما فلم يعثرا على أي معلومات عن غياب أمهما، فانطلقا بسيارتهما للإبلاغ عن غيابها في قسم الشرطة.

كانت الساعة قد جاوزت الواحدة من صباح اليوم التالي، وأخذ ابنا فتحية يبحثان عنها طوال الليل في جميع الأماكن التي تذهب إليها دون جدوى.

ظلت الملكة نازلي تنادي على ابنتها «آتي» طوال الليل حيث لم يغمض لها جفن رغم الأدوية الكثيرة التي تناولتها؛ فقد كانت تغفو قليلًا ثم تستيقظ فجأة وتعاود النداء

عليها: «آتي.. آتي». جلست رانيا إلى جوار جدتها، وأمام القلق البادي عليها اضطرت رانيا أن تخترع حكاية عن أن أمها اضطرت أن تقضي الليل في المستشفى مع إحدى الصديقات وستأتي حتما في الصباح، بالطبع لم تصدق الملكة نازلي ما قالته حفيدتها فلم تعتدْ فتحية أن تتركها تحت أي ظرف من الظروف.

كانت الملكة نازلي تشعر أن شيئًا سيئًا لا بد وقد حدث لابنتها، كان صدرها يؤلمها ولم تفلح محاولات رانيا لتهدئتها، فقد ظلت طوال الليل جالسة في مكانها ودموعها تنساب من عينيها، ثم نظرت إلى حفيدتها وقالت: أمك ماتت.. أبوكِ قتلها.

انهارت الفتاة في نوبة من البكاء الشديد، وظلت حتى الصباح لا تعرف الاتصال بشقيقيها اللذيْن ظلا يبحثان عن أمهما في كل مكان طوال الليل، وفي الصباح الباكر جاء الولدان ليطمئنا على جدتهما بعد أن أنهكهما البحث، وجلس الجميع في صمت لا يدرون ما الذي حدث لأمهما.

وهنا فقط اضطرت رانيا أن تذكر ما دار بينها وبين أمها ليلة الحادث، وقالت إن أمها صممت على الذهاب لزيارة أبيها، وطلبت منها ألا تذكر ذلك لجدتها ولا لأشقائها، وهنا نهض رائد وقال: لا بد أنها ما تزال عنده، لكن رانيا أكدت أنها ذهبت بالأمس إلى هناك ولم تجدها، لكن رائد ورفيق نهضا مسرعين للتوجه إلى منزل أبيهما الذي يبعد بضعة أميال عن منزل أمهما، وعندما وصلا إلى هناك بحثا عن سيارتها فلم تكن موجودة أمام المنزل، بل كانت موضوعة بحرص شديد في جراح خلفي من المنزل، وهنا تأكدا أن أمهما لم تغادر هذا المكان فصعدا إلى أبيهما ليكتشفا المأساة.

كان غالي ما يزال جالسًا على مقعده إلى جوار النافذة حتى بدأ ضوء الصباح يتسلل إلى حجرته، نظر إلى كومة الملابس التي تخفي جسد زوجته وأجهش في البكاء، ارتعش جسده بشدة وأخذ ينادي عليها: «آتي.. آتي»، كان يعلم أنه لن يسمع صوتها بعد الآن، رفع المسدس الذي في يده وقربه من رأسه لكنه لم يقوَ على قتل نفسه، فكيف جرؤ على قتلها وقد أحبها بجنون للدرجة التي كان لا يتصور فراقها؟ انتبه على صوت سيارة تقترب من المنزل، عاد بسرعة إلى مقعده وهو يحمل مسدسه في يده كأنه ينتظر المجهول.

في تمام الساعة الحادية عشرة صباحًا توقفت سيارة حمراء موديل فورد أمام منزل رياض غالي وهبط منها ولداه رفيق ورائد، كان غالي يعرف عدد الدرجات التي سيصعدها كل منهما حتى يصلا إلى باب الشقة، كما كان يعرف أنه لن يجرؤ على

النظر في عين أي منهم إذا ما اكتشفوا ما حدث، وقبل أن يقترب الشابان من الباب انطلقت رصاصة من المسدس الذي يحمله في يده لتستقر في رأسه.

دخل الشابان المكان ليشاهدا أفظع مشهد يمكن أن يراه إنسان؛ حيث جسد أمهما ملقى تحت كومة الملابس القديمة، بينما أبوهم غارق في دمه على مقعده الخشبي إلى جوار النافذة.

لا أحد يعرف كيف مرت الدقائق على الشابين حتى وصل رجال البوليس، لكن شهود عيان من الجيران أكدوا أنهم سمعوا صوت الرصاصة وسمعوا صوت الشابين وهما يصرخان فصعدوا إلى شقة «مستر جالي» ليجدوا مشهدًا دراميًّا شبيهًا بمشاهد الملاحم الإغريقية، كان رائد يجلس على الأرض يحتضن جسد أمه وهو يجهش في البكاء، بينما كان رفيق يحتضن أباه الذي أطلق الرصاص على رأسه قبل دخولهما بثوانٍ قليلة. وبعد لحظات امتلأ شارع باري أفنيو الهادئ بعربات البوليس والإسعاف وتزاحم المارة والجيران حول المنزل، بينما لمعت كاميرات مندوبي الصحف وهي تلتقط صورًا لجثة الأميرة فتحية وهي ملفوفة بملاءة بيضاء قبل أن تستقر في عربة الإسعاف، وصورًا لرياض غالي وهو محمول على إحدى النقالات قبل أن يدخله رجال الإسعاف إلى جوارها.

كانت أصوات سارينة عربات البوليس تكسر صمت الصباح البارد الذي اختفت فيه الشمس وتجمعت فيه السحب الدكناء على غير العادة تمهيدًا لسقوط الأمطار، كأن المدينة تريد أن تودع بطريقتها أجمل وأرق أميرات العائلة العلوية.

ولكن لماذا ذهبت الأميرة فتحية لزيارة زوجها في ذلك اليوم؟ ولماذا أخفت سيارتها فلم تضعها أمام المنزل ووضعتها في الخلف؟ أسئلة كثيرة كانت تحتاج إلى إجابات لا يعرفها غير من عاش الأحداث، لكن أوراق القضية كانت مثيرة ومليئة بالمفاجآت، فقد كانت الجريمة رغم بشاعتها تعلن عن علاقة عاطفية في غاية التعقيد والخطورة بين أميرة وصعلوك، لم يرقَ يومًا إلي نبالتها ورقتها وتضحياتها له، فلم تكن الأميرة فتحية قد عرفت في حياتها رجلًا سواه، وكانت تحبه بحجم التضحيات التي ضحت بها من أجله، وهذا ما أكده الكثيرون ممن عرفوها، ورغم كل ما فعله رياض غالي في رحلة حياتها معه ورغم كل العذابات التي لاقتها على يديه، كانت تلتمس له الأعذار دائمًا ولا تحب أن ينتقده أحد أمامها ولا حتى أبناؤها، ولم تذكر ولو مرة واحدة لا للصحف ولا لأي شخص من معارفها كيف بدَّدَ غالي ثروتها وحوَّل حياتها

إلى جحيم، فقد كانت تعاني في صمت نبيل وإصرار على استكمال مشوار الحياة، رغم ما تعانيه من ألم وانكسار، وعندما ساءت معاملته لها قررت الانفصال عنه والذهاب إلى هاواي لتعيش هي وأولادها وأمها الملكة نازلي منذ عام ١٩٦٥ دون أن تطلب الطلاق منه رسميًّا ودون أن تشهر به، فقد كانت تدفع في صمت ثمن اختيارها الذي كان بمثابة لعنة على الجميع، غير نادمة لا على اللقب الذي حرمت منه كأميرة وابنة ملك وشقيقة ملك، ولا على الثروة التي بددها بجهله وطمعه ولا على الحياة التي أحالها إلى جحيم، فدمر كل من حوله غير عابئ بتضحياتها من أجله ولا بأولاده الذين عانوا الكثير طوال حياتهم من أب مثله لا يفيق من الخمر ولا يهمه مستقبلهم وحياتهم، فقد كان الأولاد يعرفون أباهم أكثر منها وكانوا يحذرونها من الذهاب إليه، لكن الأميرة فتحية كانت دائمًا تغفر لرياض غالي أخطاءه، بل وتبررها وتعتبر أن ما حدث لعلاقتهما مجرد سوء حظ وليس سوء تدبير، لكنها لم تتصور لحظة واحدة أن رياض غالي يمكن أن يؤذيها، فقد كانت تعرف جيدًا مدى حبه الشديد لها دون أن تدري أن الحب الشديد عند رجل مثل رياض غالي قد ينقلب إلى كره شديد يؤدي إلى الموت.

وقد أكد الجميع على أن الأميرة فتحية كانت تتمتع بشخصية ساحرة شديدة الرقة والعطف لا تحتمل أن ترى شخصًا محتاجًا، وكانت دائمًا تقف إلى جوار الآخرين تمد لهم يد المساعدة بأي شيء لديها، فقد كانت تحمل قلبًا رقيقًا ونية صافية تجاه الجميع، وكان عشقها لمصر يفوق الحدود حتى إن دموعها كانت تسيل عند ذكرها، ويذكر أن القنصلية المصرية في سان فرانسيسكو كانت قد أقامت ليلة مصرية عام ١٩٧٤ احتفالًا بمرور عام على نصر أكتوبر، حضرتها الأميرة فتحية وكانت ترتدي قفطانًا وحليًّا مصرية، وكانت فخورة بكل ألوان الفنون التي قدمت، فقد كانت تعشق كل ما هو مصري، وكانت تسابق الزمن قبل مقتلها كي تعود إلى مصر بفارغ الصبر.

تقول رانيا ابنة الأميرة فتحية ورياض غالي في التحقيقات الأولية لجريمة مقتل أمها:

إن أمها كانت في غاية السعادة وهي تستعد للسفر إلى مصر هي وجدتها، وكانت دائمًا تحكي لها ولأشقائها عن مصر، بلدها التي حرمت منها طوال ثلاثين عامًا، وإنها بكت كثيرًا من الفرحة عندما حصلت على جواز السفر المصري، وكانت سعيدة جدًّا بأنها ستعود إليها مرة أخرى، وطوال الأسابيع الأخيرة قبل مقتلها كانت مشغولة

بحجز تذاكر الطيران وشراء بعض الهدايا قبل سفرها، كما أكدت رانيا على أن أباها كان يمانع وبشدة فكرة السفر، وكان عنيفًا في حديثه معها إلى حد أنها قطعت إحدى المكالمات التلفونية معه وبكت بشدة من سوء معاملته لها، وقررت ألا ترد على مكالماته بعد ذلك، لكن رياض غالي كان يتصل بها كل يوم ويتوسل لابنته كي تصله بها، ويوم الحادث وفي الساعة السادسة مساءً اتصل رياض غالي بها وتحدث معها أكثر من ساعة، وكان يبكي بكاءً شديدًا ويتوسل إليها أن تأتي لزيارته كي يراها للمرة الأخيرة قبل سفرها إلى مصر، لكنها رفضت بحجة انشغالها قبل السفر، لكن رجلًا مثل غالي لا تغلبه الحيلة، فقد ظل يلح عليها ويتوسل إليها أن تأتي لزيارته، فقد كان مصرًّا على أن يراها كأنه يخطط لشيء في نفسه.

وأمام إلحاحه الشديد وتوسله كي تأتي لتأخذ ملابس أمه التي توفيت منذ شهور معها إلى مصر كي توصلها إلى شقيقاته، وأمام تدهور حالته النفسية والصحية شعرت الأميرة فتحية بالشفقة عليه ورق قلبها وقررت الذهاب لزيارته رغم معارضة ابنتها.

وأكدت رانيا في التحقيقات، أن أمها طلبت منها عدم ذكر أي شيء عن زيارتها لوالدها أمام جدتها أو شقيقيْها رائد ورفيق، وقالت إنها ستذهب كي تأتي بملابس جدتها وسوف تعود خلال نصف ساعة فقط. وذهبت فتحية لزيارة غالي دون أن تدري أنه كان قد خطط لقتلها، كما خطط لقتل نفسه، ليطوي بذلك صفحة مريرة من علاقة عاطفية عاصفة دمرت حياة كل منهما.

ذهبت فتحية إلى رياض غالي ووضعت سيارتها عند السلم الخلفي، كما طلب منها حتى يمكن إنزال الحقائب بسهولة إلى السيارة، فقد رتب لكل شيء بدءًا من الحقائب التي وضع فيها. ملابس أمه والمسدس الذي وضع فيه سبعة أعيرة نارية، والساعة التي كان ينتظرها فيها. وبالفعل جاءت فتحية في تمام السادسة والنصف مساء وعندما صعدت إلى شقة غالي وجدت الباب مفتوحًا ووجدته يجلس في الظلام، وقبل أن ترفع يدها كي تضيء النور كان غالي قد أطلق عليها ست رصاصات فسقطت في الحال دون أن تنطق بكلمة.

وفي صباح اليوم التالي للجريمة تصدرت صورة رياض غالي وفتحية بنت الملك فؤاد الصفحات الأولى من جميع الصحف الأمريكية، كان المانشيت الرئيسي يحمل عنوان «مقتل شقيقة الملك فاروق، بعد أن أطلق عليها زوجها رياض غالي ست رصاصات»، كما أفردت الصحف تفاصيل الجريمة وكيف أن رياض غالي حاول

الانتحار بعد أن أطلق الرصاص على نفسه لكنه لم يمت وتم نقله إلى مستشفى جامعة «يو سي إل إيه» في حالة حرجة.

كما أفردت الصحف قصة حب العنيفة التي كانت سببًا في الإطاحة بعرش الملك فاروق، الذي عارض بشدة زواج شقيقته الأميرة فتحية من رجل عادي غير مسلم، وكيف أن إصرارها على الزواج منه قد حرمها من ألقابها وممتلكاتها قبل قيام الثورة، فعاشت معه في الولايات المتحدة الأمريكية حياة امتدت أكثر من ستة وعشرين عامًا؛ حيث كان ثمن الرحلة باهظًا وكانت الصدمة كبيرة، أكبر من أن يتحملها أحد، وكان موت الأميرة فتحية فضيحة مدوية بمعنى الكلمة، وكأن القدر اختار أن ينهي تاريخ الملكية المصرية بوصمة عار تناقلتها الألسنة في مشارق الأرض ومغاربها، فقد كان مقتلها نهاية للعنة التي طاردت أبناء الأسرة العلوية؛ حيث انتهى الأمر بدماء كثيرة لوثت الماضي والحاضر والتاريخ.

وفي صمت تام وحزن عميق تم دفن الأميرة فتحية أصغر أبناء الملك فؤاد في مقابر الهولي كروس بمدينة كالفر سيتي؛ حيث حضر جنازتها قلة قليلة من المصريين المقيمين في المدينة وبالطبع أبناؤها رفيق ورائد ورانيا، كما أصرت أمها الملكة نازلي على حضور الجنازة رغم مرضها الشديد، ويؤكد شهود عيان على أن الملكة نازلي سقطت مغشيًّا عليها أثناء الجنازة؛ حيث تدهورت حالتها الصحية وتم نقلها إلى أحد المستشفيات في مدينة لوس أنجلوس؛ حيث دخلت في غيبوبة كاملة مدة ثلاثة أشهر، وطوال مدة محاكمة رياض غالي كانت تفيق بين الحين والآخر لتسأل سؤالًا واحدًا: هل تم إعدامه؟ ثم تغيب مرة أخرى عن الوعي، أو أنها تفيق لتصرخ بأعلى صوتها صرخة مدوية تبكي بعدها بكاءً مرًّا لا يحتمله أحد، فقد كانت تريد الانتقام من رياض غالي ولا تقوى، فكان صدرها يشتعل بالحقد والغضب فلا تملك غير أن تصرخ بأعلى صوتها لتخرج ما بصدرها من النيران التي تنهش قلبها حزنًا على ابنتها، وكانت الدموع تنهمر من عينيها طوال الوقت كأنها تلوم نفسها على كل ما فعلت، وكانت تشعر بأنها السبب الأول في مقتل ابنتها بعد أن دفعتها إلى أحضان رجل كان سببًا في تعاستها وهوانها، وكانت تردد: ليتني رفضت زواجها منه، لكن الندم لا يغسل الذنوب ولا يغفر الأخطاء، لقد حرمها رياض غالي من كل شيء مجدها وثروتها وسمعتها، وحطم ابنتها وحرمها منها، فقد كانت الأميرة فتحية أقرب بناتها إلى قلبها ورغم أنها أصبحت أمًّا وتجاوزت الأربعين من عمرها، فإنها كانت تدللها وتراها

فتحية الصغيرة «آتي» التي لم تفارقها لحظة واحدة، والتي عوضتها عن كل الأبناء الذين أنجبتهم والدين حرمت من رؤيتهم أكثر من ثلاثين عامًا. هكذا عاشت الملكة نازلي أيامها الأخيرة بين آلام الجسد وآلام النفس، لكنها كانت ترفض أن تموت قبل أن يموت رياض غالي.

المحاكمة

تحددت جلسة الاستماع الأولى في قضية مقتل الأميرة فتحية يوم ٦ يناير عام ١٩٧٧ أي بعد شهر من وقوع الحادث في حضور حشد من المصريين المقيمين في لوس أنجلوس، وحشد أكبر من الصحفيين ومندوبي التلفزيون؛ حيث ترأس المحكمة القاضي «شارلز روث تشايلد» في قاعة مينسيبل كورت بغرب لوس أنجلوس وحملت القضية رقم (Ao 75391)؛ حيث حضر رياض غالي (٥٧ عامًا) على كرسي متحرك مرتديًا بذلة السجن الرمادية، كما حضر أبناء فتحية الثلاثة رائد ورانيا ورفيق، وتقدم المحامي العام «ليون سالتي» بقرار الاتهام لرياض غالي وطالب بتشديد أقصى العقوبة على جريمة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد، لكن محامى الدفاع عن رياض غالى «جون بيرك»، كان قد طلب من القاضي تأجيل الجلسة لإجراء الفحص الطبي على المتهم نظرًا لتدهور حالته الصحية بعد أن أصيب بالعمى والشلل وفقدان الذاكرة نتيجة الطلق الناري الذي أطلقه على نفسه، وقد حاول القاضي في جلسة الاستماع الأولى أن يسأل رياض غالي بعض الأسئلة عن الحادث لكنه بدا أمام الجميع لا يعرف أي شيء مما يدور حوله ولم يظهر على وجهه أي تعبير يذكر، وعندما سأله القاضي عن زوجته وعن تفاصيل الحادث لم يجب، ونفى تمامًا معرفته بها أو باسمها.

فوافق القاضي على طلب التأجيل مع عرض المتهم على لجنة طبية ترفع تقريرًا عن حالته العقلية والجسدية للمحكمة، وأجل الجلسة إلى ٧ يونيو من نفس العام.

امتدت المحاكمة وجلسات الاستماع بعد ذلك أكثر من عام ونصف العام، كان رياض غالي طوال تلك الفترة محجوزًا في مستشفى سجن المقاطعة يأتي إلى المحكمة على كرسي متحرك، في حالة صحية متدهورة، وكان يحضر الجلسات دون أن يدري أي شيء مما يدور حوله،وكانت التقارير الطبية التي تعرض على المحكمة تؤكد ذلك.

وطوال جلسات المحاكمة كان القاضي يستمع إلى شهادة الشهود من أصدقاء ومعارف الأميرة فتحية ووالدتها الملكة نازلي؛ حيث ضمت الشهادات ملفًّا كبيرًا يحتوى شهادة أكثر من أربعين شخصية فيها وصف تفصيلي لحياة الزوجين طوال الستة والعشرين عامًا التي عاشاها معًا، كما تضمن ملف القضية أيضًا شهادة أبناء فتحية رانيا ورفيق ورائد، وشهود الحادث من الجيران ورجال البوليس الأمريكي.

وفي نهاية الجلسات تقدم محامي المتهم بالدفاع عنه وشرح الملابسات التى دفعت رياض غالي إلى قتل زوجته واعتبر أن الجريمة نتجت عن مشادة عائلية بسبب رفض غالي سفر زوجته إلى مصر؛ حيث انطلقت الرصاصات منه دون أن يدري، كما قدم للمحكمة تقارير طبية تثبت أن المتهم رياض غالي كان يعاني من حالة اكتئاب مزمن وأنه كان يعالج منذ سنوات بالعقاقير المهدئة التي أثرت على قواه العقلية، واستبعد تمامًا شبهة القتل العمد وطالب بتخفيف العقوبة إلى القتل الخطأ، كما طالب بخروج المتهم بكفالة يقدرها القاضي نظرًا لتدهور حالته الصحية.

غير أن المحامى العام رفض طلب الدفاع وأكد على أن المتهم خطط لجريمته بدقة متناهية وتعمد استدراج زوجته لقتلها، وشرح كيف استخدم المتهم سلاحًا من عيار (٢٥ كاليبر برستول)، بعد أن استدرجها إلى منزله وجعلها تترك سيارتها في الفناء الخلفي للمنزل حتى لا يعلم أحد عن زيارتها له، وشرح كل الملابسات الاجتماعية والشخصية التي دفعت المتهم للتخطيط لجريمته وطالب بتشديد أقصى العقوبة عليه.

مكث رياض غالي في الحجر الصحي قبل النطق بالحكم وكانت حالته الصحية والنفسية في تدهور مستمر، وحاول الانتحار أكثر من مرة بقطع شرايين يده وتم إسعافه في اللحظات الأخيرة، وكان يأتي من مستشفى السجن لحضور الجلسات وهو لا يدري ما يدور حوله.

وفي ٢ فبراير عام ١٩٧٨ أصدر القاضي «لورانس جي» حكمه بإدانة رياض غالي بتهمة القتل العمد بالسجن مدى الحياة، على أن يتم عدم تنفيذ العقوبة حتى تتحسن حالته الصحية؛ حيث إن القانون الأمريكي يشترط لتنفيذ العقوبة أن يكون المتهم كامل الأهلية تمامًا متمتعًا بصحة نفسية وجسدية، وبالتالي تم حجز رياض غالي في الحجر الصحي «بالميدكال يو إس سي سنتر» التابع لسجن المقاطعة، وشمل الحكم الكشف عليه كل ستة أشهر ليرفع التقرير في كل مرة إلى القاضي الذي كان يأمر

بإعادته مرة أخرى إلى المستشفى، كأنه يدفع ثمن كل الآثام التي ارتكبها في حياته، يعيش شبه ميت بلا ذاكرة فاقد البصر والبصيرة، حتى أعاد محاولة الانتحار مرة أخرى ومات في ٢٥ مارس عام ١٩٧٨.

كانت الملكة نازلي تتشبث بالحياة، رغم مرضها الشديد وعجزها عن الحركة عامين كاملين، فقد كانت لا تريد الموت قبل رياض غالي، وفي الشهور الأخيرة من حياتها كانت قد فقدت تمامًا القدرة على الحركة أو النطق، بعد أن حطمت بنفسها المرآة التي جمعت وجوه كل من أحبتهم فتناثرت وجوههم في كل أرجاء الدنيا، ولم يعد لسنوات البريق والزهو أي ذكرى في نفسها، فلم يبقَ منها سوى ملامح مبتورة لكل ما هو إنساني، حتى ماتت في ٢٩ مايو عام ١٩٧٨، وتم دفنها في مقابر الهولي كروس في مدينة «كالفر سيتي» حيث كتب أبناء فتحية على قبرها عبارة: «نحبك يا جدتي.. صلي من أجلنا».

أما أحفادها أبناء فتحية فقد تفرقوا وتواروا عن أعين الناس، فقد عانوا أشد معاناة بعد مقتل أمهم ومحاكمة أبيهم ثم وفاة جدتهم الملكة نازلي التي أحبتهم حبًّا شديدًا، فقد عوضوها عن كل الأحفاد الذين لم ترهم، وأمام حزنهم الشديد وتعاستهم، آثروا الاختفاء بين البشر فغيروا أسماءهم وذابوا بين البشر بحثًا عن لحظة سلام بعيدًا عن التاريخ الذي طاردهم والواقع الذى حولهم إلى أشلاء.

نازلي ملكة.. في المنفى

صدفة غريبة قادت الإعلامية راوية راشد لتتوقف أمام أحد القصور الصغيرة في ضاحية بيفرلي هيلز بالولايات المتحدة الأمريكية، قبل أن تكتشف أنها فيلا الملكة نازلي.

تجذبها الحياة الدرامية لصاحبة الفيلا التي عاشت لحظات صعود إلى المجد وذاقت مرارة السقوط، وتقرر راوية راشد البدء في رحلة شاقة بين الملفات والسجلات لتجمع تفاصيل خيوط حياة الملكة نازلي من القاهرة إلى إسطنبول، ومن فرنسا إلى الولايات المتحدة، ومن إيران إلى سويسرا.

أربعة وثمانين عامًا عاشتها الملكة نازلي، قضت منها أكثر من أربعين عامًا سلطانة وملكة وأم ملك، وقضت الأربعين عامًا الأخرى امرأة وحيدة في المنفى الذي اختارته بكامل إرادتها عندما قررت أن تعيش بين دول أوروبا وأمريكا مع ابنتها الأميرة فتحية.

في هذا الكتاب، تجيب المؤلفة عن العديد من التساؤلات المحيرة: لماذا رحلت الملكة نازلي عن مصر؟ ولماذا تحدت ابنها الملك فاروق وزوّجت ابنتها فتحية برجل أقل منها مكانة وعلى غير ملتها؟ ما الذي حدث لها طوال الثلاثين عاما وكيف انهارت الحياة إلى حد إعلان إفلاسها؟ ما الذي دفع رياض غالي إلى أن يقتل ابنتها فتحية ويطلق النار على نفسه؟ وكيف تبدلت سنوات السلطة والجاه إلى سنوات من الهوان والآلام، لتفقد في النهاية كل شيء.. أبناءها وثروتها واسمها؟

راوية راشد: إعلامية وصحفية مصرية. اشتُهرت بتقديم برنامج «خلف الأسوار»: أول برنامج حوادث يُذاع على التلفزيون المصري. صدرت لها روايتان: «هوس البحر» عام ١٩٩٠ وحصلت عنها على جائزة الدولة التشجيعية، و«صمت الريح» عام ١٩٩٢، بالإضافة إلى ثلاثة كتب: «شخصيات وعواصف» عام ١٩٩٩، والذي كشفت فيه عن شخصيات مبدعة في عالم الشعر والرواية والفن التشكيلي، و«نازلي ملكة في المنفى» عام ٢٠٠٨ والذي تحول إلى مسلسل تلفزيوني، و«يوسف وهبي.. سنوات المجد والدموع» عام ٢٠١٦. صدر أول عمل مسرحي لها عن حياة «جلال الدين الرومي» عام ١٩٩٧، وتمت ترجمته إلى الإنجليزية عام ٢٠١٠.

EL Shorouk الشروق
9789770934708 L.E 55.00
نازلى ملكة في المنفى

دار الشروق
www.shorouk.com